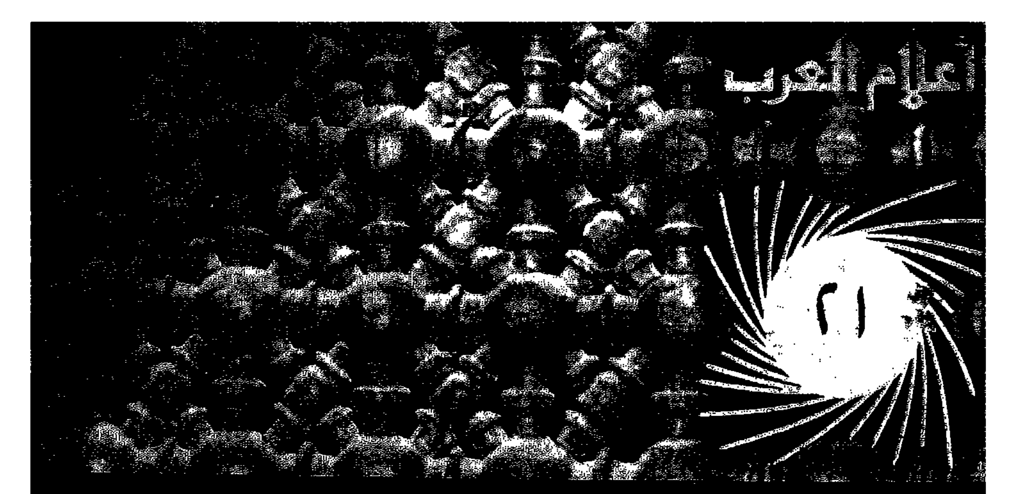


شكيب أرسلان

داعية العروبة والإسلام

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

أعلام العرب

٢١

شكيب أرسلان

داعية العروبة والإسلام

تأليف

أحمد الشرباصي

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله تبارك وتعالى ، ونصلى ونسلم على أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد وآله ، وصحبه وأتباعه ، ومن دعا بدعوته باحسان الى يوم الدين ، ونستفتح بالذى هو خير : « ربنا عليك توكلنا ، واليك أنبنا ، واليك المصير » .

تقديم

« شكيب أرسلان » اسم ملأ فى عصره كلّ مكان ، واستغنى عن التعريف بابن فلان ، فهو السياسى الطائر الصيت ، وهو الكاتب الذائع الشهرة ، وهو الرحالة الواسع الرحلات ، وهو المجاهد فى سبيل وحدة العرب وأخوة الاسلام ، وهو المؤلف للعدد الكثير الضخم من الكتب والآثار ، وهو « أمير البيان » الذى يجرى لقبه مع اسمه على كل لسان يقرأ العربية ، أو يتابع أحوال العرب ! .

هكذا كان شكيب فى حياته وعقب وفاته ، ولكن سنوات قلائل تمر بعد رحيله ، فاذا سيرة شكيب تطوى ، واذا آثار قلمه تخفى ، واذا ذكراه تستبد بها يد الاهمال أو النسيان ، واذا الجيل الجديد لا تقع عيونه على شىء من آثار هذا الرجل الا نادرا ، مع أن وفاته كانت فى ديسمبر سنة ١٩٤٦ م ، أى منذ خمسة عشر عاما وشهور ، فكيف اذا تطاول الأمد بتوالى السنين ؟ .

ان واجب الوفاء يقتضى ازالة هذا الاهمال .

ولقد كتبت عن شكيب رسالة للماجستير ، درست فيها نواحيه الأدبية واللغوية ، فتحدثت عن شكيب الناثر ، والشاعر ، واللغوى ، والناقد ، والمؤلف ؛ وقلت فى بدء المناقشة للرسالة ان هناك نواحى

كثيرة فى شخصية شكيب تستحق الدراسة خارج نطاق الرسالة المقصورة على النواحى الأدبية واللغوية ، فهناك حياة شكيب الضخمة الحافلة ، وصفات شكيب وأخلاقه ، وشكيب والقومية العربية ، وشكيب والاسلام ، وشكيب البحاثة الدءوب ، وشكيب الصحافى ، والخطيب ، والمؤرخ ؛ ووعدت بأن أجعل هذه النواحى موضوعا لبحث مستقل آخر عن أمير البيان .

وهذا البحث هو هذه الصفحات التى أنت أيها القارىء بسبيل استعراضها ومطالعتها ، ومثل هذا الرجل جدير بأن يدور حوله أكثر من بحث ، وأكثر من حديث .

وما أرانى بحاجة الى اطالة الكلام عن مشقة الاعداد لهذا البحث ، فقد اقتضى الرجوعَ الى كتب شكيب الكثيرة الضخمة ، وكتب أخرى عديدة تكفلت بتبيانها هوامش الصفحات ، وأحصاها ثبت المصادر فى نهاية البحث . كما اقتضى الرجوع الى الصحف والمجلات التى كتب فيها شكيب ، أو كتبت عنه ، وهى كثيرة رحيبة الأبعاد والآفاق بطول أعمارها ، وكثرة مجلداتها ، وسعة صفحاتها ، مثل : الفتح ، والشورى ، والرسالة ، والشباب ، والمشرق ، والعرفان ، ومجلة المجمع العلمى العربى .. وغيرها .

وهذه المصادر أصبحت هامة ضرورية ، وصار الباحثون فى الساحات الجامعية وغيرها يضعونها فى طليعة المراجع التى يستنبئونها ويستمدون منها .

ولم تحل عاطفة الاعجاب بشكيب وجهوده بينى وبين تبيان

ما أدركته من ملاحظات أو مآخذ على شكيب فى هـذا المجال أو ذاك ، وجل المعصوم من النقص والخطأ ! .

وأعتقد أن هذا البحث يسعى الى قرائه فى ابانه وأوانه ، فالأمة العربية قد نفضت عن عيونها بقايا الوسن ، وحطمت بيقظتها ونهضتها ما اصطنعته لها أيام الابتلاء والضراء من قيود وأغلال ، وانطلقت تبنى وحدتها مرحلة فى اثر مرحلة ، لتبلغ الوحـدة الكاملة الشاملة ، الجامعة لأبنائها من المحيط الى الخليج .

ونحن الآن فى طليعة سنة ١٩٦٣ م ، وقد خطونا خطوات جليلة مباركة نرجو لها اطراد التوفيق فى تأسيس دولتنا العربية الموحدة ؛ وشكيب كان من دعاة هذه الوحدة الذين بكروا بالحديث عنها والدعوة اليها ، والتمنى لها ، حتى كان يعبر عنها بأنها « نكتة المحيا ، ونشيدة الآمال فى هذه الدنيا » ، وكان يقول انه سيظل يبشر بالدعوة الى هذه الوحدة طيلة حياته ، فان لحق بربه قبل أن تتم ، فيوشك أن يبشر بها وهو تحت التراب ! .

ومنـذ أكثر من ربع قـرن من حاضرنا ، وفى يوم الاثنين ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٣٧ وقف شكيب فى ردهة النادى العربى بدمشق الفيحاء يحاضر عن « الوحدة العربية » فكان مما قاله هـذه السطور [١] :

« ان العرب فيهم النجابة والصلابة وخفة الحركة ، وحدة الذهن وأصالة الرأى ، وكرم الخلق وعلو الهمة ، وتمام القابلية

---

(١) كتاب الوحدة العربية ، ص ٢٣ .

لكل ما يرقّى الأمم ، وفيهم مع ذلك العددُ الجم الذى يجعلهم من أكبر الأمم ، اذ يبلغون فى هذا العصر نحوا من سبعين مليون نسمة بين آسية وأفريقية [1] ، وبأيديهم أوسع البقاع وأقدمها تاريخا ، وأذكاها تربة وأكثرها اعتـدالا وأفرطها [2] الى حق المدنيـة .

فالمدنية البشرية انما نبتت فى البلاد التى هى اليوم مساكن العرب ، وفن الكتابة الذى لا تتصور الحضارة بدونه قد وضعه العرب فى اليمن على أحد القولين ، وعلى القول الآخر هو من وضـع الفينيقيين الذين لم يخرجوا عن كونهم عربا فى الأصل ؛ وبلاد العرب من الجنوب الى الشمال حافلة بآثار العمران المدهشة التى تنطق بما يقدر عليه العرب اذا سمت هممهم الى المجد ، ولا يزال العرب فى نفس قابليتهم التى كانوا فيها ، لا يعوزهم سـوى الانتهاض والارتياض ، والانضمام بعضهم الى بعض .

فما الذى — يا ليت شعرى — يحمل هؤلاء المتشائمين على القول بأن الوحدة العربية انما هى ضرب من الخيال ، وان تحقيقها دونه نقل الجبال ؟ وأى سبب معقول يقدر هؤلاء أن يستظهروا به على تشاؤمهم هذا » ؟ ..

ثم يقول : « على أن هذه الهواجس التى تجول فى صـدور بعض الدول من أجل مشروع الوحدة العربية ليست سـوى آثار الجشع الاستعمارى ، الذى لن ينفع قط أهله ، والذى كانت

---

(١) قال هذا سنة ١٩٣٧ .

(٢) أفرطها : أقربها .

الحرب الكونية العامة أحد آثاره ، فلو تأمل أرباب الأطماع من رجال السياسة بعين الروية ، لوجدوا الوحدة العربية خيرا لهم ، وضمانا كافلا لعدم التنافس فالاقتتال فيما بينهم .

ولا يوجد شيء ضروري للسلم فى الشرق الأدنى ، وبالثانى فى أوربة ، أكثر من وحدة العرب السياسية والعسكرية ، لما فيها من ازالة التنافس الدولى .

اذن قضيتنا هذه قضية سلمية عمرانية مدنية ، مبنية على حفظ الذمار ، منعا للقتال الذى أكثر ما يقع على أسلاب الضعفاء » .

هذا كلام قيل فى سنة ١٩٣٧ ونحن الآن فى سنة ١٩٦٣ ، فلو أراد قائل أن يتحدث عن الأمل الذى دار حوله كلام شكيب ، لاستطاع بلا غضاضة أو تهيب أن يعيد ما قال ، أو يستشهد به أو يستمد منه ، ولتابع نهجَ شكيب فى ترديد ما ختم به حديثه يومئذ عن « الوحدة العربية » قائلا فى جهارة ويقين : « فلتكن اذن كلمتنا دائما : لتحيى الأمة العربية » ! .

ولقد حرصت فى حديثى عن شكيب أرسلان أن أستأنس بأقواله فى المناسبات الداعية اليها ، لأن هذا الاستئناس يعاون على جلاء الحقائق من جهة ، ويقدم الينا من جهة أخرى مجموعة من أفكار شكيب وآرائه التى تؤيد ما نؤمن به من قيم ومبادىء ، فنحن بهذا نعرف الرجل أولا ، ونستعرض الآراء والأفكار ثانيا .

على أنه قد يكون من حقى أو من واجبى أن أذكر أن ما قدمت من حديث عن شكيب فى هذا البحث ، أو فى رسالتى عن نواحيه

الأدبية واللغوية ، ليس نهاية المطاف معه ، فالعزم معقود على أن نعود الى شكيب ثم نعود ، والله من وراء القصد ، يهدى ويرشد ، ويقوّم ويسدّد : وهو ولى التوفيق .

احمد الشرباصى

الجيزة فى ابريل ١٩٦٣ م

حياة طويلة حافلة

المكان بيت من بيت السراة ، يقع فى حارة الأمراء ، بحى آل أرسلان ، بقرية « الشويفات » التى تبعد عن « بيروت » قرابة عشرة أميال ، وتقع فوق ربوة منبسطة تشرف على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وهذه القرية هى احدى قرى مقاطعة « الشوف » ، وهى احدى مقاطعات لبنان .

وهذا البيت هو بيت الأمير حمود بن حسن الأرسلانى والد أمير البيان الأمير شكيب أرسلان .

والوقت هو ليلة الاثنين أول ليلة من رمضان سنة ست وثمانين ومائتين بعد الألف للهجرة (١٢٨٦ هـ) الموافق للخامس والعشرين من ديسمبر سنة تسع وستين وثمانمائة بعد الألف للميلاد (١٨٦٩ م) .

فى هذه الليلة كان ميلاد شكيب أرسلان بعد أخ له سبقه فى الميلاد بسنة ونصف ، هو الأمير « نسيب » .

وقد سماه والده باسم « شكيب » ، وهذا الاسم فارسى ، ومعناه فى الفارسية « الصابر » ، ومادة « الشكب » فى اللغة العربية تدل على العطاء والجزاء .

وشكيب هو ابن حمود بن حسن بن يونس بن فخر الدين ابن حيدر بن سليمان بن فخر الدين بن يحيى بن مذحج بن محمد ابن أحمد بن خليل بن مفرج بن يحيى .

ويمضى النسب الأرسلانى ضاربا فى أعماق الماضى حتى يبلغ

جد الأسرة الذى اشتهرت به ، وهو الأمير أرسلان الذى مات سنة احدى وسبعين ومئة هجرية ، والذى يمضى نسبه مرة أخرى ضاربا فى أحشاء الزمن حتى يبلغ الملك المنذر بن ماء السماء اللخمى .

وتفاخر أسرة أرسلان بأمجاد لها فى التاريخ ، فجدها « الأمير عون » قد اشترك مع خالد بن الوليد فى نجدته لأبى عبيدة فى فتوح الشام ، واستشهد عون فى معركة « أجنادين » . والأمير أرسلان بن مالك المنذرى حارب صنائع الروم فى لبنان بأمر أبى جعفر المنصور الخليفة العباسى ، وفى الحروب الصليبية أبلى آل أرسلان بلاء حسنا ، كما عاونوا دولة الخلافة فى فتوحاتها .

ويحدثنا شكيب بأنه من سلالة « الأشراف » و « آل البيت » ، لأن أجداده قد تناسلوا من الفاطميات[1] . وأبوه الأمير حمود كان رجلا ذكيا كريما شجاعا ، يجيد العربية ويعرف التركية ، وله مشاركة فى الأدب والشعر ، وقد توفى سنة ١٣٠٥ هـ — ١٨٨٧ م ودفن بالشويفات .

وأم شكيب سيدة شركسية فاضلة ، عُمِّرت طويلا ، وكان شكيب يحبها ويجلها ، ويحن اليها بقوة وهو بعيد عنها ، ويبذل أقصى جهده لرؤيتها ولثم يدها فهى « السيدة الوالدة » .

ولقد عنى شكيب فى كتاب « روض الشقيق » وغيره بالحديث عن أسرته ونسبها ومفاخرها ، وهو لا يرى فى ذلك غضاضة ،

---

(١) كتاب روض الشقيق ، ص ١٤٧ .

بل يعده من الأمور المحمودة ، ولذلك نراه يعقد فى تعليقاته على كتاب تاريخ ابن خلدون فصلا فى عشرين صفحة عن الأنساب وقيمتها ، واهتمام العرب بها ، ويقول عن أفراد أسرته :

« واذ كانوا من آل البيت النبوى — وهو أشرف الأنساب بالنظر الى اتصالهم بفاطمة الزهراء التى هى بضعة الرسول عليه السلام ، وهو أشرف الخلق — حرروا أنسابهم لدى نقباء الأشراف ، وكتبوا به الكتب المؤلفة ، وهذا أمر بديهى لا نزاع فيه ، لأن هذا الشرف هو مما يتنافس به ، ومما يستجلب لصاحبه مزايا معنوية ، وأحيانا منافع مادية ، فلا يريد منتسب الى هذا البيت الشريف أن يفقد الدليل على نسبته هذه »[1] .

ويعود فيتحدث عن تمسك العرب بالأنساب ، وما يثيره فيهم من حمية ونخوة وتنافس على المجد من جهة ، وما يثيره من فتن وعداوات تصدع وحدتهم من جهة أخرى ، ويقرر أن الاعتزاز بالنسب اذا لم يؤد الى الانقسام عمل كريم وسنة حميدة ، فيقول :

« ولولا آفة الانقسام هذه لكان التمسك بالأنساب هو من الفضائل الاجتماعية التى يتنافس بها ، ويتمكن بها المصلحون لحكوماتهم وأوطانهم من ترقية أقوامهم بالبحث عن سلائلهم ، والاعتناء بحفظ أصالتها ، ومنع اختلاطها بغيرها مما يشوب نقاوتها » .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ٥ .

ثم يضرب المثل فى هذا بالألمان ، ويبين أن التمسك بالأنساب يدعو الى توارث الفضائل ، والحرص على سمعة البيوتات [1] .

من أجل هذا وغيره عنى شكيب باطالة الحديث عن نسبه وأسرته وأجداده .

وشكيب منسوب من الناحية السياسية الطائفية الرسمية الشكلية الى طائفة « الدروز » ولبنان على عهده — كما يذكر الامام محمد عبده — طوائف كثيرة ، ففيها الموارنة النصارى ، والدروز بالجبل ، والسنيون ، والشيعة ، وفيها دروز حوران ، وشيعة السقيف ، وبلاد بشارة فى نواحى صيدا وصور .

وفيها النصيرية الذين يعتقدون بألوهية على بن أبى طالب . وفيها الطوائف المختلفة : الموارنة ، والروم الملكيون ، والبروتستانت ، والروم الأرثوذكس [2] .

فمن الدروز ؟ ..

اذا رجعنا الى المصادر القديمة وجدنا حديثا متشعبا عن الدروز ، وعن نحلتهم وانحرافهم فى الاعتقاد عن جمهور المسلمين ، فنجد القلقشندى مثلا فى « صبح الأعشى » يحدثنا بأن « الدرزية » هى الفرقة الرابعة من الشيعة ، وأنهم أتباع أبى محمد الدرزى ، وكان من أهل موالاة الحاكم أبى على المنصور بن العزيز خليفة

---

(١) المصدر السابق ـ تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ١٧ .

(٢) تاريخ الأستاذ الامام ، ج ٢ ص ٥٢٤ ـ ٥٢٩ من اللائحة التى كتبها الامام لاصلاح سورية .

مصر ، وكانوا أولا من « الاسماعيلية » ، ثم خرجوا عن كل ما تمحلوه ، وهدموا كل ما أثّلوه [1] ، وهم يقولون برجعة الحاكم وألوهيته ، ولهم أدعية وأيمان لا تتفق مع المعروف من تعاليم الاسـلام .

ويقول الشيخ محمد عبده فى تقريره الذى قدمه الى والى بيروت سنة ١٣٠٤ هـ — ١٨٨٦ م : « والدروز قوم خلو من العلوم بالمرة ، سُذَّج كأنهم فى بدايات البداوة ، ولكنهم أذكياء بجودة الفطرة ، ولا يخشى على كبارهم أن يخلعوا مذهبهم الى مذهب آخر ، وانما يخاف على أبنائهم من ذلك ، وعلى كبارهم من الانقياد السياسى الى دولة الانجليز »[2] .

وتحدثت « دائرة معـارف القرن العشرين » عن الدروز فقالت :

« الدرزى واحد الدروز ، وهم فرقة من الباطنية ، لهم عقائد سرية ، وهم متفرقون بين جبال لبنان وحوران والجبل الأعـلى من أعمال حلب .

ولم يُكتب شىء عن الدروز يصح الاعتماد عليه ، ولا هم من الطوائف العاملة على بث عقائدها ، حتى يجد الباحث ما يعتمد عليه من مذهبها ، فليس أمامنا الا مصادر أجنبية عنهم ، وربما

---

(١) أثل ماله : زكاه وأصله .

(٢) تاريخ الأستاذ الامام ، ج ٢ ص ٥٢٥ من اللائحة التى كتبها الامام لاصلاح سورية .

لا تخلو تلك المصادر من شيء من التحامل أو الخطأ »[1] .

وللدكتور « فيليب حتى » كتاب عن الدروز يقول فيه ان الدروز جنس من الفرس أو العرب الذين هم من أصل فارسى ، وانهم نزحوا الى « وادى التيم » بسورية ، وأن الدرزى داعى الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله وجد فيهم أرضا صالحة لالقاء بذور تعاليمه الباطنية الغريبة التى يرجع كثير منها الى الأفكار والعقائد الفارسية .

ويرى « حتى » أن الخيوط التى يتألف منها نسيج الدرزية الكثير الألوان هى الأفلاطونية الجديدة ، أو الاشراقية التى تأتت عنها شيعة « العارفين » المسيحية فى القرن الثانى للمسيح ، والزرادشتية والهندوكية ، والشيعة الباطنية ، وقليل من المعتزلة ، والصوفية[2] .

وقد سمعت من الأستاذ أنيس فريحة فى أول يناير سنة ١٩٥٥ أن له رسالة مخطوطة عن عقائد الدروز المعاصرين ، ولكنه لا يستطيع نشرها ، وسمعته يؤكد أن المبادىء الدرزية القديمة ما زالت موجودة وان كانت مستورة على سبيل التَّقِيَّة .

هـذه خلاصة عاجلة عن الدروز كما تحدث عنها سابقون

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدى ، المجلد الرابع، ص ٢٦ .

(٢) مجلة الهلال ، عدد مارس ١٩٣٠ ، ص ٦٢٦ .

ومعاصرون [1] ، وننتقل بعدها الى حديث شكيب نفســه عن الدروز . ففى مقاله « النقد التاريخى » نراه يستنكر الرأى القائل بأن الدروز من بقايا الصليبيين ، وأن اسمهم مشتق من اسـم الكونت (درو DREUX) الذى كان من غزاة الصليبيين ، ويقول :

« ويا ليت شعرى ، ماذا وُجد من الدروز مما يشبه الافرنج الصليبيين: أسحنتهم أم ألوانهم ، أم تركيب رءوسهم ، أم أخلاقهم، أم عاداتهم ، أم لفظهم بالعربى الفصيح الذى لا يساويهم فيه أحد من جميع سكان سورية ؟ وكيف أمكن أن يتحولوا هذا التحول العظيم من افرنج صليبيين الى عرب أقحاح ؟ ومتى وقع هــذا التحول ؟ وأين ؟ وأنى ؟ » [2] .

ويعود شكيب فى موطن آخر ليقرر أن الدروز فرقة اسلامية ، فيكتب مقالا يجعل عنوانه : « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا » وفيه يقول :

« الدروز فرقة من الفرق الاسلامية ، أصــلهم من الشيعة الاسماعيلية الفاطمية ، والشيعة الاسماعيلية الفاطمية أصلها من

---

(١) يمكن لمن يريد التوسع فى معرفة الدروز أن يرجع الى مراجع كثيرة مثل : كتاب الدروز والثورة السورية لكريم خليــل ثابت ، والجزء السادس من كتاب خطط الشــام لكرد على ، ومقــال لعيسى اسكندر المعلوف فى مجلة المقتطف عدد ديسمبر ١٩٢٥ ، والجــزء السابع من دائرة المعارف للبستانى ، وكتاب خلاصــة الاثر ، وغير ذلك .

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ١١ ، ص ٤٥٥ .

الشيعة السبعية القائلين بالأئمة السبعة ، وهؤلاء هم من جملة المسلمين كما لا يخفى .

واذا قيل ان الدروز هم الفرق الباطنية التى لا يحكم لها بالاسلام ، فالجواب أن الدروز يقولون : انهم مسلمون ، ويقيمون جميع شعائر المسلمين ، ويتواصون بموافقة الاسلام والمسلمين فى السراء والضراء ، ويقولون إن كل من خرج عن ذلك فليس بمسلم .

ولهذا فأصبح من الصعب على المسلم الذى فهم الاسلام كما فهمه السلف الصالح ، والذى سمع حديث : (فهلا شققت عن قلبه) أن يخرج الدروز من الاسلام ، وفى الشرع المحمدى قاعدة : نحن لنا الظواهر والله يتولى السرائر ، وقد قال الله تعالى : (ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا) .

وهؤلاء لا يلقون السلام فقط ، بل يلقون السلام ويقولون انهم مسلمون ، ويحفظون القرآن ، ويلقن ملقنهم الميت : (واذا جاءك منكر ونكير وسألاك : ما دينك ، ومن نبيك ، وما كتابك ، ومن اخوانك ، وما قبلتك ؟ فقل لهما : الاسلام دينى ، ومحمد نبيى ، والقرآن كتابى ، والكعبة قبلتى ، والمسلمون اخوتى) .

وليس من شعائر الاسلام شىء لا يقيمه أو لا يوجب اقامته الدروز .

واذا قيل انه مع كل هذه المظاهر تحتوى عقيدتهم الباطنية التى تعرفها طبقة العقال على ما يصادم أركان عقيدة السنة

والجماعة ولا يتفق معها فى شيء ، فالجواب : قد وجد فى الاسلام أئمة كبار يترضى عنهم عند ذكرهم ، ولهم قباب تزار وتعلق فيها القناديل ، وكانوا يقولون بوحدة الوجود ، فهل وحدة الوجود مما يطابق السنة ؟ كلا . فهل أخرج المسلمون هؤلاء الأئمة من الاسلام ؟ . كلا .

أما تجسد الاله فليس من عقيدة الدروز كما يتهمهم بعضهم ، والتجسد شيء والترائى شيء آخر . وأما تأويل آى القرآن الكريم بحسب زعمهم ، فكم من فرقة فى الاسلام انفردت بتأويل للآيات الكريمة » [1] .

ويمضى شكيب فى الدفاع عن الدروز قائلا : « والدولة العثمانية أيام كانت هى الخلافة الاسلامية عرفت الدروز مسلمين ، ولما كان جماعة من مشايخ دروز حوران فى الآستانة صدرت ارادة السلطان عبد الحميد الخليفة يومئذ بأن يصلوا الجمعة وراءه فى جامع يلدز ، ولهذا أنا لا أفهم : ما وجه الضرورة لفتح مسألة ديانة الدروز وما فيها من مخالفة الاسلام ، فى وقت يسفك فيه الدروز دماءهم باسراف فى الدفاع عن حوزة تسعة أعشارها — لا بل أكثر من تسعة أعشارها — للمسلمين . لأن الدروز فى سورية ١٥٠ ألف نسمة ، والمسلمين يزيدون على المليونين » [2] .

وحينما تحدث شكيب عن تقزز الشيخ محمد عبده من سماع

---

(١) مجلة الشورى ، عدد ٣١ ديسمبر سنة ١٩٢٥ .

(٢) المرجع السابق .

الألفاظ النابية وأسماء العورات ، لم ينس الدفاع عن الدروز ، فقال عن الشيخ :

« فكان فى هذا الأمر كثير الاستحسان لطريقة الدروز الذين كان العلامة فانديك الأمريكانى الكبير يقول عنهم : تعاشر الواحد منهم خمسين سنة فلا تسمع منه ولا مرة لفظ سوءة ، ولا قصة فيها شيء من الخلاعة ، وكان المرحوم الأستاذ يستحسن جدا هذه المزية فيهم ، ويعجب بآدابهم فى مجالسهم ، حتى آداب العوام منهم »[1] .

ولشكيب فى كتابه « عروة الاتحاد » فصل فى اثنتى عشرة صفحة عن الدروز ، وعروبتهم ، جعل عنوانه « آل معروف فى الذروة من العروبة »[2] . وآل معروف هو لقب الدروز ، قيل انهم سموا به لاشتهارهم باسداء المعروف الى الناس .

ولقد سبق أن الأمير يعد من الناحية الشكلية درزيا ، ولكنه فى الاعتقاد كان سنيا : وكان يتعبد على مذهب أهل السنة ، فهو يصوم ويصلى ويزكى ويحج كما يفعل جمهور المسلمين ، ودفاعه عن الدروز كان سياسة وبقصد تجميع الكلمة وعدم التفرقة بين الأمة.

* * *

ولقد عاش شكيب أرسلان فى عصر حافل بالأحداث والوقائع : انه ولد فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٦٩ م وتوفى فى ٩ ديسمبر

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ، ج ١ ص ٤٠٦ من مقال لشكيب عن الامام .

(٢) عروة الاتحاد ، ص ٢٥ ــ ٣٦ .

سنة ١٩٤٦ . أى أنه شهد الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، كما شهد النصف الأول من القرن العشرين ، وفى هذه الفترة حدثت أحداث ووقعت أمور ، ففيها استأسد الاحتلال الأوربى لبلاد العروبة والاسلام ، وفيها استبان عسف الحكام الأتراك بالعرب ، وفيها تنبه الوعى القومى العربى ، ونشأت فكرة التخلص من الحكم العثمانى ، والاستقلال فى الحكم العربى ، وفيها سقطت الخلافة وانطوى حكم بنى عثمان ، وفيها وقعت الحربان العالميتان الأولى والثانية ، وفيها اقتسمت انجلترة وفرنسة بلاد العرب بعد تمزيقها ، وفيها اقتطعت فلسطين من أرض العروبة واغتصبها اليهود ، وفيها ظهرت بدع الاستعمار ، والوصاية ، والانتداب ، والاشراف ، وفيها تخلص العرب من الاحتلال فى كثير من بلادهم ، وفيها قامت عصبة الأمم ثم ماتت ، وفيها نشأت هيئة الأمم المتحدة .. الخ .

وشكيب بين هذه الأحداث وسواها يعيش ويسعى ، ويحيا حياة عاملة دائبة ، يتصل فيها بالأحداث ، ويتأثر بها ويؤثر فيها بما يستطيع ، ولذلك يسهل علينا أن نقرر أنه قد قضى حياة جليلة حافلة ...

وكان شكيب قريبا فى العمر من شقيقه نسيب ، فكأنهما توأمان ، ولما بلغ شكيب الخامسة من عمره أحضر لهما أبوهما فى المنزل معلما اسمه الشيخ مرعى شاهين سلمان ، فعلمهما الدروس الأولى فى القراءة والكتابة ، وفى الصيف ذهبت الأسرة الى بلدة « عين عنوب » ، وهناك أحضر الأمير حمود لولديه معلما آخر

اسمه أسعد فيصل ، فعلمهما تلاوة القرآن الكريم وحفّظهما جانبا منـــه .

وبعد رجوع الأسرة الى « الشويفات » دخـــل الشقيقان المدرسة الأمريكية بالقرية ، حيث تلقيا دروس الجغرافية والحساب واللغة الانجليزية وغيرها ، وفى سنة ١٨٧٩ م دخلا « مدرســـة الحكمة » فى بيروت ، وهى مدرسة مارونية مشهورة باجادة تعليم اللغة العربية ، فمكث فيها شكيب ثمانى سنوات يتعلم ، وكان أقوى الأساتذة تأثيرا فيه الشيخ عبد الله البستانى اللغوى الأديب الشاعر الذى قضى أكثر من ثلاثين عاما فىتدريس اللغة العربية ، وكان مشهورا بتعصبه لها ودفاعه عنها ، وقد ولد فى قرية «الدبية» بلبنان سنة ١٨٥٤ م وتوفى سنة ١٩٣٠ ، وهو صاحب المعجم اللغوى المعروف « البستان » [١] .

وقد زار الامام محمد عبده مدرسة الحكمة وشكيب يتعلم فيها ، فأعجب الامام بالفتى الذكى الذى بدأ يقول الشعر ، وتوقع الامام للفتى غداً مشهورا ، ومنذ ذلك اليوم أخذت علاقة شكيب تتوثق بالامام ، فيسمع منه ويتأثر به .

وقد توثقت الصلة منذ ذاك بين الأستاذ الامام وأسرة شكيب أيضا ، فالشيخ يزور الأمير حمود أرسلان (والد شكيب) فى الشويفات ، ويتراسل معه ، وبين يدى رسالة خطية بخط الأستاذ الامام ، كتبها من بيروت الى والد شكيب بعد عودته من زيارة

---

(١) انظر ترجمة فى مصادر الدراسة الأدبية ، ج ٢ ص ١٩٣ .

لبيته فى « الشويفات » ، وكانت أم شكيب فى ذلك الوقت حاملا ، والأسرة تنتظر مولودا جاء بعد أيام ، وهو الأمير عادل أرسلان .
وهذا نص الرسالة :

« سعادة الأمير المفخم حفظه الله

وصلنا بيروت شاكرين لفضلكم ، ذاكرين لأنسكم ، ينازعنا الشوق كل وقت للطف محاضرتكم ، ثم يهمنى أن أطمئن من جهتكم بالوقوف على راحة أفكاركم من قبل صحة أهل بيتكم الكريم ، وصحة القادم الجديد حفظه الله [1] ، فأرجو أن تمنوا بما يسكن له الخاطر من أخباركم ، والسلام عليكم وعلى حضرات الاخوان أنجالكم ، والله يحفظكم .

٢١ شوال ١٣٠٤ محمد عبده »

وفى سنة ١٨٨٧ م دخل شكيب مع أخيه « المدرسة السلطانية » ببيروت ، وفيها درس على الأستاذ الامام الفقه والتوحيد بجوار علوم المدرسة الأخرى .

وفى سنة ١٨٨٩ م سافر شكيب الى دمشق ، وحضر مجلس الشيخ محمد المنينى مفتى الشام .

وفى سنة ١٨٩٠ م زار شكيب مصر لأول مرة ، فقضى فى

---

(١) كتب شكيب فى أعلى أصل الرسالة التعليق التالى : «منه الى المرحوم والدى الأمير حمود ارسلان ، وهذا على أثر زيارته لنا فى الشويفات ، وأما القادم الجديد فهو أخى عادل ، اذ كان ولد فى تلك الجمعة » .

الاسكندرية قرابة شهر ، ثم انتقل الى القاهرة ، واجتمع بالشيخ محمد عبده الذى كان قد عاد الى مصر بعد نفيه ، وكان شكيب قد أرسل الى الامام الشيخ محمد عبده يستشيره فى قدومه الى مصر ، فكتب اليه الشيخ يحرضه على ذلك ، وقد استطعت العثور على رسالة خطية بخط الامام ، كتبها من مصر الى شكيب فى بيروت حول هذا الموضوع ، وفيما يلى نص هذه الرسالة :

حضرة الأمير الفاضل

من نحو ساعة وصلنى رقيمك ، والحمد لله على صحتك ، وقد ذهب عنى ما كنت أجد من تأخر رسائلك ، وسرنى ما تلسمت من كتابك أنك فى سكون قلب واطمئنان بال بعد استقالتك (يقصد استقالته من وظيفة قائم مقام الشوف) ولعل الله يبلغك من أملك ما تحب وتحب لك . تستشيرنى فى المجىء الى مصر متنزها ، وتطلب منى الاسراع فى الجواب ، وكان أحب الىّ أن تسبق كتابك ، فالهواء جيد ، والشوق اليك زائد ، ولا أسرّ عندى من أن أراك ، فعجّل ولك الفضل .

أما الفِخَام فلا أرى فيهم فخيما ، وسواء لاقيتهم أم لم تلاقهم فأنت عندى أفضل من جميعهم ، وانك ان تلقهم لم تلق شيئا ، فتعال وليكتف كل منا بصاحبه ، وما زاد على ذلك فدعه للقدر . وأما استنبول فسيكون الكلام فيها بعد التلاقى ، وأما المصاريف فلا تحتاج فيها لغير أجر المراكب والوابورات حتى تصل الى القاهرة ، ومتى وصلت تتداول فيما وراء ذلك ، وأرجو ألا تسفر المداولة عن شىء ، وأقم ما شئت فلن تجد سائما ولا مالاّ ولا متبرما

ولا متضجرا ، بل تجد فرحا مسرورا مغبوطا مرتاحا الى غير ذلك ، فقم فى أول وابور ان شئت ، والسلام .

ليلة ٩ فبراير ١٨٩٠ محمد عبده » .

كما التقى شكيب بصفوة المفكرين والعلماء ، وأحس منذ البداية بخطر الاحتلال الأجنبى لمصر ، حتى يحدث عن نفسه وعن الأستاذ الامام فى أثناء هذه الزيارة فيقول :

« ومرة كنا راجعين من احدى السهرات فى القاهرة ، وذلك سنة ١٨٩٠ م عندما زرته الى مصر ، فمررنا أمام دار فيحاء ، فوقف (الامام) وقال لى : هذا بيت صاحبنا . وتنهد عند هذه الكلمة تنهدا عميقا ، فسألته : دار من هى ؟ . فقال : محمود سامى . وكأنه تنهد ، لا على غربة محمود سامى فقط ، بل على غربة مصر كلها ، واحتلال الأجنبى لها » [1] .

وهو فى موطن آخر يحدثنا بغيظه من هذا الاحتلال فيقول : « منذ حداثة سنى كنت أقرأ الجرائد ، ولما حدثت الحادثة العرابية [2] سنة ١٨٨٢ م بمصر كنت ابن اثنتى عشرة سنة ، فكنت أتتبع وقائعها ، وأتحرق عند ضرب الانجليز للاسكندرية ، ونزولهم وتقدمهم فى القطر المصرى »[3] .

وفى زيارته الأولى لمصر تعرف الى الشيخ على يوسف صاحب

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ، ج ١ ص ٤١٠ .
(٢) يقصد الثورة العرابية .
(٣) تاريخ الأستاذ الامام ، ج ١ ص ٣٩٩ .

« المؤيد » حيث زاره فى ادارة الجريدة ، فرآها متواضعة فى أثاثها جدا ، ورأى صاحبها يعالج كتابة مقال عن بداية العـــام الهجرى ، ولكن الكلام استعصى عليه ، فهو يكتب ويمحو ، ثم يعود ليكتب ويمحو ، فقال له شكيب : لو قلت كذا وكذا ؟ . فقال الشيخ على مسرعا : بالله عليك تكتب أنت هذه الافتتاحية ! . وكتبها شكيب فى المجلس[1] .

وفى هذه الزيارة أيضا بدأ اتصاله بجريدة «الأهرام» ، وأخذ ينشر فيها مقالات بتوقيع رمزى أو صريح [2] .

وفى أواخر سنة ١٨٩٠ سافر شكيب الى « الآستانة » ، والتقى بثائر الاسلام وموقظ الشرق السيد جمال الدين الأفغانى ، وسمع منه وتأثر به ، وتحدثا بعد ذلك عن الشيخ محمد عبده ، فقال شكيب : ان الشـــيخ عبـــده يندر مثله فى مصر . فقال جمال الدين : بل لا يوجد مثله فى مصر [3] .

وفى سنة ١٨٩٢ سافر الى فرنسة ، وهناك تعرف بالشاعر أحمد شوقى الذى صار فيما بعد « أمير الشـــعراء » . يقول شكيب : « وما عدت أتذكر كيفية اجتماعنا ، وتعارف بعضنا مع بعض ، ولكن لم نجتمع حتى صرنا كأخوين ، وغدونا نجتمع كل يوم مرة بل مرتين ، وأكثر تلاقينا كان فى مقهى يقال له مقهى داركور DHARCOURT » .

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ١٥ ص ٤٢٥ .
(٢) كتاب شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٧ .
(٣) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٢٥٤ .

وعاد شكيب من فرنسة الى لبنان بعد أن أرضى نزعته الى الرحلة والسياحة ، وبعد أن عالج نفسه من مرض كان قد ألم به ، وفى سنة ١٩٠٨ عيّن مديرا للشويفات سنتين ، ثم عين فى رتبة « قائم مقام » لمقاطعة « الشوف » ثلاث سنوات [1] .

ولما صدر الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ وتألف مجلس « المبعوثان » بالآستانة سنة ١٩٠٩ اختير شكيب ليكون نائبا عن « حوران » . وهو سهل من سهول الشام ، وكان فى ذلك الوقت من أنصار التعاون بين العرب والترك . ومن الموالين للخلافة العثمانية .

وفى سنة ١٩١١ اعتدت ايطالية على طرابلس الغرب (ليبية) ، فغضب شكيب من هذا العدوان ، وكتب الى مختلف الجهات يحرض على نجدة العرب فى طرابلس ، ويحث على مدهم بالأموال والسلاح ، وأبرق الى المسئولين فى الآستانة بذلك ، فجاءته برقية من شوكت باشا ناظر الحربية تفيض شكرا وتقديرا .

وكتب شكيب رسائل يستجيش بها المصريين لمعاونة اخوتهم الطرابلسيين ، وبين يدى رسالة خطية وفقت للعثور عليها ، وهى بخط الأمير شكيب أرسلان بعث بها الى السيد محمد رشيد رضا فى مصر ، عن وجوب مساعدة طرابلس ، وتاريخها ١٣ شوال ، ويظهر أنه شوال سنة ١٣٢٩ أو ١٣٣٠ هـ وهما السنتان المقابلتان

---

(١) الأعلام للزركلى ، ج ٣ ص ٢٥١ .

لسنة ١٩١١ م . وأورد نص الرسالة فيما يلى كنموذج لما كتبه شكيب فى هذا الشأن :

« صوفر فى ١٣ شوال

خصوصى . .

سيدى الأخ الفاضل

أعلم أن جهادكم فى تهذيب الأنفس واقامة الشريعة على قواعد العلم ، وأخذ المؤمنين بحقيقة الدين ، واثلاج الصدور ببرد اليقين ، هو الجهاد الأكبر والبلاء الأسنى ، والذى فيه استكمال الحسنى ، وان الأمة التى تفهم الدين فهمكم ، وتفقه الشرع فقهكم ، لا يخشى عليها من اعتداء ايطالى ، ولا استبداد أجنبى .

ولكن جهادكم هذا غرس لم يحن ايناعه ، وزرع لم يئن ارتفاعه ، ودون وصول ثمرته الى درجة الوفاء بالغرض آيام وليال ، وأعوام طوال ، بما رسخ من الأوهام ، وسدِك [1] بالعقول من صدأ الترهات .

ونحن الآن فى خطب مستعجل الرأب ، وفتق مستلزم سرعة السد ، ولا يفيدنا فيه تعنيف مفرط ، ولا لوم مقصر ، ولا جزاء خائن أو مستهتر ، ولا يغنينا مع الحاح وافد الشر ، واطلال نازل البأس ، اكبار الاهمال ، والوقيعة بمدبرى هذه الأعمال ، بل علينا قبل ذلك واجب آعجل ، وهو تلافى ما فرط فيه غيرنا ، وابلاء العذر فيما يطلبه الرأى العام منا .

---

(١) سدك على وزن فرح : لزم .

وقد ظهر لنا بعد تقليب وجوه الحيل كلها ، وتمحيص آراء الاغاثة بأجمعها ، أنه لم يبق الا طريق البر ، وان هذا الطريق مهما كان شاقا صعبا طويلا معطشا ، فانه هو الوصلة الوحيدة والممر الممكن . وان طريقا سـلكه آباؤنا مـرارا فى فتوحاتهم ومغازيهم لجدير بأن نسلكه نحن فى أحرج موقف وأضيق مجال . فان لم تساعد السياسة على امرار جنود منظمة ، فلا أقل من متطوعة ، وان لم يمكن نهوض متطوعة فلا أقل من تسريب ذخائر وأرزاق على ظهور الجمال ، بحيث لو بدىء بتسيير قـُطـُر الجِمال قريبا صار المدد متصلا ، فان فى طرابلس وبنغازى والصحراء ومن قوم السنوسى رجالا يشاغلون ايطالية سنين طوالا لو جرى مسألة معيشتهم [1] اذ ذاك ، اذ هناك رجالات كثيرة ، وفروسية ونجدة ، وبغضاء للعدو ، ولدى الدولة عدة آلاف من الجند وأسلحة وعدة ، وانما يخشى على أولئك من الجوع وقلة الطعام .

أفلا ينهض الاسلام فى كل هذه الممالك الى اغاثتهم بما يـُمسك أرماقهم على الأقل ، حتى تطول الحرب ، ويستمر الدفاع ، فان طول أجل الحرب يستدعى تدخل الدول ، ويفت فى عضد تجارة ايطالية ، ويثير عليها ثائر سكانها ، فتنتهى النازلة بصورة ليست فيها هذه الغضاضة وهذا الذل ، ولا يطأطأ فيها الرأس أمـام الطليانى ، فيا ما أحلى الغلبة للانكليزى بالقياس الى هذه الحالة ، ويا ما أحلى طعم الموت اذا صرنا ننهزم أمام من هزمهم الأحباش ! .

---

(١) أى لو حلت مسألة اطعامهم .

أفلا يمكنكم فى مصر عقد الاجتماعات لوضع هذه الاعانة فى موضع التحقيق ، وايفاد السعاة الى الهند والى السنوسى ؟ . فأما من الهند فتمكن النجدة بالمال ، وأما من الصحراء فبالرجال ، وأما من جهة الضباط لتدريب الأهالى فالدولة تقوم بهذا الأمر .

وما نستصرخ اخواننــا المصريين أولى اليسار وأهل الحمية الا للمدد المادى ان تعذر كل مدد غيره ، وأى شهم يضطلع بهذا العمل أكثر منكم ؟ وأى عمل هو أشرف من هذا ؟ وأى سقوط حالا واستقبالا أعمق من سقوطنا اذا ذهبت طرابلس الغرب ؟ .

لا جــرم أن حسن الدفاع عنها ليقف بالطامحين عن سائر حوزتنا ، ويحفظ علينا هــذا النزر البــاقى من كرامتنا ، وان التخاذل عن هذه النجدة يكون الاجهاز على مهجتنا العمومية ، اذ تعلم أوربة أنه ليس ثمة من حياة ولا من أحياء ، وان هنــاك الا أعداء بدون اعتداد .

قصدت استيراء زندكم فى هذا الغرض ، وليس ذلك عــلى همتكم بعزيز ، ونحن فى انتظار الجواب ، شد الله بكم الأزر ، ووفقكم الى هذه الغاية ، أفندم . آخوكم

شكيب أرسلان »

ومن هذه الرسائل رسالة بعث بها الى الشيخ على يوسف فكتب الشيخ الى شكيب يقترح عليه أن يحضر الى مصر للعمل من أجل طرابلس ، فصادف هذا الاقتراح هوى من نفسه [1] ،

---

(١) كتاب شكيب عن شوقى ، ص ٣٥ .

وقدم الى مصر متطوعا مع طائفة من المجاهدين ، واستطاع أن يدخل طرابلس متخفيا ، وهنـاك اشترك مع القـائد العثمانى أنور باشـا ، وكانت آراؤه سـديدة فى الشـئون السياسـية والعسكرية ، حتى قال الزعيم الطرابلسى سـليمان البـارونى فيما بعد : « لو أخذت الحكومة العثمانية بتفاصيل الخطة التى رسمها الأمير شكيب ، ونفّذت بحذافيرها لما ضاع الأمل فى انقاذ طرابلس وبرقة ، أو لاستطعنا على الأقل اطالة الحرب ثلاث أو أربع سنوات أخرى » [1] .

وفى أثناء هذه الرحلة اجتمع شكيب بأخيه وصديقه السيد محمد رشيد رضا فى مصر ، والتقى فى بيته بالشريف على بن عمر ابن عم الشريف حسين أمير مكة الذى صار فيما بعد ملك الحجاز ، يقـول شكيب : « ومن ذلك الوقت جرت صـداقة بينى وبين الشريف المشار اليه » . وقد ظل شكيب فى هذه الرحلة أربعين يوما بالقاهرة كتب فيها أربعين مقالة نشرتها « المؤيد » تباعا فى مكان الافتتاحية .

وفى سنة ١٩١٢ سافر شكيب من طرابلس الى تركية ، حيث اختير مفتشا لبعثات الهلال الأحمر المصرى ، فقام بمهمته عـلى خير وجه ، وفى سـنة ١٩١٤ سافر الى المدينة المنورة لانشاء مدرسة فيها .

وكان شكيب عثمـانى النزعة ، لأنه كان يرى فى الخـلافة العثمانية عزا للاسلام وقوة للعرب ، ولكن الخلاف أخذ يحتدم

---

(١) كتاب ذكرى الأمير شكيب ، ص ٤٤ .

بين العرب والحكام الأتراك ، وحاول شكيب قدر طاقته ازالة أسباب التوتر الذى اشتد بين الفريقين قبيل الحرب العالمية الأولى ، ولكنه لم يستطع أن يبلغ ما يريد ، لضعف الدولة ، وطغيان الحكام ، واستغلال الولاة ، وتطلع العرب الى الحرية والاستقلال .

ويبـدو أن شكيب كان يحظى بمكانة مرمـوقة فى ديوان السلطان (الخليفة) ومن أدلة ذلك أنه فى أوائل الحرب العالمية الأولى أطلق شاب مصرى الرصاص على الخديوى عباس حلمى فى الآستانة ، فجرحه عدة جراحات ، والتقى شوقى بشكيب بعد الحادث ، فطلب شوقى من شكيب أن يعمل عـلى أن يذهب السلطان الخليفة لعيادة الخديوى ، وقال شوقى : « كل من حادثتهم فى هذا الموضوع أجابونى : انه ليس لهذه المسألة غيرك ، فان لم تقدر عليها أنت فلن يقدر عليها أحد » .

وتحدث شكيب فى ذلك مع طلعت ناظر الداخلية ، فطلب منه أن يتحدث مع سعيد حليم الصدر الأعظم ، فتحدث شكيب مع سعيد فتعلل له ببعض العلل (١) .

ونشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، وانضمت تركية الى ألمانية ضد الحلفاء ، وعينت تركية القائد أحمد جمال باشـا قائد الفيلق الرابع من الجيش العثمانى واليا على الشام والحجاز ، فبغى وطغى ، وأخذ بغيه يتزايد مع الأيام ، وكان جمال باشـا يعرف للأمير شكيب مكانته بين قومه ، وأحسن شكيب استغلال

---

(١) كتاب شكيب عن شوقى ، ص ٤٥ ــ ٤٨ .

هذه المكانة لمصلحة قومه ، وللتخفيف من مظالم الوالى ، فكان ينهنه من حدة جمال ، ويشفع للكثيرين عنده ، وينقذ الكثيرين من عدوانه .

يروى أنه لما قدم جمال باشا دمشق — وكان شكيب يسكن فى دمشق خلال الحرب العالمية الأولى [1] — أراد من بطريرك الموارنة أن يأتى اليه ليسلم عليه ، فعارضه شكيب ، وقال له : ان البطريرك شيخ طاعن فى السن ، وانه لا يقدر على المجىء ، وان طائفته قد تحسب ذلك اهانة لها فى شخص البطريرك . وانتهى الحوار بأن يقدم أربعة من الموارنة للسلام على جمال باشا . وقد حمد المطارنة لشكيب هذا الموقف [2] .

ويقول الأستاذ حبيب جاماتى : « وكان بطريرك الموارنة السابق المرحوم السيد الياس الحويك يجاهر بأن تدخل الأمير شكيب بينه وبين جمال باشا حال دون بطش هذا الطاغية بالبطريرك ورجال الدين أجمعين » [3] .

ولقد كتب الأميرالاى محمد اسماعيل يقول انه كان رئيسا لأركان حرب الفرقة العسكرية المرابطة فى لبنان ، وانه كان مطلعا على حقائق الأمور ، ويذكر أن الأمير شكيب لم يكن « مسخر الضمير لأعمال أحمد جمال باشا المستنكرة » وأن اعادة المبعدين الى أوطانهم فوجا بعد فوج كانت بمساعى شكيب .

---

(١) الأعلام للزركلى ، ج ٣ ص ٢٥١ .
(٢) جريدة الشورى ، عدد ١٣ أكتوبر ١٩٢٧ .
(٣) ذكرى الأمير شكيب ، ص ٤٤ .

ويذكر أنه لم يكتب هذا دفاعا عن شكيب « فالأمير فى غير حاجة الى من يدافع عنه ، بل وجدت من الواجب على أن أقوم بتعزيز الحق وتنوير الحقيقة ، فهى شهادة من حقها ألا تبقى فى عنقى »[1] .

ويقول الأستاذ عز الدين التنوخى : « لقد كان الأمير شكيب من أشرف من كان حول جمال من رجال العرب ، دفع الله به كثيرا من الشر والأذى ، وما كان يدافع عن الدولة العثمانية الا دفاعا عن العروبة والاسلام ، وخوفا عليهما من مثل الانتداب ، والحماية ، والاستعمار ، وكان شبان العرب وأعضاء المنتدى الأدبى فى الآستانة لا يرضون عن هذه السياسة الشكيبية ، وهى سياسة اسلامية محضة ، بل كنا نعدها انتصارا للترك على العرب ، ولكنه كان مخلصا فى عقيدته ، ومشفقا من الاستعمار على عروبته »[2] .

ومن أمثلة وساطة شكيب لدى جمال لمصلحة العرب أن قرارا صدر من جمال باشا بنفى الشيخ خليل الخورى — وهو من كبار موظفى حكومة جبل لبنان حينئذ — الى القدس ، وبدأ النفى فعلا ، ولكن شكيب توسط له فأعيد الشيخ من الطريق ، وفى سنة ١٩٤٦ توسط الشيخ بشارة الخورى رئيس جمهورية لبنان وابن الشيخ خليل — توسط لاعادة شكيب من سويسرة الى لبنان ، وبهذا قابل الجميل بالجميل .

---

(١) الشورى ، عدد ١٧ نوفمبر ١٩٢٧ .
(٢) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ١٥ ص ٣١٨ .

ولقد كان شكيب يقول لجمال باشا : « كم هو لذيذ أن يقدر الانسان على استحياء من كان يريد قتله » . وكان يقول له ذلك ليحرضه على العفو عمن يريد انزال السوء بهم . وكان جمال يرد عليه قائلا : « ان الجماعة الذين دائما تتشفع لهم لدىَّ منهم أناس كانوا يريدون قتلك » (١) .

وأسرف الطاغية فى عدوانه ، فشنق طائفة من أحرار العرب ومفكريهم فى مايو سنة ١٩١٦ ، واكتسب بذلك العمل الاجرامى لقب « السفاح » ، وكانت جريمته — كما يقول شكيب — أشد أسباب العداوة بين العرب والترك ، بل كانت سببا فى التعجيل بالثورة العربية الأولى ضد الأتراك ، وانضمام العرب حينئذ الى صفوف الحلفاء .

وقد سمعتُ زوجة شكيب تقول ان زوجها أخبرها بأنه ظل ليلة الشنق أرقا طول الليل ، يرتعد أسفا وحزنا على المشنوقين ، ولم يذق النوم لحظة ، وبدأ بعد ذلك يعارض الطاغية ، حتى اضطر أن يترك زوجته وأسرته فى لبنان ، ويذهب الى استنبول ليشكو السفاح الى « الباب العالى » ، والى أنور باشا ، كما ذكرت لى أن السفاح كان يريد شنق شكيب ، ولكنه لم يستطع لمكانة شكيب عند رجال الحكم فى إستنبول من جهة ، ولمكانة أسرته فى لبنان من جهة أخرى . وكان سفر شكيب الى استنبول هذه المرة فى أواخر سنة ١٩١٦ .

---

(١) الشورى ، عدد ٢٠ أكتوبر ١٩٢٧ .

وشكيب يعترف بأنه كان فى أول الأمر ذا حظـوة تامة عند جمال باشا ، وأنه استخدم هذه الحظوة لمصلحة قومه ، وأن العداوة بدأت بينه وبين جمال بسبب ميل الأخير الى الشـدة والقسوة ، وقد راجعه شكيب فى محاكمات « الديوان العرفى » الذى ألفه فى بلدة « عالية » لاصدار الأحكام على أحرار العرب الذين شنقهم ، فلم يستمع اليه جمال ، فتحدث شكيب مع صديقه أنور باشا القائد التركى حين زيارته لسورية ، كما تحدث مـع كاظم بك صهر أنور ، ومع عزمى بك والى الشام .

وعلم جمال بهذه المحادثات فغضب على شكيب ، واتسعت الفجوة بينهما [1] .

وفى موطن آخر يقول شكيب عن جمال : « والحال أنه طول مقامه بسورية وبعد انصرافه من سورية لم يقدر أن ينقل عنى كلمة سوء واحدة بحق أحد ، حتى بحق من لم أكن أحب أعمالهم من السوريين ، ولو كان قد سمع منى شيئا من هذا لكان أشار اليه فى كتابه ولم يوقرنى ولا ستر على ، لا سيما أنه كان أخيرا يتقد صدره غضبا علىّ ، وكان يترصد لى الشر من جراء انتقادى لأعمـاله » [2] .

ولقد كتب الشيخ عبد العـزيز جاويش عن شكيب وصلته بجمال باشا ، فأشار الى جهاد شكيب من أجل سورية ، وأن له

---

(١) الشورى ، عدد ١٣ اكتوبر ١٩٢٧ . وأنظر أيضا كتاب شكيب عن رشيد ، ص ٨١ ـ ٨٣ .

(٢) الشورى ، عدد أول مايو ١٩٢٩ .

فى ذلك « طرائق متنوعة قد يسىء تأويلها من لا يعرفون مبلغ اخلاصه لبلاده وللشرق جميعا » .

وذكر أن السفاح كان يضمر الشر لشكيب وأنه قال : « اننى حاولت أن أطوق رقبة شكيب بحبال المشنقة فلم أجد منها ما يحيط بعنقه » ، وأن الأمير كتب اليه — أى الى جاويش — حين فراقه سورية أيام جمال باشا يقول : « اننى الآن فقط أشعر بالطمأنينة على حياتى ، وسأقص عليك اذا التقينا من أمر جمال الشىء الكثير »[1] .

وقد يبدو أننى توسعت قليلا فى موقف شكيب من جمال الوالى التركى ، ولكن الموضوع يستحق أكثر من ذلك توسعا وافاضة ، لأن هذا الموقف أتعب الأمير ، واتخذه أعداؤه من قومه وغير قومه ذريعة للطعن فيه والحملة عليه ، وخاصة أن الأمير كان لا يثق بوعود الحلفاء للعرب الثائرين معهم المنضمين اليهم ضد الدولة العثمانية ، وكان يعتقد أن الحلفاء لا يريدون الخير للعرب ، وانما هم يريدون القضاء على الدولة أولا ، ثم يقتسمون البلاد العربية بعد ذلك ، وشكيب قد بكّر فى تحذير قومه من استغلال الأجانب الدخلاء للشقاق بين العرب والترك ، وكان مما قاله :

فيا وطنى لا تترك الحزمَ لحظةً
بعصر أُحيطت بالزحام مناهله
وكن يقظا ، لا تستنم لمكيدة
ولا لكلام يشبه الحقَّ باطله

---

(١) الشورى ، ٢٤ نوفمبر ١٩٢٧م .

وكيد على الأتراك قيل مصوّب
ولكن لصيد الأمتين حبائله
تذكر قديمَ الأمر تعلم حديثَه
فكل أخير قد نمته أوائله

بل ان « المسيو جوفنيل » المفوض الفرنسى السامى على سورية زمن الاحتلال (الانتداب) اتهم شكيب بأنه كان من أعوان جمال باشا ، وأنه كان قائداً لفرقة المتطوعين تحت امرة جمال باشا ، فرد شكيب يقول :

« وقد نشرت فى جريدة الأوماتنيه الفرنسية الحرة ردا مختصرا على كلامه ، فقلت ان دعواه أنى كنت من رجال جمال باشا غير صحيحة ، وعندى الأدلة الكثيرة على عكس ذلك ، وأما قوله انى كنت قائدا للمتطوعين فهذا صحيح ، فقد كنت على رأس المتطوعين اللبنانيين لمقاومة الدول التى تقاسمت بلادنا سرا فيما بينها ، وهذا ما أفتخر به ولست بنادم عليه ، ولكن وجودى قائد متطوعة تحت امرة جمال باشا وهو قائد الفيلق الرابع لا يوجب أن أكون من أخصائه » (١) .

وانتهت الحرب العالمية الأولى ، ووقع ما حذّر منه شكيب ، فاذا الحلفاء يخدعون العرب ، ويخونون مواثيقهم مع الثورة العربية الأولى ، واذا بلاد العرب تصير نهبا مقسما بين انجلترة وفرنسة ، واذا فرنسة تبسط يدها الملوثة بالدماء على الشام ،

---

(١) جريدة الشورى ، عدد ٢٣ يوليه ١٩٢٦م .

واذا شكيب عدو فرنسة اللدود لا يجد له مقاما فى وطنه ، فيضطر الى الرحيل عنه ، ويستقر فى بلدة « مرسين » التركية على مقربة من الحدود السورية ، ولعله اختار هذه البلدة ليكون بمنجاة من طغيان فرنسة من جهة ، وليكون قريبا من وطنه الحبيب من جهة أخرى ، وليتنسم أخبار السيدة الوالدة « أم البنين » التى يعزها شكيب ويجلها ويصعب عليه الابتعاد عنها .

واستمر شكيب حينا فى « مرسين » ، ولكنه رأى الأتراك يديرون ظهورهم للعرب ، ويتنكر حكامهم للخلافة الاسلامية فيلغونها ، ويتجهون اتجاها « علمانيا » قطعوا الروابط بينه وبين الاسلام والعروبة ، فأخذ شكيب يحدد موقفه ويرسم خطته ، فاذا هو ينفض يده من تركية وحكامها ، واذا هو يبدأ فى الدعوة الى الوحدة العربية ، لأنها ركن فى عزة العرب والمسلمين ، حتى قال الملك فيصل الأول لشكيب : « أشهد أنك أول عربى تكلم معى في الوحدة العربية ، وأراد أن تكون وحدة عملية » [1] .

وبعد حين سافر شكيب من « مرسين » الى « برلين » ، واشترى هناك بيتا أقام به سنوات ، وأخذ يجاهد بقلمه ولسانه وفكره فى سبيل العروبة والاسلام ، وبعد مدة انتقل الى «جنيف» عاصمة سويسرة وأقام بها .

وفى سنة ١٩٢٢ تألف وفد سورى فلسطينى للدفاع عن قضايا

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٦١ .

العرب وحقوقهم أمام جمعية عصبة الأمم بجنيف ، واختير شكيب عضوا بارزا فى هذا الوفد .

وفى العام المذكور حاول شكيب أن يتفاهم مع المسئولين فى ايطالية لمعاونة العرب ضد المحتلين لبلادهم ، ولقد اشترك فى هذا التفاهم السيد محمد رشيد رضا صاحب جريدة « المنار » ؛ وفى ٣١ يناير ١٩٢٢ كتب رشيد الى شكيب رسالة يقول له فيها عن هذا التعاون : « أساس هذه السياسة الجديدة أن تجعل هـذه الدولة نفسها مناط آمال الأمة العربية فيما توجهت اليه من احياء مدنيتها ، فتساعدها عليه بالعلم والعمل ، وتكتفى من الجزاء بالمنافع الاقتصادية والسياسـية والأدبية ، وهـو ما طلبناه من غيرها أولا »[1] .

ويظهر أن رشيد رضا كان قد سبق الى الاتصال بالحكومة الايطالية لتسير مع العرب سيرة تخالف سيرة انجلترة وفرنسة المعتديتين ، وكان هذا الاتصال سنة ١٩٢١ ، ومع هذا كان رشيد غير مطمئن الى النتيجة تماما ، ولذلك يقول لشكيب فى الرسالة المشار اليها :

« وقد كان أهم أسباب تقاعسى عن الكتابة اليك فى هـذه المسألة ما علِمتَ من شدة ميل رجل ايطالية ورئيس وزارتها الجديد الى الاستعمار ، وتشديده فى معاملة أهل طرابلس وبرقة ، ولا غرو فهذه العدوى سرت الى هذه الدولة من حليفتيها وهى أحوج منهما اليها ، ولكن ما ندعوها اليه خير لها منها ؛ وذلك بأن

(١) المصدر السابق ، ص ٣٢٢ .

العالم البشرى كله فى حال تطور عتيد وانقلاب اجتماعى جديد سيقضى فيه على الاستعمار ، ويعود على المستعمرين بالخذلان والبوار . فاذا فطنت هذه الدولة الفتاة الجامعة بين الفتوة والفتاء الى ذلك ، وسبقت الى ابتكار سياسة فتية مثلها ، فانها تبذ بها العجوزين اللتين بذتاها فيما قبلها » [1] .

* * *

وفى عام ١٩٢٤ أسس شكيب فى برلين جمعية اسمها « هيئة الشعائر الاسلامية » لتكون بعيدة عن الشئون السياسية ، وتهتم بأمور المسلمين فى البلاد الألمانية ، وقد تشكلت هذه الجمعية من أعضاء يمثلون جميع الشعوب الاسلامية ، واشترك فيها موظفو السفارات الاسلامية كأعضاء عاملين [2] .

وبجوار اهتمام شكيب بالشئون الاسلامية عنى عناية ملحوظة بالقضية العربية والوحدة العربية ، ونحن نجده يكتب مقالا عنوانه : « أزفت ساعة الاتحاد أيها العرب » وذلك فى أغسطس ١٩٢٥ ، ويقول فيه : « القضية ليست قضية تاج ولا صولجان ، وانما هى قضية الأمة العربية التى ينبغى أن يكون أمرها فوق الامارات والولايات ، وانه خير للمرء أن يكون راعى ضأن فى عزّ قومه من أن يكون السلطان الأعظم على قوم أذلاء .. وهل من سلطان — أعظم أو أصغر — لمن سيطر الأجنبى عليه وقاده كما يُقاد البعير » ؟ [3] .

---

(١) المصدر السابق . (٢) الشورى ، عدد ١٤ يناير ١٩٢٥ .
(٣) الشورى ، ٢٧ أغسطس ١٩٢٥ .

وفى الرابع عشر من فبراير سنة ١٩٢٦ سافر شكيب على رأس الوفد السورى الى رومة ، ليبسط القضية السورية أمام « لجنة الانتداب » ، بعد أن نجح قبل ذلك فى اقناع « المركيز تيودولى » رئيس هذه اللجنة بعقدها فى رومة ، وقد نشر شكيب يومئذ على الصحف بيانا عن الحالة الأليمة فى سورية ، مما أثار حنق فرنسة ، ويقال ان ملك ايطالية حينئذ سأل عن تفاصيل القضية بسبب ذلك .

وفى اليوم التالى قابل شكيب رئيس اللجنة ، وقدم اليه مطالب سورية التى تتلخص فى الغاء الانتداب ، ووحدة سورية ، واصدار دستور لها ، وتحديد العلاقة بينها وبين فرنسة .

وفضح شكيب الألاعيب التى تقوم بها فرنسة مع تركية على حساب سورية ، وسلخ « أنطاكية » و « الاسكندرونة » وبقعة أخرى لتقديمها الى تركية [1] .

وكتب شيخ العروبة أحمد زكى مقالا بعنوان « بين فرنسة وانجلترة » حيّا فيه جهاد شكيب وأخيه احسان الجابرى ، وكان مما قاله : « وان قضية يدافع عنها شكيب واحسان لهى مكسوبة ، ان كان للحق بقية فى أرض رومية . ان موقفكما فى طلب الحق لأهل الشام شبيه" بما حصل لاثنين من آكرم أبناء الشام ، فقد أصابهما الاضطهاد فى نفسيهما ، ونال الارهاق كل منال من قومهما ، فذهبا الى رومية ، وانتهى بهما الأمر الى الفوز الذى لا يعادله فوز .

---

(١) الشورى ، عدد ٢٥ فبراير ١٩٢٦ .

ان التاريخ يعيد نفسه ، وسيكون لشكيب واحسان شأن" يشابه ما كان لبطرس الحوارى ، وبولس الرسول ، رضى الله عنهما وعنكما » . وقد نشر مقال شيخ العروبة فى عدد ١٨ مارس عام ١٩٢٦ من « الشورى » .

ولقد أراد أذناب الاستعمار أن يشككوا فى موقف شكيب ومدى تعبيره عن ارادة بلاده ، فزعموا أنه لا يمثل الا نفسه ، فأتى شكيب بسندات توكيل من عشرين جمعية سورية استقلالية ، وأطلع « المركيز تيودولى » عليها ، ومع ذلك ظل أعداء شكيب يتحاملون عليه ، وقد بسط الحديث عن ذلك فى مقال له فى جريدة الشورى بتاريخ ١١ مارس ١٩٢٦ جعل عنوانه : « لا يضر الشمس اطباق الطفل »[1] !! .

وفى عدد ٢٨ مايو ١٩٢٦ من « الشورى » يتحدث شكيب عن جهاده وجهاد زملائه فى الوفد السورى لدى عصبة الأمم ، ثم يقول :

« وقد بلونا فى هذه السنوات الخمس من معاملات الدول العرف والنكر ، وذقنا الحلو والمر ، ورأينا الهزء والجد ، وعرفنا الجزر والمد ، ولم يبق وجه يمكن أن تنحل به عقدة سورية الا فكرنا فيه ، وأجلنا النظر فى ظواهره وخوافيه ، فلم نجد لنا نجاة الا بالاستقلال التام ، والدخول فى جمعية الأمم ، والتوفر على اصلاح داخليتنا ، والمبادرة الى تأسيس جيش نذب به عن

---

(١) الطفل (بفتح الطاء والفاء) : الظلام .

حوض وطننا ، وتتقى الغارات التى لم يوجد سبيلها الينا الا كوننا عتزلا » .

والذى يبدو أن شكيب كان أكثر زملائه فى الوفد نشاطا فى الكتابة والحديث ، فهناك كثير من البيانات بتوقيع شكيب ، وهناك كثير من البيانات المشتركة ويلوح أسلوب شكيب فيها ، وفيما يلى أحد الأمثلة . فقد جاء فى بيان موقع بتوقيع شكيب أرسلان وتوقيع زميله احسان الجابرى العبارة التالية : « والذى نعلمه أنه فى سنة ١٩٣٠ حضر من لندرة بالطيارة المستر أوليفر مدير المدرسة الانكليزية فى (رأس المتن) من لبنان ، وأراد أن يقابل أحدنا — شكيب أرسلان — فى جنيف ، فلما قابلنى علمت منه أنه يريد أن أتلاقى مع (ويزمن) لأجل تبادل الآراء فى قضية فلسطين ، علّه يوجد لها حلّ يرضى الطرفين ، فأجبت أوليفر هذا الذى كنت أعرفه من لبنان بالرفض التام البات » (١) .

والأسلوب هنا يصرح بأن الكاتب هو شكيب ؛ وبعد أن يتكلم شكيب فى البيان بضمير المفرد زمنا يعود الى ضمير الجمع ، لأن البيان مشترك ! .

وفى هذه السنوات التى يشير اليها شكيب وغيرها أيضا كانت فرنسة هى العدو الأول لشكيب ، كما كان شكيب هو العدو الأول لفرنسة من بين زملائه ، ولقد جاء فى كتاب « عروة الاتحاد » أن بعض رجال فرنسة صرح بأن شكيب هو « عدو فرنسة القديم

---

(١) جريدة الشباب ، عدد ٥ مايو ١٩٣٧ .

الدائم » . وأن الفرنسيين فى المغرب نفوا تاجر كتب لأنهم وجدوا عنده مكتوبا علميا من شكيب ، وكتبت احدى الصحف الفرنسية تقول : « يلزم اعدام شكيب أرسلان » .

وفى « الرباط » منعوا كل كتابة من شكيب مهما كان موضوعها ، وصادر الفرنسيون كتابا لا علاقة له بالسياسة اطلاقا ، وذلك لأن فيه مقدمة علمية بقلم شكيب ، لأنه « يكفى للمنع ورود اسم شكيب أرسلان فى الكتاب » . وقال ضابط فرنسى : عندما تقع حرب أوربية ينبغى قبل كل شىء أن يزحف الجيش الفرنسى الى جنيف ويقبض على شكيب أرسلان .

وعملت فرنسة على اخراج شكيب من طنجة بالقوة حين زيارته لها ونجحت فى ذلك ، وآذى الفرنسيون كل من احتفل بشكيب ، وأغروا به صحفهم ، وأرهقوه بجواسيسهم .. الخ[1] .

ولم تكتف فرنسة مع شكيب بالأعمال التعسفية ، بل انتقلت الى الافتراء والتشويه ، فأخذت الصحف الفرنسية تشتمه وتختلق الأنباء الكاذبة حوله ، وتتساءل : من أين ينفق مع زميليه فى الوفد السورى : احسان الجابرى ونجيب الأرمنازى ؟ .

ثم تزعم أنه على صلة بمركز بث الدعاية الألمانية فى الشرق ، فهو مساعد فى تحرير جريدة « نيو أوريان » ، وأحد أعضاء النادى الشرقى فى برلين ، ويعمل بالاتفاق مع اللجان السورية الثورية فى برلين وميونيخ .

---

(١) كتاب عروة الاتحاد ، ص ١٤٠ ــ ١٤٧ .

ثم تزعم هـذه الصحف أن هذه اللجان تتلقى الأوامر من الشيوعية النابتة فى موسكو ! .

وقالت هذه الصحف : ان هذا الرجل اشترك فى جميع الحركات الثورية التى قامت ضدنا منذ سنة ١٩٢٠ ، وظهر فى « مرسين » سنة ١٩٢٤ ينظم أعمال اللجان العربية ، وهو الذى رأس « مؤتمر الشعوب المظلومة » فى رومة سنة ١٩٢٢ ، وهو المؤتمر الذى قال عنه (راكوفسكى) : انه « أهم حادث وقع فى خلال مؤتمر جنوى بعد معاهدة رابالو » ! .

وحينما نراجع تاريخ شكيب أرسلان بعد رحيله الى أوربة نجد أنه كان مطاردا من أكثر من دولة ، فتركية تطارده لاهتمامه بقضايا العرب ولحملته على تنكر حكام الأتراك للخلافة والاسلام ، وانجلترة تطارده لمناصرته الدول التى يحتلها الانجليز ، وفرنسة تطارده لدفاعه عن سورية ولمناصرته المغرب ، وكان « الملك فؤاد » يطارده ويمنعه دخول مصر ، ظنا منه أنه متصل بالخديوى عباس حلمى الثانى الذى قيل انه كان يعمل للعودة الى عرش مصر .. الخ .

ولعل البعض يفهم من هذا أن شكيب كان عنيدا لا يعرف التفاهم أو التساهل فى معاملته ومطالبته ، وهذا فهم يبعد عن الواقع ، فنحن نلحظ التساهل عند شكيب فى أكثر من موطن ، كتب فى « الشورى » فى ١١ فبراير ١٩٢٦ يقول :

« نعترف بأن فرنسة تقدر على تدويخنا بالقوة ، لكننا واثقون بأن شرفنا القومى يأبى الا أن نرفع رءوسنا فيما بعد عند كل

فرصة ملائمة ، ولهذا نرى أنه لا يصعب لأجل مصلحة الأمتين ايجاد شكل وئام وسلام بين فرنسة وسورية يضع حدا لأسباب النزاع بيننا » .

وبعد أن يصور المطلب الأساسى لسورية بقوله :

« فالسوريون يطلبون قبل كل شيء استقلالهم التام الناجز لنظير سائر الممالك المستقلة ، ويبتغون التمتع التـام بسلطانهم القومى ، ويريدون اذن أن يكونوا داخلين فى جمعية الأمم ، أى أنهم يريدون الاستمتاع بجميع نتائج الاستقلال من الوجهة الفعلية ومن الوجهة القانونية » .

بعد هذا يذكر أن لبنان يريد الاستقلال بنفسه ولا مانع من ذلك ، ويرى أن أقضية صيدا وصور ومرجعيون ومقاطعة طرابلس، وأقضية البقاع وبعلبك وراشيا وحاصبيا ، يكون لها الحق فى اختيار آى القطرين لتنضم اليه ، وأما بلاد العلويين فتدخل ضمن سـورية .

ثم يعترف شكيب ببعض المنافع الاقتصادية لفرنسة فى سورية تحت ضغط الظروف القائمة ، فاذا اضطرت سورية لمال لجأت الى فرنسة ، ويوافق على أن مدربى الجيش السورى يكونون من ضباط فرنسة ، وأن تعليم اللغة الفرنسية يكون اجباريا ، وتعقد محالفة بين سورية وفرنسة الى ثلاثين سنة « لأجل توطيد العلاقات الأخوية بين الأمتين » ، وتضع سورية تحت تصرف فرنسة عددا من الجنود فى حالة الحرب .

وبعد أن ينتهى شكيب من ذكر هذه العروض المتساهلة جدا ، والتى أثارت عليه المتاعب حينئذ ، يعلق عليها قائلا : « هذا نص اقتراحات حررتها فى بضع عشرة دقيقة لتكون أساسا للمفاوضات ، وهى لا تقيّد أحدا من السوريين يجد فيها شططا كما لا يخفى . وعسى أن يقيض الله من يحرر سورية من كل قيد أظهرت الرضى به برغم أنفى تحت تضييق الحالة السياسية الحاضرة ، فمن قام بذلك التحرير التام نرفع له علما خفاقا فى الخافقين ، ونقبل يديه الاثنتين ، ونسميه مؤسس الدولتين ، وما ذلك على الله بعزيز » .

ونفهم من هذا الكلام أن شكيب قد وضع هذه العروض تحت ضغط الظروف القاهرة التى كانت قائمة ، وكأنه يريد أن يفتح لبلاده طريقا نحو الحرية والاستقلال ، فاذا تمكنت من أمرها استطاعت أن تفرض ارادتها ، وتسترد المغصوب منها .

ولقد قوبلت هذه الآراء بنقد وتجريح ، وزاد البعض فيها وحر ف ، ولسنا الآن فى مقام الحكم لها أو الحكم عليها ، ولكننا نستشهد بها على أن شكيب كان يتساهل أحيانا حتى يغضب بتساهله الكثيرين .

وفى ٢٢ ابريل ١٩٢٦ عاد شكيب الى كتابة مقال فى «الشورى» عنوانه « فيما لو وقع صلح » يذكر فيه أنه حين قدّم شروط التساهل ، ومن بينها قبول المعاهدة بين سورية وفرنسة لمدة ثلاثين سنة ، كان يظن أن المسيو « جوڤنيل » قادم الى سورية لحقن الدماء واجابة المطالب ، ولكنه أطاع الأهواء الاستعمارية .

وقال شكيب انه اذا كان قد قبل أن تقدم سورية لفرنسة

جنودا فى حالة الحرب ، فهذا على أساس المعاملة بالمثل ، فتنجد فرنسة سورية أيضا فى حالة الخطر .

وقال ان المصريين الآن (أى فى سنة ١٩٢٦) يريدون مثل هذا مع انجلترة ، لأنهم لا يريدون « الحماية » .

وأكد شكيب أن مساعدة سورية لفرنسة لا تعنى أبدا أن تقدم سورية جنديا واحدا لمقاتلة دولة عربية ، أو أمة عربية ، أو أمة ناطقة باللسان العربى ! ..

وفى موطن آخر يترجم شكيب عن سياسته العملية التى لا تأبى التفاهم فيقول :

« صرحنا بأننا من قديم الزمان أصحاب سياسة عملية ، لا يهمنا الشهرة ، ولا نقصد التهويش ليقال عنا اننا مخلصون ، فالسياسة العربية العملية التى هى رائدنا قضت علينا بأن نتفاهم مع زعيم دولة عظمى كموسولينى له ما له من النفوذ فى العالم ، وأن نتلو قوله تعالى : (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) وأية دولة من الدول مدت الينا يد المساعدة ، أو عاملتنا نحن العرب وعامة المسلمين بالانصاف والمساواة ، وكفت عما تسلكه نحونا من الشطط والاعتساف ، فاننا حاضرون للتفاهم معها ، والتجاوز عما سلف منها ، لأن السياسة كلها هى عبارة عن تبادل المنافع بين الأمم »[1] .

وفى سنة ١٩٢٧ سافر شكيب الى أمريكة الشمالية حيث رأس

---

(١) مجلة الفتح ، عدد ١٧ ذى القعدة ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م) .

مؤتمرا عربيا فى بلدة « ديترويت » بناء على دعوة تلقاها من عرب المهجر هناك .

كما زار روسية فى أواخر السنة المذكورة ، حيث استقبله القوم هناك بحفاوة واجلال ، وطالب عقب ذلك بتحسين العلاقات بين العرب والروس .

وفى سنة ١٩٢٩ م حج شكيب الى بيت الله الحرام ، والتقى بالملك عبد العزيز آل سعود ، ووضع عن هذه الرحلة كتابه « الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج الى أقدس مطاف » .

وفى سنة ١٩٣٠ قام برحلة الى أسبانية ، وعاد فكتب كتابه « تاريخ غزوات العرب فى فرنسة وسويسرة وايطالية وجزائر البحر المتوسط » . كما بدأ يفكر فى اصدار كتابه الجليل « الحلل السندسية فى الآثار والأخبار الأندلسية » .

كما أخذ يصدر مجلة « الأمة العربية » بالفرنسية فى چنيف ، يدافع فيها عن قضايا العروبة والاسلام .

لقد حق للأستاذ محمد على علوبة أن يقول : « عاش الأمير شكيب حياته مجاهدا فى سبيل الحرية والاستقلال : حرية العرب فى كل قطر ، واستقلال المسلمين فى كل بلد ، ولهذا لم يكن جهاده محصورا فى دائرة وطنه وبلده ، بل سما به الى أن يكون جهادا واسع النطاق ، يدفع عن كل مظلوم ، ويرد كل عدوان ، وينصر كل ضعيف » [1] .

---

(١) ذكرى الأمير ، ص ٢٢ .

وأن يقول السيد تحسين العسكرى : « لقد نذر الأمير شكيب حياته ومواهبه لحقوق هذه الأمة ، لم يفرق بين أحد من أبنائها ، أو قطر من أقطارها ، فجاهد جهاد الأبطال ، وكافح بكل ما لديه من قوة وحيوية ، واستخدم جميع مواهبه الممتازة فى سبيلها ، فكان دوما المناضل عنها ، لم يثنه عن ذلك اضطهاد أو تشريد ، ولم يزعزع عقيدته ترغيب أو ترهيب »[1] .

وفى سنة ١٩٣٤ اشترك فى وفد الصلح الذى أرسله المؤتمر الاسلامى بالقدس للتوفيق بين الملك عبد العزيز آل سعود والامام يحيى ملك اليمن بعد أن نشبت الحرب بينهما ، واستطاع الوفد أن يقوم بمهمته على الوجه المرضى .

وفى صيف ١٩٣٧ سمحت له فرنسة بأن يزور سورية ، واستقبله أبناء وطنه استقبالا رائعا ، وسعد بتقبيل يد أمه السيدة الوالدة أم البنين ، وأرادت حكومة سورية أن تعبر عن تقديرها له فأصدرت قرارا بتعيينه رئيسا للمجمع العلمى العربى بدمشق ، ولكن فرنسة عادت فنقضت المعاهدة التى كانت قد عقدتها مع سورية سنة ١٩٣٦ ، فترك شكيب رياسة المجمع ، وعاد الى أوربة .

وفى سنة ١٩٣٩ أذن المسئولون فى مصر له بزيارتها ، بعد أن حيل بينه وبينها سنوات طويلة ، فزارها ، وبعد آن قضى فى مصر نحو أربعة أشهر عاد الى أوربة ، وظل يكتب ويخطب ويراسل ويؤلف .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٥ .

وتعرض شكيب وهو فى أوربة لضوائق مالية كثيرة صوّر طائفة منها لصديقه السيد محمد رشيد رضا فى أكثر من رسالة بعث بها اليه ، وهى تحت يدى .

وقامت الحرب العالمية الثانية بظروفها القاسية التى نال منها شكيب نصيبه ، ولكنه لم يكف عن الجهاد فى سبيل العرب والمسلمين . وانتهت الحرب عام ١٩٤٥ ، وتحررت سورية ولبنان ، فعاد شكيب الى وطنه فى آخر أكتوبر ١٩٤٦ ، واستقبله قومه بحفاوة واكبار ، وظل الزوار يتوالون — وفدا بعد وفد — للتسليم عليه والترحيب به والاستماع اليه .

وضعفت صحته بعد مرور السنين ، وطول الكفاح ، وتوالى المتاعب ، وكثرة الأمراض ..

لقد تعرض شكيب خلال حياته لأكثر من مرض ، فبين يدىّ رسالة خطية بخط الشيخ محمد عبده الى شكيب ، تاريخها ٩ صفر سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧م) وفيها يقول لشكيب : « أما عَوْد الرطوبة اليكم فهو مما يفزعنى عليكم ، فان أثرها قد ظهر فى صحتى هذه الأيام ظهورا أقلقنى ، خصوصا ما كان من الألم فى كلتا رجلى ، وقاكم الله » .

وهذه رسالة خطية ثانية بخط شكيب الى أخيه رشيد رضا بتاريخ ٢٥ أغسطس ، وأرجح أنه أغسطس سنة ١٩٢٥ . يقول فيها : « أكتب لك وأنا عليل . لم يكفنا الزكام المزمن فى شعاب الرئة ، وأزمة الصدر ، حتى جاءتنا نوبات شديدة فى المثانة ، ونزلت حصوات .

فلهذا ترانى مضطرا للاستقالة من الوفد السورى ، وقد أعطانى بعض مشاهير الأطباء شهادة أنه ينبغى لى راحة تامة نحو سنة بالأقل » .

وهذه رسالة خطية ثالثة ، بخط شكيب الى رشيد ، بتاريخ ٢٦ يوليه ١٩٢٨ وفيها يقول : « أما أخوك هذا (يعنى نفسه) فعسر النّفس معى خفّ كثيرا عن ذى قبل ، ويظهر أن الحر يلائمه ، وهذا الصيف بلغ الحر فى لوزان درجة ٣٠ بميزان سنتيغراد فى الظل ، على أنه متى استرحت من الكتابة لا أشعر تقريبا بشىء » .

وفى رسالة خطية رابعة بخط شكيب الى رشيد بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩٢٩ يقول : « وأما صحتى أنا فلا أزال أعانى من الرمل ، ولكن أخف من ذى قبل » .

فمن هذه الرسائل نفهم أن شكيب تعرض لأمراض الرطوبة ، والزكام المزمن فى شعاب الرئة ، وأزمة الصدر ، والمثانة ، والكلى ، وعسر النفس ، كما تعرض فى أخريات أيامه لمرض عينيه وتصلب الشرايين وغيره ..

وفى يوم الاثنين ١٥ من المحرم سنة ١٣٦٦ هـ الموافق ٩ من ديسمبر سنة ١٩٤٦ م لحق شكيب أرسلان بربه ، بعد حياة طويلة حافلة . وصلوا عليه فى جامع العمرى ببيروت ، ثم نقلوا جثمانه الى قريته « الشويفات » حيث دُفن فيها بجوار أخيه عادل أرسلان .

مات شكيب تاركا خلفه زوجته « السيدة سليمى الخاص بك

حاتوغو » الشركسية الأصل التى تزوجها سنة ١٩١٦ ، وأولاده الثلاثة وهم : غالب ، ومى ، وناظمة . ولم يترك ثروة وراءه سوى كتبه وبيت فى برلين ، وزيتونات فى قطعة أرض بلبنان ..

***

وكان شكيب يعرف الى جوار اللغة العربية اللغة الفرنسية ، والتركية ، والانجليزية ، وجانبا من الألمانية (١) .

وقالت لى زوجته انه كان متدينا محافظا على الصلاة ، وحياته كلها كتابة أو قراءة أو حديث أو رحلة ، وكانا على وفاق فى حياتهما .. وكان لا يهمه الأكل ، فما يقدم اليه يأكل منه ، وان كان يحب ألوانا خاصة كالشكشوكة ، والكسكسى ، والكبيبة ، وكانت خادمته « خضرة » تصنعها له فى جنيف .

وكان يحب الفاكهة والحلوى والرائحة الطيبة ، ولا يتعاطى المخدرات ولا المسكرات ، ولا يدخن ، ولكنه يشرب القهوة المرة التى تصنع مع « الحبهان » ، وكان يعجبه قول الامام النابلسى فى القهوة :

قهوة البن حلال   وان نهى الناهون عنها
كيف تدعى بحرام   وأنا أشرب منها ؟ ! (٢)

وكان شكيب يميل الى الطول فى القامة ، وهو حنطى اللون ، أسود الشعر فى شبابه ، ثم صار أبيض ، ولم يكن يصبغه ، ولكنه كان يصبغ شاربه ، وكان أميل الى الامتلاء فى شبابه ، وله كرش ،

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ٢٢ ص ٨٩ .
(٢) الشورى ، ١١ أغسطس ١٩٢٧ .

ولكنه نحل فى آخر حياته ، كما ضعف بصره ، وكانت يده ترتعش فى هذه المرحلة اذا كتب ، ويبدو أثر هذا الارتعاش فى حروف كتابته كما تتبعتها ، وكان صوته أميل الى الخشونة والامتلاء .

وكان شكيب — فيما ذكر لى الأستاذ على رشدى — يضع فى جيبه اصبع التلوين للشارب ، وفى رحلته الى اليمن ضاع منه الاصبع ، فصاح مداعبا : « شبابى ، شبابى ، علىّ سرق شبابى » . فسأله الأستاذ على رشدى : ماذا حدث يا سمو الأمير ؟ . فقال : ضاع اصبع الصبغة والتلوين ! . وبحثوا عنه فوجدوه ، فقال الحاج أمين الحسينى مداعبا ، وكان رفيقا لشكيب فى الرحلة : « عاد الأمير الى الشباب » .

فأخذ شكيب يرتجل الشعر على هذا الوزن مبتدئا بقوله :

بشرى لزينب والرباب عاد الأمــير الى الشباب

حتى أكمل أربعين بيتا ، ويبدو أن هذه الأبيات لم تنشر .

ولقد كان شكيب يتمسك بأذيال الشباب ، ويكره الشعور بالشيخوخة ، كما يكره الحديث عن الشيب وعن الأعمار ، ولقد حدث وهو فى مكة أن تقدم اليه رجل وسأله : كم عمر الأمير ؟ . فأجاب : ان الامام أحمد بن حنبل حينما سئل عن عمره أجاب : ليس من المروءة أن يخبر المرء عن عمره ! .

وفى عدد ٢٠ أغسطس ١٩٢٥ من « الشورى » يسرد شكيب بعض ذكرياته مع شيخ العروبة أحمد زكى باشا ثم يقول مخاطبا صاحبه :

« سيظن الذين يقرأون هذا الكلام من الشبان أننا نتحدث

عن عاد وعن ارم ، وسيتخيل الذين لم يعرفونا أنا واياك الا بالسماع أننا أصبحنا شيوخا فانين ، وأنهم ان رأونا رأوا هرمين متقعوسين ، وسيقولون : من أدرك مجلسا كهذا فى أوائل عهد الاحتلال لابد أن يكون اليوم شيخا ماجاً قد أكل عليه الدهر وشرب .

وما يصيبون ان قدّروا هذا التقدير ، فما زلنا والله شبابا ، وما الأمر الا كما قال العرب : ابن أربعين أبطش الأبطشين ، وابن خمسين ليث عفرين .

ولا يخفى أن فسحة الخمسين لابد أن تمتد الى النقطة الوسطى بين الخمسين والستين ، فأنت ترى أنى لم أزل فى ضمن دور الليثية أو الأرسلانية ، ولعلك أنت أيضا باق ليثا من قلب عفرين . وعلى كل حال لا أعلم ، فكل انسان أدرى بنفسه ، وغاية ما أعلم أنى شاب ان كان الشباب هو القوة ، وكانت النضارة هى الفتوة ..

وللقارح اليعبوب خير علالة

من الجَذَع المرجّى وأبعد منزعا »

ونلاحظ أنه قال هذا سنة ١٩٢٥ ، أى وعمره خمسة وخمسون عاما ، فهو يدافع عن نفسه ، والماج : هو الذى يسيل لعابه كبرا وهرما ، وعفرين : المأسدة ، أى مكان الأسود . وليث عفرين : أى الأسد . وأرسلان : معناه الأسد . والقارح اليعبوب : هو الفرس الكبير السريع الجرى . والجذع : الشاب .

وفى عدد ١٠ مايو ١٩٢٨ يكتب أحمد زكى باشا مداعبا لشكيب حول موضوع العمر ، فيقول له : «أما سيدى الصغير جدا جدا جدا فلن أعاجله اليوم بكشف اللثام عن الحجج الملزمة ، أو برفع

الستار عن الدلالات المفحمة ، ولن أسوق للناس بيان البرهان وبرهان البيان ، حتى يستوفى — وهو أمير البيان — عجبه من علامة الاستفهام . وحينئــذ أستأذنه فى الاستشهاد عليه بفمه وبضلعه ، بل بنفسه التى بين جنبيه أولا ، ثم بنفسه التى الى جنبه وهى أعز عليه من نفسه ، ثم أحقق معه وأدقق ، لكى يعلم ويصدق أن (البلاء موكل بالمنطق) . فانتظر يا شيخ الأشياخ حقيقة ، ويا فحل الفحول مجازا » .

ولا يتوانى شكيب فى الرد على شيخ العروبة ، بل يعجل به فى عدد ١٧ مايو ١٩٢٨ حيث يقول فيه : « لقد كنا نتلاقى عنـــد المرحومين الشيخ محمد عبده وسعد أفندى زغلول والشيخ على الليثى سنة ١٨٩٠ . ولقد كان بينى وبين الأستاذ أحمد زكى بك سنوات وربما سنون من الفــرق ، حتى كنت أهم أن أناديه : يا عمى » ! .

وفى هذه المقالة يقص شكيب قصة « حنا بك الأسعد الصعبى » الذى كان حريصا على تقليل عمره وتناسى سنه مع رستم باشا الذى تولى ادارة الجبل فى لبنان من سنة ١٨٧٣ الى سنة ١٨٨٣ م.

ثم يعود شكيب فى عدد ٣١ مايو ١٩٢٨ ليشهد على صغر سنه برسالة من الشيخ على الليثى اليه ، مؤرخة فى « ٣ صفر سنة ١٣٠٨ » وفيها يعبر الليثى عن شكيب بأنه « فتى الشباب من أرسلان » . ومعنى هذا أنه كان يومئذ دون العشرين حســب تفسير شكيب !! ...

آثار رجال

كان شكيب طموحا منذ صباه ، وساعد على طموحه أكثر من سبب ، فهو سليل أسرة امارة وجاه ، وبيئته التى نشأ فيها تثير عوامل الطموح المبكر ، وعند شكيب مواهب ظهرت أشعتها فى مراحل طريقه الأولى ، وفى بيته يلتقى كثير من أعلام السياسة والأدب والاجتماع . فلم يكن عجيبا أن يطمح شكيب الى أن يكون له فى الحياة تاريخ مشهود ، وأن يحاول الاتصال بعظماء عصره ، وهو لمّا يزل فى ريعان الصبا وميعة الشباب .

ولا شك أن أول من أثر فى شكيب هو أستاذه الأول الشيخ عبد الله البستانى ، الذى علمه فى مدرسة الحكمة . واتصل شكيب بالشيخ محمد عبده وهو ما زال تلميذا فى مدرسة الحكمة ، وراسل محمود سامى البارودى بعد أن تلمس الاتصال به عن طريق الاستشهاد بشعره ، وأهدى ديوانه الأول « باكورة » الى عبد الله باشا فكرى والى غيره من الكبار ليقرأوا له ويتصلوا به ، وتعرض لمناقشة الشيخ ابراهيم اليازجى فى موضوعات لغوية ، وشكيب ما زال شابا دون الثلاثين بسنوات ، وتعرف الى أمير الشعراء أحمد شوقى سنة ١٨٩٢ ، أى وسنه دون الخامسة والعشرين ، وعلى مقربة من هذه الفترة راسل اسماعيل باشا صبرى ، كما راسل أو اتصل بكثيرين غير هؤلاء من العلماء والأدباء والشعراء .

ولا شك أن هؤلاء كان لهم آثار فى شكيب ، ولكن هناك

طائفة تستحق الاشارة الخاصة اليها ، لأنها كانت ذات تأثير واضح فى تكوين شخصية شكيب . فقد عرفنا أن الأمير اتصل فى صدر شبابه بثائر الاسلام وموقظ الشرق السيد جمال الدين الأفغانى ، حيث سافر شكيب الى الآستانة ، وتعرف الى السيد ، واتصل به وأخذ عنه [1] .

وكان لجمال الدين أثر فى اسلاميات شكيب وعثمانياته ، لأن الأفغانى كان يعمل لخدمة الاسلام عن طريق مناصرة الخلافة ودولتها ، وكان يعمل « لجمع شتات المسلمين فى حوزة دولة اسلامية تحت ظل الخلافة العظمى » [2] .

وبلغ تأثير جمال الدين فى شكيب حدا جعل أحد الكاتبين يصف الأمير شكيب عند رثائه له بأنه « أفغانى هذا العصر ، وواحد هذا الدهر . لقد تشابه الرجلان العظيمان قدرا ورتبة ، واستويا على صعيد واحد من العظمة والنبوغ . أليس السيد جمال الدين نفسه قال للأمير شكيب يوم التقيا فى دار الخلافة : سقيا لأرض الاسلام التى أنبتتك ؟ . وكان يومئذ وا أسفاه فى عنفوان عمره . كان هلالا فكيف بعد أن صار بدرا كاملا » ؟ [3] .

وتأثر شكيب بالأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وخالطه وعاشره ، وسمع منه حينما كان الشيخ منفيا فى بيروت ، واتصل به

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، مجلد ٢٢ ص ٩١ .
(٢) الاتجاهات الأدبية ، ج ١ ص ١٥ .
(٣) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ٣٣ ص ٤٧٤ .

وتلقى عنه حينما عاد الشيخ الى مصر ؛ والدلائل على قوة التأثير هنا كثيرة ، فالامام كان معجبا بجمال الدين الأفغانى ، فأعجب شكيب بالأفغانى وردد أفكاره . وكان الامام يكتب فى الاسلام ويعمل لاصلاح المسلمين ، فعمل شكيب فى نفس الاتجاه ، وردد الامام أمام شكيب اعجابه بمقدمة ابن خلدون ، فشرع شكيب يعنى بابن خلدون ويقلده ، ثم يعلق فيما بعد على تاريخه . والامام كان رجل فكر ونثر ودعوة ، فأثر ذلك فى شكيب ، ولعل ذلك هو الذى نقله من الشعر الى النثر .

والامام كان علما من أعلام الاصلاح ، وكأن شكيب أراد أن يتشبه به ، والامام كان وهو فى بيروت يشرح الكتب القديمة أو يعلق عليها ، وكذلك فعل شكيب ، فنشر « الدرة اليتيمة » لابن المقفع ، ورسائل الصابى ، وسيرة الأوزاعى ، وغيرها .

ويترجم شكيب عن مبلغ تأثره بالشيخ فى أكثر من موطن ، فهو يقول عنه مثلا : « ومن بعد أن صرت من مريديه لم أسمع منه كلمة تقريظ لشىء من أعمالى أو أقوالى ، بل كان اذا استحسن يسكت ، واذا استهجن ينبه ويوقظ ، وكان الواحد منا يتجنب أقل التسامح مع نفسه ، خوفا من توبيخه ، لشدة ما كنا نوقره ونهابه »[1] .

وفى موطن ثان يقول شكيب : « أنا لست فقيها ، ولا قرأت فى الأزهر ، ولا دارت العمامة برأسى فى يوم من الأيام ،

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ، ج ١ ص ٤٠١ .

وما طالعت من الفقه الا المبادىء الكلية ، ولكنى سمعت من أستاذى الشيخ محمد عبده رحمه الله أن الشرع لا يأمر بالعبث ، ولا يجيز الضرر من أى جهة كان » [1] .

وفى موطن ثالث يقول : « أستاذنا فريد عصره ، ووحيد مصره ، حجة الاسلام الشيخ محمد عبده ، أكرم الله مثواه ، تعرف اليه محرر هـذه الحواشى فى عهد الطّلب ، أيام كان منفيا فى بيروت ، على أثر الحادثة العرابية ، وذلك سنة ١٨٨٦ ، ولازمته وأخذت عنـه ، واستفدت منـه بقدر ما وسع فتور خاطرى ، واستفضت من بحر حكمته ما أمكن أن يناله قصور عارضى ، ووجدت فيه الضالة التى كنت أنشدها ، والبغية التى كنت أبحث عنها ولا أجدها .

ورأيت فى فهمه العقيدة الاسلامية الشكل الوحيد الذى يرجى أن ينهض بالاسلام بعد أن آل الى هذه الحال ، وأن يقيل عثاره بعد أن ظن ضعفاء العقول أن عثرته لا تقال .

وما زلت بعد أن عاد الى وطنه مصر الى أن ادركتـه الوفاة رحمه الله أجاذبه حبل المكاتبة ، وأقف على رأيه فى أكثر الأمور : جزئيها وكليها ، وأستطلع منه طلع الأحـوال ، وهو يبث الىّ ما لا يبثه الى غيرى من سوانح فكره وذوات صدره [2] » .

---

(١) الشورى ، عدد ٢٥ نوفمبر ١٩٢٦ .

(٢) حاضر العالم الاسلامى ، ج ١ ص ٢٨٣ .

وفى موطن رابع يقول : « وأما فى الجزائر فقد كان البادىء بالحركة الوطنية الحقيقية هو الأستاذ الكبير عبد الحميد باديس ورهطه من العلماء الذين يجرون مجرى المصلح الأكبر أستاذنا الشيخ محمد عبده تلميذ السيد جمال الدين الأفغانى ، فكان من البديهى أن تكون بيني وبين السيد باديس رحمه الله صلة روحية بالنظر الى اتحاد المشرب الاجتماعى والسياسى معا [1] » .

وقد أشار شكيب أكثر من مرة فى كتابه عن « السيد رشيد رضا » الى أستاذية الشيخ محمد عبده له ولرشيد [2] . وقد صاغ شكيب فى الشيخ أكثر من قصيدة [3] ، وان كنت لم أطلع له على رثاء شعرى للشيخ .

وكان شكيب يدافع عن الشيخ ويخاصم من أجله ، ومن كلامه بعد أن يذكر ثناء طويلا على الشيخ ودفاعا عنه قوله : « فالذين طعنوا فيه ان كانوا طعنوا عن جهالة بدون عمد ، أو عن نبأ لم يتبينوه فسامحهم الله ، وان كانوا طعنوا عن حسد أو شنآن حملهم على القول بغير علم أو بما لا يعتقدون ، فحسبهم الله [4] » .

وحينما مات الامام حزن عليه الأمير حزنا بليغا ، وكتب الى

---

(١) عروة الاتحاد ، ص ١٤٧ .

(٢) انظر مثلا ، ص ٧ و ١٤ و ١٦ و ٣٥ و ٤٠ و ٧٦ و ١١٦ و ٢٧٣ .

(٣) انظر ديوان الأمير ، ص ١٨ و ٣٣ و ١٣١ و ١٥٦ و ١٦١ و ١٦٣ .

(٤) تاريخ الأستاذ الامام ، ج ١ ص ٤٠٥ . والشنآن : البغض.

الشيخ عبد الكريم سلمان بتاريخ ١٥ تموز (يوليه) سنة ١٩٠٥ خطابا تعزية جاء فيه :

« أيها الأستاذ ، منذ عقلت على نفسى لم أدر مصيبة عظمت علىّ مثل هذه المصيبة ، حتى لو قلت ان مصابى بوالدى لم يكن أعظم عندى لصدقت ، مع أنى يوم وفاة والدى كنت شارخا ، وأنا الآن ذرفت على الخمس والثلاثين ، وصرت كهلا ، وألفت نفسى المصائب ، وما يوازى حزنى على ارتحال الأستاذ الا ندمى على تأخير زيارته حتى مات ولم أره ، وكتبه عندى ، وهو يستدعينى ويستنجز وعدى [1] » .

وشكيب فى هذه الرسالة يذكر أن مصابه بالشيخ كمصابه بأبيه ، ويؤيد هذا أن الأمير ذكر مثل هذا من قبل فى رسالة خطية له بين يدىّ ، بعث بها الى الامام محمد عبده يعزيه فى وفاة والده ، وهذه الرسالة بتاريخ ١١ رجب سنة ١٣١٤ هـ ، وهى رسالة بليغة على وجازتها ، وفيها صورة من صور أدب شكيب ، وتعد نموذجا من نماذج تعبيره ، وهذا نصها :

« سيدى الأستاذ الأفخم

ما كنت أوثر أن يكون افتتاح مكاتيبى اليكم بعد انقطاع كتبى مدة ، وطول العهد بالمراسلة ، التعزية بمن لو لم يكن له فضيلة غير وجودكم لكفاه فضيلة وحسبا ، ولو لم يكن له أب غير كونه أبا لكم لوفى بأصله نسبا .

---

(١) المرجع السابق ، ج ٣ ص ٢٨٦ • وشارخا : شابا فتيا • وزرفت : زدت •

فكيف وهو سليل أصل طاهر ، وبديع خلق زاهر ، وكريم قوم هو فى ذاته مستقلا ، وبصفاته منفردا ، حقيق" بكل اعتبار وتوقير ، خليق بمحبة الصغير وحرمة الكبير ؟ .

وما جئت الآن أذكر سيدى وأستاذى بصدق ولائى ، وهو يعلم أن مصابه مصابى ولو لم أكتب ، وأن الاحساس الذى يخالج فؤاده أيا كان من سراء أو ضراء ان تجاوزه الى غيره لم يجد قبل فؤادى مكانا ، ولم يقدم على ما بين جوانحى مقيلا .

ولكننى لا أنسى أننى لما مررت بهذا الموقع نفسه ، وأصبت باليتم لم أجد لى عوضا عن والدى سواه ، ولا سندا ألجأ اليه أثناء تلك المصيبة التى أطارت عقلى شعاعا على حداثة سنى غير الذى جئت الآن أدّعى مقابلته فى الاحسان ، ومكافأته على مكارم الأخلاق .

والله يشهد أننى قبيله فى درجة الغم ، وشريكه الأول فى الهم . فان قصرت فى الأمر عن شأوه ، فكل يعمل بحسب قدره .

أسأل الله تغمد الوالد الكريم بواسع الرحمة ، وأن لا أرى على مولاى سوءا ، وأن يبقى بعين العناية محفوظا ، وأختم بتقبيل يديكم .

ولدكم

شكيب أرسلان »

وقد لاحظ أكثر من باحث تأثر شكيب بالشيخ ، واستمداده من علمه ورأيه ، فالأستاذ محمد حبيب أحمد يقول : « وقد كان الأمير شكيب معجبا بالامام كل الاعجاب ، أخذ عنه الكثير من

أفكاره فى اصلاح العالم الاسلامى ، تلك التى تميزت بقوة الحجة ، وسلامة التعبير ، وهدوء المناظرة » [1] .

ويقول تشارلز : « وقد قرأ على الشيخ عبده فى بيروت ، وتتلمذ له طول حياته الأمير اللبنانى شكيب أرسلان الذى يكتب فى الصحف كثيرا مقالات يبحث فيها الأمور التى ترفع من شأن الاسلام على وجه عام » [2] .

وكان شكيب يجمع بين جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى مجال تأثره البليغ بهما ، ويرى الأول منهما أستاذاً للثانى ، فهو يقول مثلا : « اننا فى حاضر العالم الاسلامى لم نعظم أحدا فى رجال الاسلام ما عظمنا المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى أستاذ الشرق عموما ، وأستاذ أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبده » [3] .

وشكيب يقرر وثاقة الاتصال بين جمال الدين ومحمد عبده ، ولذلك يقول السيد رشيد رضا : « وأنبأنى الأمير شكيب أرسلان أنه سمع الأستاذ (أى الشيخ محمد عبده) يقول : ان الأفكار فى العروة الوثقى كلها للسيد (أى جمال الدين) ليس لى منها فكرة واحدة ، والعبارة كلها لى ، ليس للسيد منها كلمة واحدة »[4] .

ومن الأشخاص الذين تأثر بهم شكيب الشيخ طاهر الجزائرى المولود سنة ١٨٥١ والمتوفى سنة ١٩٢٠ وهو « علم من أعلام

---

(١) كتاب نهضة الشعوب الاسلامية ، ص ٩٤ .
(٢) الاسلام والتجديد فى مصر، ترجمة عباس محمود، ص ٢٠٥.
(٣) مجلة الفتح ، عدد ٢ رجب ١٣٥٣ .
(٤) تاريخ الأستاذ الامام ، ج ١ ص ٢٨٩ .

الحركة العلمية فى دنيا العرب ، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين ، فقد كان بنفسه مجموعة نفيسة من العلوم ، ومكتبة سيارة ضمت المفسر والمحدث والأصولى والفقيه والفيلسوف والمربى . محقق دقيق تفرغ للبحث العلمى ، وعمل على تنشئة الكثيرين من أدباء الجيل الماضى ، أفنى عمره فى التنقيب عن الكتاب العربى ، مطبوعا ومخطوطا ، وفى احياء الخيِّر منه »[1] .

يقول الأستاذ رفائيل بطى : « ولما اشتد ساعد شكيب ونضج فكره ، دفعه حب الاستطلاع وروح الغيرة المتقد فى ذهنه ، الى الاتصال بالصفوة المختارة من رواد النهضة والاصلاح ، ولا سيما السيد جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ طاهر الجزائرى ، فاقتبس من أنوارهم ، وثقف من مبتكراتهم ، وتطلع الى سعة آفاقهم ، ما أنشأه هذه النشأة الحافلة »[2] .

وممن تأثر بهم شكيب الطبيب العالم الأمريكى الدكتور كرنيليوس ڤانديك الذى تولى التدريس فى الكلية الأمريكية ببيروت ، وولد سنة ١٨١٨ وتوفى سنة ١٨٩٥ . والذى يقول عنه شكيب :

« ولما كان لابد من توفير كل حق لأهله ، وجب أن تقول ان الأمريكيين هم الذين بدأوا بتنوير آفاق سورية بالمعارف العصرية ، بتأسيس الكلية الشهيرة الأمريكية فى بيروت ، وانه فى هذه المدرسة

---

(١) مصادر الدراسة الأدبية ، ج ٢ ص ٢٦٤ .
(٢) مجلة الرسالة ، عدد ١٣ يناير ١٩٤٧ .

جلس للتعليم أساطين حكمة وأعلام افادة لن تبرح سورية مدينة لهم الى الأبد ، نخص منهم بالتنويه أقربهم الى قلوب العرب ، وأشدهم شغفا بحب سورية ، وأبكرهم الى نقل التآليف التدريسية من الانكليزية الى العربية ، ألا وهو الطيب الذكر الدكتور ڤانديك جزاه الله عن بلادنا خيرا »[1] .

ويفصح شكيب عن تأثير ڤانديك فيه فيقول : « العلامة الشهير أستاذ أساتيذ العصر الدكتور ڤانديك الذى كان لى عليه تردد كثير ، وكان له نحوى ميل شديد ، وكنت ممن يستضىء بآرائه » .

ويذكر شكيب أن ڤانديك راجع له كتابا ترجمه عن الفرنسية ألفه « درابر » ، وأن ڤانديك صحح بعض الألفاظ العلمية فى الترجمة[2] .

وفى كتاب « حاضر العالم الاسلامى » ذكر شكيب ڤانديك بعبارات الاجلال مرات كثيرة [3] .

هؤلاء أشخاص عاصروا شكيب وتأثر بهم بعد أن لقيهم واستمع اليهم ، وهناك من تأثر به شكيب وان لم يلقه ، مثل أحمد فارس الشدياق اللبنانى الذى كان يؤمن بالجامعة العثمانية والخلافة الاسلامية ، ويعمل على احياء هذه الفكرة فى الأدب

---

(١) الكتاب الذهبى ليوبيل المقتطف الخمسينى ، ص ١٢٦ .

(٢) حاضر العالم الاسلامى ، ج ١ ص ١٤٢ .

(٣) انظر مثلا ، ج ١ ص ١٤٢ و ١٤٧ و ١٥٥ .

العربى [1] . وقد ولد سنة ١٨٠٤ وتوفى سنة ١٨٨٧ ، وهو كاتب متفنن ، وعالم لغوى ، تلقى دروسه فى بيروت ، واتصل بالمرسلين الأمريكيين ، وترك مذهبه المارونى الى البروتستانتية ، ثم رحل الى مصر فأتم دروسه فيها ، وأنشأ بها جريدة الوقائع المصرية ، ثم استدعى الى مالطة ليشرف على مطبعة المرسلين الأمريكيين ، ثم دعى الى انجلترة ليعاون جمعية نقل التوراة بكمبردج فى ضبط عبارة الترجمة العربية للتوراة .

ثم سافر الى باريس وبقى بها زمنا ، واتصل بباى تونس أحمد باشا ، وسافر الى تونس ، وهناك أسلم وتسمى باسم أحمد ، وعهد اليه بانشاء جريدة « الرائد التونسى » . واتصل بالسلطان عبد المجيد فأكرمه وقربه ، وأقام بالآستانة ، وأنشأ فيها جريدة (الجوائب) المشهورة . وتوفى هناك ، ثم نقل جثمانه الى لبنان ، ودفن فى مقبرة الحازمية بالقرب من بيروت [2] .

وممن تأثر بهم شكيب من القدماء : الجاحظ ، وبديع الزمان الهمذانى ، والخوارزمى ، وابن المقفع ، وابن خلدون ، والصابى وغيرهم ، وقد أبنت وجوه هذا التأثر بالتفصيل فى رسالتى عن شكيب « أمير البيان شكيب أرسلان » التى عنيت بدراسة النواحى الأدبية واللغوية عند شكيب .

---

(١) الاتجاهات الأدبية ، ج ١ ص ١٥ .

(٢) مناهل الأدب العربى ، الحلقة الثالثة ، ص ٣ و ٤ .

شكيب والقومية العربية

ان الكثيرين من النـاس يطلقون على شكيب أنه « كاتب الاسلام » ، ويقصدون بذلك أنه عنى عناية ملحوظة بالدفاع عن الاسلام والمسلمين ، ولكنه من حق شكيب أن نسميه أيضا « كاتب العروبة » ، فقد دافع عن العرب ، ومجد العروبة ، واعتز بها ، وتغنى بالقومية العربية ، ودعا الى الوحدة العربية ، وكان فى ذلك من الرواد ، وظل على ذلك الى أن لقى ربه تبارك وتعالى .

تحدث الأستاذ أحمد عارف الزين صاحب مجلة « العرفان » اللبنانية عن شكيب ، فوصفه بأنه علم عبقرى نابغ عالم مصلح ، وأنه أديب رفيع وشاعر مجيد ، وأنه كاتب مؤلف ضرب الرقم القياسى فى التأليف ، ثم قال عنه :

« ووطنى من الطراز المعلم ، اذا عد الوطنيون المخلصون فهو فى الرعيل الأول ، شرّق وغرب ، وأفصح وأعرب ، وتبـدى وتحضر ، وهو فى كل حالاته ونزعاته عربى عربى عربى ، وكأن ما وصف به الثعالبى صاحب اليتيمة بنى حمدان الغر الميامين ينطبق عليه وعلى أخويه شمّ العرانين : (ألسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وعقولهم للرجاحة ، وأوجههم للصباحة) ، وما أشبه هؤلاء بالحمدانيين الذين جمعوا بين الشجاعة والأدب ، وكل مزية حميدة نسبت للعرب » [1] .

---

(١) مجلة العرفان ، عدد صفر ١٣٦٦ .

وطالما تغنى شكيب بعروبته وعروبة الطائفة التى ينتسب اليها سياسيا ، وهى طائفة « الدروز » أو « طائفة بنى معروف » ، ولقد كتب مقالا تحت عنوان : « الدروز أو بنو معروف عرب أقحاح » وبدأ الحديث بقوله : « ورد فى مقالة مترجمة عن الألمانى كلام عن الدروز ، يزعم الكاتب فيه أن الدروز كسائر أهل سورية من أجناس مختلفة ، وهذا الكلام خبص [1] فى خبص كسائر تخاليط الافرنج اذا شرعوا فى الكتابة على الشرقيين ، فالدروز فى النسب عرب أقحاح ، لا يوجد فى العرب الجالين عن جزيرة العرب أصح عروبة منهم » [2] .

واذا أثبت شكيب لطائفته صفة العروبة فقد أثبتها لنفسه من باب أولى ، وقد كان حريصا على هذا الاثبات ، لأن بعض المعادين له كان يشيع أن أجداده ليسوا عربا ، وأنهم من الأتراك ، ويستغل فى ذلك كلمة « أرسلان » لأنها مشهورة الاستعمال عند الأتراك ، مع أن العرب قد نقلوا الكلمة واستعملوها وسموا بها .

ولا يكتفى شكيب بحديثه السابق ، بل يعود الى أمثال له ، فيكتب بحثا عن عروبة بنى معروف يستغرق أكثر من عشر صفحات من كتاب « عروة الاتحاد » ، ويقيم دلائل على ذلك موجزها :

١ — سحنة الدروز هى سحنة صميم العرب .

---

(١) الخبص : الخلط . وهى عامية فصيحة .

(٢) الشورى ، عدد أول أكتوبر ١٩٢٥ .

٢ — فحص الأطبـاء جماجم الدروز فوجدوها لا تختلف عن جماجم عرب البادية .

٣ — نقاوة لغة الدروز العربية ، ولغتهم أفصح من لغة البدو ، وفى لغتهم اصطلاحات تدل على أنهم من عرب اليمن .

٤ — التاريخ والتواتر شاهدان بعروبة الدروز ، وهنا يسرد شكيب جانبـا من تاريخهم ، ويذكر أسرته الأرسلانية وسجل نسبها .

٥ — آل معروف (من الدروز) خرجوا من الشيعة السـبعية وأكثر الشيعة فى سورية من عرب اليمن .

٦ — بقاء الكلالات [1] والقرابات بين الشيعة والدروز معروفة الى اليوم ، وهذا لا يمنع من أن يكون من الدروز عائلات أصلها من أهل السنة .

٧ — الأخلاق والعادات والمنازع والمشارب كلها عند آل معروف عربية خالصة .

ويختم شكيب دفاعه عن عروبة الدروز بقوله : « فأولئك الذين يعدّون الأجانب بأن آل معروف يكونون الى جانبهم على الأمة العربية قد احتملوا بهتانا واثما مبينا ، فمهما يكن من العوامل فانه متى انقسم الناس ، ولحق كل فريق بأهله ، فأبناء معروف لا يخرجون عن الجامعة العربية ، ولا من الجامعة الاسلامية ،

---

(١) الكلالة : من تكلل نسبه بنسبك كابن العم وشبهه ، أو ماعدا الولد والوالد من الأقارب .

ولن يقدر أحد أن يخل بهذه القاعدة : (فمن نكث فانما ينكث على نفسه) » [1] .

وطالما فخر شكيب بأنه عربى ، ورددها يملأ بها فمه ، أو يشغل بها قلمه ، فحينما حج سنة ١٣٤٨ هـ — ١٩٢٩ م جعل يقول : « انى عربى حر فى بلاد عربية حرة » ويقول : « انى خاضع لحكومة عربية بحتة ، رأسها وأعضاؤها منى والىّ ، وأنا منها واليها ، وبعبارة أخرى : انى هنا خاضع لنفسى » ، ويقول : « شعرت فى الحجاز أنى تظللنى راية عربية » [2] .

وشكيب يرى أن التمسك بالقومية شعار الفرد الذى يحس بالشمم والاباء ، ولذلك يقول : « كل رجل يتمسك بعوائده ومميزات قومه فاعلم أن فى روحه شمما حمله على ذلك . وقد سئل بيير لوتى وهو قريب من الموت : أى الأمم تحب ؟ . وكان من المتوقع أن يقول : (الترك) لكثرة ما كتبه عنهم ولاعجابه بهم ، ولكنه أجاب : العرب لأنهم قوم متشبثون بشخصيتهم » [3] .

---

(١) عروة الاتحاد ، ص ٣٦ • وهذه العبارة توحى الينا بالسبب السياسى الذى يدعو شكيب الى معاودة الحديث عن عروبة الدروز والدفاع عنهم ، فهو يريد بذلك توحيد الكلمة بين أبناء الأمة حتى يتكتلوا أمام العدو الأجنبى ! •

(٢) الارتسامات اللطاف ، ص ١٠ و ١١ •

(٣) مجلة الفتح ، عدد ١٧ جمادى الأولى ١٣٤٩ هـ • وقد روى شكيب جواب بيير لوتى بعبارة أخرى هى أن جريدة الطان نقلت عن بيير لوتى أنه سئل فى أوان احتضاره : أى الشعوب أحب اليه ؟ • فقال : العرب لأنهم من آلاف السنين لم يتغيروا • انظر كتاب أناتول فرانس ، ص ٥٩ بالهامش •

ولذلك يوصى شكيب العرب بأن يحافظوا علـى قوميتهم ومقوماتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، ويحذرهم من تقليد الافرنج تقليدا أعمى ، أو متابعتهم فى كل شىء بلا بصر أو بصـيرة ، ولا يرى ضيرا فى أخذ النافع عنهم ، مع الابقاء على شخصية الأمة وذاتها ومميزاتها وخصائصها الأساسية التى لا تكون أمة بدونها ، لأن قوانين كل مملكة — كما يقول شكيب فى وصيته — يجب أن تكون على حسب استعداد أهلها ، فيقول :

« فاذا كنا حقا نريد أن تتفرنج فلنقتد بهؤلاء القوم فى البحث والتمحيص ، وعدم قبول نظام ولا قانون الا بعد قتل فائدته خبرا ، واذا كنا نريد أن نتفرنج فلنحذ حذو هؤلاء القوم فى عروجهم معارج المدنية كلها ، وسلوكهم طرق التحقيقات العلمية ، الى آخر ما وصلت اليه ، مع حفظهم لعاداتهم ونزعاتهم وأذواقهم وبقائهم كما كانوا افرنجا .

اذا كنا نريد بالفعل أن نتفرنج — أى نقتدى بالافرنج — تحتم علينا أن نبقى عربا » (١) .

وفى كتاب « لماذا تأخر المسلمون » يسهب شكيب فى الحديث عن محافظة الشعوب الأفرنجية على قوميتها « فالانكليز يريدون أن يبقوا انكليزا ، والافرنسيس يريدون أن يبقوا افرنسيسا ، والألمان لا يريدون أن يكونوا الا ألمانا ، والطليان لا يرضون الا أن يكونوا طليانا ، والروس قصـارى همهم أن يكونوا روسـا » .

(١) الشورى ، عدد ٤ فبراير ١٩٣١ .

ثم هذه ايرلندة ، وأمة البريتون ، والباشكنس ، والفلمنك ، والدانمرك ، والاسكنديناف ، وهولاندة ، والتشيك ، والمجر ، وبولونية ، وفنلندة ، وليتوانية ، والكرواتيون ، والصرب ، والأرناؤت ، والبلغار .. الخ . كل هؤلاء وغيرهم يحدثك شكيب بالجهود التى بذلوها فى سبيل الاحتفاظ بقوميتهم وخصائصهم[1].

ومن مظاهر عناية شكيب بالعروبة اهتمامه بالبحث فى أصل العرب وسبب تسميتهم ، ففى تعليقاته على تاريخ ابن خلدون نراه يقرر أنه لم يجد فى كتب الافرنج التى طالعها أصل اشتقاق لفظة (عرب) . ولكن علماء العرب يقولون : ان هذه الكلمة جاءت من قولهم : أعرب عن الشىء ، أى أبان عنه ، وقد سمّى العرب بذلك لفصاحتهم وحسن اعرابهم عن مقاصدهم .

وقيل انهم سموا بذلك نسبة الى ناحية قرب المدينة المنورة تسمى « عربة » ، وذلك لأن أولاد اسماعيل نشأوا فى هذه الناحية ، فسموا عربا ، ثم غلب الاسم على الجميع ، ويرد شكيب على هذا القول بأن الغالب هو أن أسماء الأرضين والبلاد تنقل من أسماء ساكنيها ، أو من صفة ثابتة لها ، ولم يتعهد أن الناس أخذت أسماءها من الأرض التى نزلت فيها الا على وجه النسبة ؛ ثم يخلص الى أن رأى الأكثرين هو أن كلمة « العرب » اشتقت من مادة الاعراب ، أى الابانة عن الضمير ، « وذلك لما اتصفت به

(١) لماذا تأخر المسلمون ، ص ٧٨ ـ ٨٢ الطبعة الثالثة .

هذه الأمة من حسن البيان وبلاغة التعبير ، ومن كون لغتهم هى أشرف اللغات ، والله أعلم »[1] .

والعرب اليوم فى نظر شكيب هم من انحدروا من أصـــول عربية ، أو من أصول شقيقة لها ، أو ثقافتهم عربية ، ومنزعهم واحد ، ولغتهم واحدة ، ولذلك نراه يقف فى حفل أقيم لتكريمه ببرلين يوم ٢٤ يناير ١٩٢٥ فيقول فيما يقول :

« فى سورية مثلا أقلية تزعم أنها ليست من أصل عربى ، مع أن هذه الفئة ان كانت من دم غير عربى فهى من دم شقيق للدم العربى ، فان كانت من سلالة الآراميين فالآراميون ساميون وهم اخوان العرب ، وان كانت من سلائل الفينيقيين والكنعانيين فالفينيقيون والكنعانيون أصلهم من العرب ، وآثارهم باقية بجزيرة العرب على شواطىء البحر الأحمر وسواحل خليج العجم ، وان كانت من أعقاب العمالقة والنبط فهؤلاء كلهم عرب »[2] .

ثم يقول : « كذلك شمالى أفريقية من برقة الى السوس الأقصى بلاد فيها عرب وبربر ، وقد تحقق أن قسما كبيرا من البربر هم ساميون ، من أصل فينيقى ، ولا يخفى أن قرطاجنة هى معمورة فينيقية بناها أهل صور ، وعلى فرض لم يكن كل البربر فينيقيين ، أو لم يصح كونهم حيموريين كما يزعمون ، فقد استعربوا الآن ، وصارت ثقافتهم عربية تامة ، كما أن ثقافة مصر وسورية هى أيضا عربية خالصة » .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ٨٦ .
(٢) الشورى ، ٥ مارس ١٩٢٥ .

ثم ينتهى الى قوله : « فأنتم ترون أن هذا العالم العربى كله ذو منزع واحد ، ولغة واحدة ، وغاية واحدة ، ولهذا فالطبيعة ستسير به قهرا وقسرا الى الوحدة ، وهذه الممالك التى قد مزقها الأوربيون المستعمرون أجزاء من السينغال الى الموصل ستعود مملكة واحدة كما كانت فى عهد الخلافة العباسية » (١) .

وهكذا كان شكيب من الأوائل الذين سبقوا فى العصر الحديث الى تصور الوطن العربى على حقيقته ، ممتدا من الخليج العربى الى المحيط الأطلسى (٢) . وهو القائل : « ان العرب الذين فى العالم لا يقدر أن يبتلعهم أحد ، والمستقبل هو لهم ، لأن المستقبل هو للأمم الكثيرة العدد ، والعرب سبعون مليونا ، متصلون بعضهم ببعض من السوس الأقصى الى الأهواز ، ومن حلب الى الخرطوم ، ووراء العرب مائتان وخمسون مليون مسلم من أمم أخرى ينتصرون للعرب » (٣) .

ولعله مما يتصل بهذا التصور أن يطالب شكيب بلواء « الاسكندرونة » ، ويقرر أن « اسكندرونة » عربية سورية لا حق للأتراك فى أخذها . ويبلغ شكيب فى سنة ١٩٣٧ أن توفيق رشدى أوراس وزير خارجية تركية زعم أمام عصبة الأمم أن السبب فى مطالبة تركية باسكندرونة هو أن من عادة العرب أن يخضعوا للترك ، وأنه ليس من عادة الترك أن يخضعوا للعرب ! .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) انظر ذكرى الأمير ، ص ٣٥ .
(٣) الشورى ، ٣٠ سبتمبر ١٩٢٦ .

يبلغ شكيب هذا الزعم فيغضب ويقول : « ان ثبت أنه قال هذا فيكون قد كذب كذبا فاضحا ، فان الترك قد خضعوا للعرب قرونا متطاولة ، ولقد كان العرب والترك أمة واحدة تقريبا قبل أن تنجم هـــذه الفئة الضالة » [1] . يقصد طائفة الكماليين فى تركية .

* * *

وشكيب مولع بتمجيد العرب والعروبة ، فهو يقول مثـــلا : « لا جدال فى كون الأمة العربية التى تتحفز لتنباع[2] ، وتستوفز لتمد طائل الباع ، لم تكن لتحدث نفسها بالنهوض الذى جعلته نصب نواظرها ، والاتحاد الذى سيرته شغل خواطرها ، لو لم تكن رقت من رئاسة الممالك فيما غبر هاتيك الدرجات العالية ، وطالعت من تاريخها تلك الصفحات المتلالية ، فجعلت الحاضر منها يخجل أن يقصر عن شأو الغابر ، ويستطار أن يعلم أباه سيدا فى الأوائل وهو عبد فى الأواخر ، فكان اذن تاريخ العرب هو عمدة العرب فيما يطمحون اليه من معال ، ووسيلتهم فيما يندفعون الى تحقيقه من آمال » [3] .

ويعنى شكيب بايراد ما رآه محققو الافرنج من قدم مدنية العرب ، ويقرر أن المدنية العربية قد ارتفعت الى درجة عليا فى عصور واغلة فى القدم ، وأنه قد ثبت ذلك بالكتابات الحجرية التى

---

(١) مجلة الشباب ، عدد ١٧ فبراير ١٩٣٧ .
(٢) تنباع : تمتد وتبسط . وتستوفز : تنتصب .
(٣) تاريخ غزوات العرب ، ص ٤ .

أيدت أقوال المؤرخين ، كما أن أقوال المؤرخين قد أيدتها [1] .

وحينما يتوقع شكيب أن تكون ثقافة العرب المستقبلة ثقافة عصرية آخذة من التجدد بأوفى نصيب ، مع الاحتفاظ التام بالطابع العربى ، يستأنس لذلك بما سبق للثقافة العربية فى زمن العباسيين بالمشرق ، والأمويين بالمغرب ، حينما فتح العرب الناهضون صدورهم لحكمة اليونان وعلوم فارس وحكمة الهند ، وجمعوا بين هذه الثقافات الثلاث ، وأحسنوا مزجها بالثقافة العربية ، وأخرجوا منها ثقافة جديدة عالية ، كانت أرقى الثقافات فى العصور الوسطى ، محتفظة بطابعها العربى لا يفارقها فى حال من الأحوال ، ثم يقول : « وهكذا ستكون ثقافة العرب بعد اليوم غير جامدة على القديم الذى ثبت للعرب المحدثين وجوب التعديل فيه والاضافة اليه ، ولن تكون منسلخة من القديم جاحدة فى التبرؤ منه على النحو الذى نحاه الأتراك الكماليون الغالبون على تركية اليوم ، بل ستكون ثقافة جامعة بين القديم والجديد » [2] .

وشكيب يصر على أن الثقافة العربية ثقافة أصيلة ، وأن الذين يعتبرون العرب نقلة مقلدين لليونان والفرس والهند هم الشعوبية أعداء الأمة العربية ، وأن هناك من يؤمن بأن مدنية العرب أصيلة ، ذات طابع عربى خاص بها ، وانما أخذ العرب عن غيرهم ما كملوا به ثقافتهم ، كشأن سائر الأمم فى أخذ بعضها عن بعض ، ويقرر

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ٨٥ .

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى، مجلد ١٥ ص ٤٤٢ سنة ١٩٣٧ .

شكيب أن هذا هو مذهب أهل الجد الذين يقصدون الحقيقة لذاتها .

ثم يذكر أن هناك من توسط ، فلا هو أفرط فى الاعجاب بالعرب ، ولا هو فرط فى اعطائهم حقهم ، وهذا هو مذهب جمهور الأوربيين الذين كان للسياسة دخل فى آرائهم ، فلم يشاءوا أن يغمطوا العرب كل حقوقهم ، حتى لا يقال عنهم انهم مكابرون ، ولكنهم ينقصون من الحسنات ولا يتحمسون لوصفها ، واذا عثروا على السيئة رحبوا بها وأوسعوا فيها [1] .

ولكى يكمل شكيب الصورة الكبيرة التى يريدها لأصالة الثقافة العربية نراه حريصا على تمجيد سبق العرب فى أكثر من ميدان من ميادين العلوم والفنون ، فهو يتحدث عن ابن خلدون وتأليفه فى فلسفة التاريخ ، ويذكر من تقدمه ممن تحدث فى مثل هذا ثم يقول : « ولكن ليس من هؤلاء واحد ، لا أفلاطون ولا أرسطو ولا الفارابى يعد واضعا لعلم فلسفة التاريخ الذى هو حق ولى الدين أبى زيد عبد الرحمن بن خلدون مفخرة العرب بل مفخرة الاسلام كله » [2] .

واذا كان « داروين » قد فاخر بمذهبه الدائر حول أصل الأنواع وطريقة الانتخاب الطبيعى ، فان شكيب يرى أن العرب قد « أشاروا الى مبادىء هذا المذهب » فابن خلدون يذكر أن أرقى أفق فى الجماد متصل بأدنى أفق من النبات ، وأرقى أفق

(١) انظر مجلة المجمع العلمى العربى ، مجلد ٢٧ ص ٣٠٩ .
(٢) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص (ن) .

من النبات مختلط بأدنى أفق من الحيوان ، مما يؤدى الى كون المخلوقات سلسلة »[1] .

والعرب — كما يقرر شكيب — قد سبقوا الى معرفة ناموس الجاذبية وحركة الأرض « فلا يكون حكماء العرب بقوا أجانب عن معرفة ناموس الجاذبية ، ولا عن حركة الأرض مما يتبجح الافرنج بكونه من تحقيقاتهم ، وان كان نيوتن قد عرف الجاذبية بدون اطلاع على كلامهم فيكون من باب توارد الخواطر »[2] .

ويقول أناتول فرانس : « كان يقال سارق لمن يسرق ولا يحسن السرقة » فيسارع شكيب بتعقبه قائلا : « العرب من قبل أناتول فرانس قالوا : من استرق شيئا وقد استرقه فقد استحقه » ! [3] .

ويقول أناتول : « العقل هو الذى يحول بين المرء والسعادة » فيسارع شكيب بالتعقيب عليه بأن المتنبى الشاعر العربى المعروف قد سبقه الى هذا بقوله :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله
وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم [4]

ويقول الماريشال فوش : « ان الغالب هو الذى يعتقد أنه الغالب ... ان المعركة هى الصراع بين ارادتين ، فالانتصار هو تفوق

---

(١) أناتول فرانس فى مباذله ، هامش ص ٧٢ .
(٢) مجلة المقتبس ، المجلد الثامن ، ص ٥٦٩ .
(٣) أناتول فرانس فى مباذله ، ص ٥٥ ولماذا تأخر المسلمون ، ص ٨٠ .
(٤) أناتول فرانس فى مباذله ، ص ٧٩ .

أدبى عند الغالب » ، فيسارع شكيب الى أن هذا الكلام يذكر بقول على بن أبى طالب عندما سئل : لماذا لا يبارزه أحد الا قتله ؟ . فقال على : « كنت أحمل على الفارس فأعتقد أنى أنا قاتله ، ويعتقد هو أيضا أنى قاتله : فنصير أنا وهو عليه ، وبهذا كان يتم لى ما تقولون » ! .

ثم يعلق شكيب بقوله : « وهو عين ما كان يقوله فوش من أن الغالب هو من اعتقد أنه الغالب ؛ الا أن كلام سيدنا على أعلى وأبلغ ، وأنى لفوش وغير فوش أن يؤدى مرامه بالقالب الذى كان يؤدى به أمير المؤمنين الذى كان لا يجارى لا فى قول ولا فى فعل » ؟ [1] .

ولكنى عجبت لموقف كان يمكن لشكيب أن يصول فيه متغنيا بسبق العرب فى مجال الأدب ، ولكنه لم يفعل ، فقد تعرض لترجمة دانتى شاعر ايطالية المتوفى سنة ١٣٢١ [2] ، وذكر فى الترجمة كتابه (الكوميدية الالهية) ولم يشر الى ما يذهب اليه الكثيرون من أن دانتى تأثر فى كتابه بأبى العلاء المعرى فى كتابه المشهور « رسالة الغفران » . . ولكن جلّ من لا يسهو .

ولقد تأمل شكيب فى عظمة المحيط الأطلنطى ، وأخذ يفكر فى جرأة الأوربيين على اقتحام الأخطار ، والتطوح فى الأسفار ، وكيف نرى سفنهم فى هذا المحيط ذاهبة آيبة كأنها زوارق فى

---

(١) الشورى ، عدد ١٥ مايو ١٩٢٩ .

(٢) أناتول فرانس فى مباذله ، ص ٧٥ .

ميناء ، ولكن شكيب سرعان ما تذكر « أن العرب كانوا أشد جرأة واقداما عندما عمدوا الى اختراق بحر الظلمات من أشبونة فى سفينة شراعية سارت بهم نحو شهرين بين سماء وماء » ! .

وكأنما أحس شكيب حينئذ بنشوة الفخر ، ولكنه عاد بسرعة يقارن بين ماضى العرب وحاضرهم ، فاذا الفرق شاسع والبون بعيد ، فتساءل عن تلك الهمم العربية البعيدة المدى : أين ولت ؟ وأين غابت ؟ [1] .

ان أقدام العرب — كما يذكر شكيب — ما كادت ترسخ فى أفريقية حتى فكروا فى عبور بحر الزقاق الفاصل بين أفريقية وأوروبة ، وكان ذلك سنة ٧١٠ م ، وكان الأمير على أفريقية من جهة الخليفة هو موسى بن نصير المولود بالحجاز فى عهد عمر بن الخطاب ، والذى رضع مع لبن المهد رحيق الغرام بالغزو حبا فى نشر عقيدة التوحيد ، وكان عمره حين هذه الغزوات ثمانين سنة ، ولكن هذه السنوات لم تخمد عزيمته ولم تضعف همته ، فقد « كانت فيه همة الشبان تتوقد نارها لم يفتر منها شيء » [2] .

وهذه أوربة تستعمر الشرق وتحتله ردحا طويلا من الزمن ، وتمتص ما فيه من دماء ، وتستنزف ما فيه من خيرات ، وتجعل الشرق بحيلها ومكائدها الشيطانية يفقد ثقته بنفسه ، حتى يخيل

---

(١) الشورى ، عدد ٣ فبراير ١٩٢٧ .

(٢) تاريخ غزوات العرب ، ص ٢٨ نقلا عن رينو الفرنسى .

الى أبنائه فى فترات الزلزلة والبلبلة أن الله ما خلقهم الا ليكونوا تابعين محكومين ، وما خلق الأوربى الا ليكون فاتحا سيدا مستبدا ، ولكن أبناء العرب لو درسوا تاريخهم حق الدراسة لعرفوا أن أجدادهم حكموا هؤلاء الأوربيين فترة طويلة بالعدل والقسطاس ، وأن أجدادهم فتحوا الكثير من بلاد أوربة وسيطروا عليها .

ولكن فتوح العرب فى القارة الأوربية مخبوءة عن أعين الناشئة من العرب وأسماعهم ، ولذلك يقول شكيب : « فان هذا الدور من أدوارهم يكاد يكون عند أبنائهم مجهولا ، بل ان كثيرا من ناشئتهم لا يعرفون عنه كثيرا ولا قليلا ، والحال أنه من أقعس فتوحاتهم مجدا ، وأوعر مغازيهم غورا ونجدا ، وأدل أعمالهم على ما أوتوه من علو الهمم ومضاء العزائم ، وما كان غالبا على أخلاقهم يومئذ من احتقار الطوائح واستصغار العظائم » (١) .

ولذلك يعقد شكيب عزمه على أن يؤلف كتابا يجعل عنوانه : « الخبيئة المنسية فى مقام العرب بجبال الألب والبلاد الأفرنسية » ، ليكون هذا الكتاب جزءا من أجزاء كتابه « الحلل السندسية فى الرحلة الأندلسية » (٢) .

ولا يطيق شكيب أن يسكت على صديق أو غير صديق يحاول التهوين من شأن العرب ولو بطريق غير مباشر ، ولو فى مجال

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥ . والطوائح : المقاذف . ويقال طوحه : أى حمله على ركوب الأخطار .

(٢) المصدر السابق .

من مجالات الخيال والعبارة الشعرية التى لا تلتزم حدود العبارة العلمية ، فهذا أمير الشعراء أحمد شوقى ، صديق شكيب الحميم ، يتحدث فى عهده العثمانى عن حروب الترك وعظمتها ، فيقول فيما يقول :

ونادت فلبّى الخيل من كل جانب
ولبى عليها القسور المترقبُ
خفافا الى الداعى سراعا ، كأنما
من الحرب داع للصلاة مثوِّبُ
منيفين من حول اللواء كأنهم
له معقل فوق المعاقل أغلب
وما هى الا دعوة واجابة
ان التحمت والحرب بكر وتغلب
فأبصرت مالم تبصرا من مشاهد
ولا شهدت يوما معدٌّ ويعرب ! (١)

فهل يسكت شكيب لأن قائل هذا صديق حميم ؟ وكيف وقد فضّل الشاعر حروب الترك فى عظمتها على حروب العرب : حروب معد ويعرب ؟ ! .

وكان شكيب يعرض لهذه الأبيات فى كتابه : « شوقى أو صداقة أربعين سنة » . وهو كتاب وضعه لتخليد ذكرى الشاعر الكبير ، فالمقام مقام وفاء واحتفاء .

---

(١) القسور : الأسد · والمثوب : الداعى الى الصلاة ، أو المثنى للدعاء · ومنيفين : محيطين ·

فليكن .. ان مقام العرب أجل وأعظم .

ومضى شكيب يعلق على أبيات شوقى فيقول :

« هنا جاشت الفكرة برأس شوقى فذهبت به الى أبعد حدود المبالغة ، فلا نزاع فى الترك ، اذا ذكرت الشجاعة والصبر على الحروب كانوا فى الذروة العليا التى ينحط عنها السيل ، ولكن القول بأن مشاهدهم لم تشهدها معد ويعرب فيه نظر .

ولعمرى ان معدا ويعرب عندما فاضت جموعها على بلاد الله كانت تقاتل فى ساحات لا يحصيها العدد ، فبينما جيوشها تحاصر القسطنطينية كانت جيوش أخرى تفتح أسبانية وجنوبى فرنسة ، وأخرى تقاتل أمة البربر العاصية ، وأخرى تتوغل فى أفريقية ، وجحافل تغزو الهند ، وفيالق تغزو الخزر ، وجيوش فيما وراء النهر تغزو الأتراك فى عقر ديارهم .

وكل ذلك فى وقت واحد ، لا تلهيهم حرب عن حرب ، ولا تشغلهم ساحة قتال عن ساحة قتال ، وكانت حرب الترك ساحة واحدة من تلك الساحات الكثيرة ، يستقل بها قائد مثل قتيبة بن مسلم الباهلى ، تجتمع عليه الترك من كل حدب ، فيوالى عليها الهزائم ، ويقودها بالخزائم ، وهو فى قلة بالقياس الى أمم الترك التى اجتمعت عليه من كل صوب ، وما زال يثخن فيها حتى ضرب عليها الذلة والمسكنة الى حدود الصين ، ولاذت أخيرا من بأسه بالاسلام ودانت به ، فكان من ذلك الوقت مبدأ دخول الترك فى الدين العربى ، فصاروا فيما بعد آحمى حماته وأمضى سيوفه .

ولكن لا يقال ان أمة من الأمم تقدر آن تبذ العرب فى ميادين

القتال اذا كانت العرب مجتمعة على قلب واحد ، وما أتى العرب الا من تقطع ما بينهم ، وصعوبة مقادتهم لرئيس واحد » [1] .

وليس هذا هو الموطن الوحيد الذى دافع فيه شكيب عن بطولة العرب أمام بطولة الترك ، بل نراه فى موطن آخر يقول :

« وقد كان مضاء العرب فى فتح خراسان وما وراء النهر من أبدع ما جاء فى التواريخ ، ومما يدل على أن العرب اذا استقام أمرهم لم يقف فى وجههم قبيل ، فان الترك الذين تغلب العرب عليهم مشهورون بشدة البأس وقوة المراس ، وقد حشدوا للعرب من كل حدب فما نالوا منهم نيلا ، وتغلب العرب عليهم فى أوساط بلادهم وأثخنوا فيهم ، ولم يكفوا عنهم حتى دخلوا فى الاسلام ، فكان الاسلام هو الذى أنجاهم فى الدنيا فضلا عن الآخرة » [2] .

ونطاق الاعتزاز بالعرب عند شكيب نطاق واسع يشمل الأمة العربية كلها فى غالب الأحيان ، ولكنه فى بعض الأحيان يضيّق هذا النطاق ، حتى نراه يفخر بقومه فى اقليمه ، كأن نراه يتغنى بمجد سورية وأبنائها فى القديم فيقول :

« ان سورية فى زمن العرب فتحت جميع بلاد شمالى افريقية ، واجتازت منها الى أوربة واستولت على اسبانية ثمانمائة سنة ، وأطلقت على كثير من مدنها أسماء مدن سورية مثل دمشق وحمص وغيرهما ، واستولت على جنوبى فرنسة أكثر من مائتى

---

(1) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٢٢٢ .

(2) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ٩٢ .

سنة ، وعلى سويسرة ٩٥ سنة ، وعلى جانب عظيم من ايطالية » .

وهو يقصد هنا الأمويين السوريين الذين قاموا بهذه الفتوح فى القديم ، وقد يكون السبب فى هذه المفاخرة العربية الاقليمية هو أنه بسبيل الدفاع عن سورية والمطالبة بحقها فى الحرية والاستقلال ، بدليل أنه يقول عقب ذلك : « وان أمة كهذه سبقت لها هذه الفتوحات ، وكانت فتوحاتها العسكرية دائما مرافقة للمدنية والآثار العمرانية الباهرة لهى أمة جديرة بالاستقلال »[1].

بل أكاد أذهب الى أنه من الأسباب التى دفعت بشكيب الى التوسع فى دراسة تاريخ الأندلس أنه أراد أن يتتبع مفاخر أجداده الأمويين السوريين ، وليس هذا بضائر لشكيب فى كثير ، فما ثمة عاب اذا فخر المرء بوطنه الأدنى اذا لم يتعارض هذا مع اعتزازه بوطنه الأعلى ، وحب الوطن له مدارجه ، فالانسان يحب بيته ، ويحب قريته ، ويحب اقليمه ، ويحب دولته وأمته ، وهكذا ..

ومن هنا يبذل شكيب الجهود وراء الجهود ، ويقوم بالرحلات تليها الرحلات متتبعا آثار العرب فى الشرق والغرب ، وبخاصة آثارهم فى الأندلس وأوروبة ، وحينما ركب القطار الحديدى من باريس الى تولوز (طلوزة) فى أثناء رحلته الى أسبانية ودعه فى المحطة جمهور من شبان العرب ، وهتفوا : فليحيى العرب . فسر شكيب من هذا الهتاف ولم ينس أن يسجله فى كتابته [2] .

---

(١) انظر تاريخ غزوات العرب ، من ص ٢٧٦ الى ص ٢٨٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١ .

وهو فى أكثر الأحيان يستعمل كلمة « العرب » ويريد بهـا المسلمين [1] ، لايمانه بأن الأمة العربية هى عماد الأمة الاسلامية .

ويسمع شكيب بشخص اسمه ، ABAUZIT وهو عالم علامة فيلسوف من أهل جنيف فيذهب يستقصى أخبار هذا الشخص حتى يرده عربيا من سلالة العرب ، بينما يحسبه الناس جميعا أوربيا من سلالة أوربيين ، فنراه فى كتابه « تاريخ غزوات العرب » يقول :

« ومن أشهر من انتسب الى أصل عربى فى جنيف العـالم العلامة الفيلسوف ابن أبى زيد ، وكان أهل سويسرة يقولون له أبو زيت ABAUZIT ، وأصله عربى من سكان طولوز ، وكان أهله من العرب الذين تنصروا ، ثم اتخذوا مذهب البروتستانت ، فلما صدر أمر لويس الرابع عشر باخراج كل البروتستانتيين من فرنسة ، خرج أبو زيد هذا مع من خرجوا الى جنيف ، ثم نشأ فيها ، ونبغ فى جميع العلوم الرياضية والطبيعية والفلك والفلسفة والتاريخ وغيرها .

وكان معاصرا لفولتير وروسو ونيوطن فى انكلترة ، وصديقا لهم جميعا ، وكانت له عندهم المكانة العليا ، وربما استفتوه فى عويص المسائل العلمية . وقد ذكرت جريدة جورنال دى جنيف احدى المرار ان فولتير استفتاه فى مسائل غاب عنه علمها ، ومر بفولتير صاحب له قاصدا الى جنيف ، فسأله فولتير ، ما شغلك

---

(١) انظر مثلا جريدة الشورى ، السنة السادسة ، العدد ٢٨٢ والعدد ٢٩٢ .

فى هذه البلدة ؟ وكان فولتير ساكنا فى ضواحي جنيف كما لا يخفى بقرية فرناى .

فقال له صاحبه : أريد الاجتماع بعالم كبير . فقال له : اذن تريد أن تجتمع بصاحبنا العربى .

وأما جان جاك روسو فبينه وبين أبى زيد مراسلات مجموعة فى كتاب ، وكان هذا العلامة العربى زاهدا عظيم التواضع معرضا عن الدنيا ، عرضوا عليه فى جنيف أعلى المناصب فرفضها ، واقتصر على وظيفة قيم لخزانة الكتب العمومية .

وفى جنيف اليوم شارع مشهور باسم شارع أبى زيد ، وكان سلف أبى زيد هذا أطباء فى طولوز ، وقد كتب محرر هــذه السطور عن أبى زيد العربى الجنيفى منذ بضع سنوات مقالة فى الجرائد العربية لخصناها عن الجرائد السويسرية ، وربما نعود الى موضوعه بعد التوسع فى معرفة حياته » [1] .

ويشير شكيب بهذا الى مقالة له نشرها افتتاحية من افتتاحيات « الشورى » وجعل عنوانها « أبو زيد العربى يستفتيه فولتير » وفيها يشــير الى ما نشرته جريدة جورنال دى جنيف بتاريخ ٢٣ فبراير ١٩٢٨ عن شخص اسمه فيرمن أبو زيت ، وقد ولد فى أوزيس UZES فى جنوبى فرنسة ، وأنه من سلالة طبيب عربى كان فى طولوز ، وأن أبا زيد أرسلته أمه سنة ١٦٨٩ الى جنيف ليتعلم فبرع ، ورحل الى انكلترة وهولاندة وألمانية ، وعاد الى

---

(١) تاريخ غزوات العرب ، ص ٢٢٨ .

جنيڤ ينشر العلم بلا أجر ، وكان محيطا بجميع معارف عصره ، وكان يتفق على محبته وحرمته جان جاك روسو وفولتير ، وكان فولتير يصفه بأنه أعلم علماء أوربة ، وكان يستفتيه فى أمور علمية دقيقة ، ذكر شكيب بعضها نقلا عن الجريدة .

ويقول شكيب ان كلمة « أبو زيت » محرفة عن أبى زيد ، لأن التاء تبدل من الدال وبالعكس ، وانما انكسرت الزاى فى اللفظ الفرنسى لأن المغاربة يكسرون فاء (فَعل) مثل : زيد وزيت وجيش ، ولفظ الأندليسيين قريب من لفظ المغاربة .

ثم يقول شكيب : « قد أخرجنا من ظلمات التاريخ عبقريا عربيا [1] بلغ من احاطته بالعلوم أن كان يستفتيه مثل ڤولتير ، ويتفق هو وخصمه جان جاك روسو على الاعجاب به ، ويقول له اسحق نيوطن : مثلك يصح أن يكون حكما بينى وبين لبتز ؛ وما أدراك من لبتز ؟ هو فى الألمان كنيوطن فى الانجليز .

وكما أن تحت الأرض من الكنوز والمعادن ما يفوق كل تقدير ، فان فى جوف التاريخ العربى كنوزاً لا يعرفها الا المنقبون ، ولو نفر من أدباء العرب فئة تذهب الى أسبانية ، والى جنوبى فرنسة ، والى ايطالية ، والى صقلية ، والى سردانية . والى كورسكة ، والى ما جورقة ومينورقة ويابسة والى البرتغال ، بل الى سويسرة

---

(١) من مظاهر عناية شكيب بالعروبة والقومية العربية أنه حين يتحدث عن « مسلمى الأندلس » فى كتاب حاضر العالم الاسلامى (ج ٢ ص ١) يعنى بتتبع الأسر الأسبانيولية التى تنتمى الى أصل عربى ، ويعددها ، ويتحدث عن الأسماء العربية الموجودة فى سويسرة وفرنسة .

هـذه التى أنا نزيلها الآن لعثروا بين الآثار الخطية والحجرية والأخبار التى يتناقلها الأهالى خلفا عن سلف ، على كنوز تاريخية ولآلىء يتيمة ، يترصع بها تاج المملكة العربية .

فهل يأتى يوم تبلغ فيه نهضة العرب أن ينتدب فئة من أدبائهم للتنقيب عن مآثر أجدادهم فى الأصقاع الأوربية ، وانتجاش ما لا يزال منها كامنا ، واستخراج ما لا يزال مدفونا ؟ الجواب عن هذا عائد الى المستقبل ، والأرجح أنه سيكون بحول محيى العظام وهى رميم » [1] .

وبسبب هذه الغيرة القومية العربية من شكيب كان دائما يناشد الدول العربية والمجالس العلمية ووزارات المعارف فيها ، أن تعمل يدا واحدة على جمع النفائس العربية المتناثرة فى مختلف خزائن أوربة ومتاحفها ومكاتبها ، فان هذه المخطوطات والكتب والمعاجم التى توجد فى خزائن استنبول وألمانية وباريس ولندن والنمسة والبلقان تؤلف ثروة الأمة العربية الأدبية [2] .

وما يكاد شكيب يطلع على كتاب لمؤلف فرنسى اسمه « غروسة » يتحدث فيه عن المدنية العربية حتى يطير به شكيب فرحا ، ويقول عنه فى كتابه « الارتسامات اللطاف » :

« ولابد من أن نجعل فى البحث نصيبا لهذا الكتاب ، لأنه رفع فيه راية بيضاء للعرب ، وفسح لهم مكانا فسيحا عاليا من تأليفه ،

(١) الشورى ، عدد ٢٦ ابريل ١٩٢٨ . وانتجـاش : اثارة . والرميم : البالى .
(٢) ذكرى الأمير شكيب ، ص ٨ .

يفقأ الحصرم فى أعين الشعوبية المحدثين » [1] . وهو يقصد بهؤلاء نفرا كانوا على عهده يحاولون أن يغمطوا من فضل العرب ، وأن يغضوا من قدر حضارتهم ، وأن ينطحوا صخرة مجدهم !! .

وشكيب يكاد يفضل العرب فى كل شىء حتى فيما يسميه بعض الناس بالشكليات ، يسأله سائل : أترى اللباس الشرقى (العربى) أحسن أم اللباس الغربى ؟ فيجيبه : أترى أنت الدار الواسعة أحسن أم الضيقة ؟ . قال السائل : بل الواسعة . قال شكيب : اذاً اللباس الشرقى (العربى) هو الأحسن ، لأن اللباس هو مسكن الجسم [2] .

ويرى شكيب أن الزى العربى ليس كما يزعم الجهلاء علامة تأخر أو تخلف ، بل ينبغى أن نشيد بالعربى الذى يحافظ على تقاليد قومه ، ولذلك يتحدث عن زيارة أحد الأمراء العرب لأوربة بزيه العربى ، وكيف أثنى الناس عليه ، وأعجب الأوربيون به ، ثم يقول : « اذاً الزى العربى والعقال والكوفية والعباءة ليس شىء منه يسمج فى نظر الأوربيين ساسة المدنية الحديثة ، والذين يزعمون أن الافرنج لا يحترمون الا الذين يلبسون البرنيطة والجاكت والبنطلون انما يكذبون ، لا أكثر ولا أقل » [3] .

ومما يدل على اعتزاز شكيب بمقومات القومية وتقاليد الأمة

---

(1) الارتسامات اللطاف ، ص ٧٠ . والحصرم : الثمر قبل النضج ، وأول العنب مادام أخضر .

(2) الشورى ، عدد ٢ يوليه ١٩٣٠ .

(3) مجلة الفتح ، عدد ٢٧ المحرم ١٣٥١ هـ .

— ما جل منها أو دق — أنه يكتب فى سنة ١٩٢٦ مقالا بعنوان : « اللباس الصحى والغطاء الصحى للرأس » يعلق فيه على قرار للجمعية الطبية المصرية بأن الطربوش لباس غير صحى ، وأن القبعة أحسن لوقايتها من تأثير الحرارة .

وشكيب لا ينظر الى المسألة هنا من ناحية الصحة ، بل من ناحية الغيرة القومية حسب موحياتها حين كتب ما كتب ، فنراه بعد أن ينقد القرار يقول :

« ان كان المقصود الوقاية من حرارة الشمس فماذا يقولون فى العمامة البيضاء التى تمنع أشعة الشمس من أن تخرق الغطاء الى الرأس ، سواء بكثرة طياتها أو ببياض لونها ؟ ألا يحسبون لهذه العمامة تأثيرا فى الوقاية من الشمس لمجرد كونها عمامة أم يعترف لها علم الطب بذلك ؟ وهل الكوفية والعقال فى السفر أقل تأثيرا من البرنيطة فى دفع حرارة الشمس ؟ .

لا ينبغى أن ينظر فى لباس الرأس الى قضية الحرارة فقط ، بل هناك جهات أخرى تجب مراعاتها ، فمن تلك الجهات أن العمامة تقى الرأس شدة الصدمات ، وتخفف عنه تأثير الضربات . وهل فى البرنيطة الافرنجية جزء من الوقاية التى تكفلها العمامة من هذا القبيل » ؟ .

ثم يبين شكيب عيوبا للقبعة وفوائد العمامة ، ثم ينتقل الى المهم وهو سوء تقليد الشرق للغرب بلا تمييز ، ويذكر أن الغربيين يشربون الخمر ، ويلعبون القمار ، ويرقص رجالهم مع النساء الى منتصف الليل ، فهل يراد لنا أيضا أن نقلدهم فى ذلك ؟ . ويقرر

شكيب أن بعض عاداتنا أصلح للصحة وأحسن من عاداتهم ، ومع ذلك لا يقلدوننا ، ثم يقول :

« ان الشرقى ينبغى له أن يبقى شرقيا ، وأن يحتفظ بعاداته وأذواقه وأزيائه ، وكل ما يبعده عن الذوبان فى غيره ، الا اذا صادم ذلك مصلحة متحتمة ، أو علما ثابتا ، ولسنا نرى شيئا من هـذا التصادم فى هذه المسألة .

وما نرى فى مسألة القبعة الا تفرنجا تهتف به نفوس مريضة تزعم التجدد ، وهى فى الحقيقة لا ترى التجدد الا متابعة الافرنج فى كل ما يفعلونه : حقا كان أم باطلا ، ضارا كان أم نافعا ، ونحن نفهم بالتجدد أخذ العلوم والصناعات والاطلاع على كل الحقائق الكونية مما لا يزال يتجدد بتمادى الأيام [1] » .

ويمضى شكيب فى مناصرته لتقاليد الشرق والعرب والمسلمين فيتحدث عن بعض الشرقيين الذين خلعوا الطربوش على عهده ولبسوا القبعة ، ثم يشير الى جمعية « شراين » SHRINE فى أمريكة — ومعناها الكعبة أو المكان المقدس الذى يحج اليه — وأن لهـا محافل كثيرة ، والمحفـل عندهم يسمى : MOSQUE أى الجامع ، والمريد يسمى « الشريف » ، وعندهم لقب آخـر هو « الحاج » ، ويسمون محافل الجمعية بأسماء عربية مثل : السلام ، والملائكة ، وعنترة ، ودمشق ، وبغـداد ، ومصر ، والمدينة ، وفلسطين ، والناصرة .

---

(١) الشورى ، ٢٦ أغسطس ١٩٢٦ .

وهذه الألفاظ يلفظونها بالعربى ، وللجمعية محفل فى بنسلفانية مكتوب عليه « أشهد أن لا اله الا الله » ، وتحية الأعضاء هى « السلام عليكم » ، ولا يجوز للداخل أن يدخل المحفل الا بالطربوش .

ثم يقول : « قصدت بهذه المقالة أن يعلم من فى الشرق أن الطربوش والعمامة والجبة واللغة العربية والآى القرآنية والأزياء الشرقية يتنافس بها المتنافسون فى أكمل وأغنى مراكز المدنية الغربية ، بينما كثيرون من الشرقيين يحقرونها ، وينفضون أيديهم منها ، ومن يضلل الله فما له من هاد » (١) .

ومن مظاهر حرص شكيب على قوميته العربية أنه « كان يخطب دائما بالعربية فى رحلته الى أمريكة » (٢) مع أنه كان يستطيع أن يخطب بالفرنسية ، فهو يجيدها ، وهى فى الوقت نفسه لغة عالمية .

وكان شكيب يضيق بالشعوبية وأهلها ، ويراها حركة تخريب لمدنية العرب ، وتوهين لعزائمهم ، وانكار لأفضالهم ، ويقول ان لكل عصر شعوبية ، وان شعوبية هذا العصر هم هذا النفر من الأدباء الذين يهاجمون العرب والعروبة ، « لا تمر بهم فرصة ينتقصون فيها فضل العرب ، ويغضون من منزلتهم فى التاريخ ، وينحتون من أثلة مدنيتهم الشهيرة الا توردوها مبتهجين ، ولا يرون

---

(١) الشورى ، ٣١ مارس ١٩٢٧ .

(٢) الشورى ، ١٧ مارس ١٩٢٧ .

للعرب عورة من العورات الا تهافتوا على اظهارها تهافت الذباب على الحلواء »[1] .

وشكيب لا يريد بدفاعه عن قومه العرب أن يزعم لهم أمجادا مكذوبة ، أو يدعى لهم ما ليس بحقيقة ، بل هو يتقيد فى تمجيدهم بالحق والواقع ، ويحارب الادعاء الباطل عليهم ، ولذلك يعود شكيب ليقول : « وليس من عربى عاقل يحب أن ينحل العرب ذرة مما لم يعملوه ، ولا أن يمدحهم بالكذب ، ولكن ليس من عربى عاقل يرضى بأن فئة مريضة من أهل هذا الزمان تهجم على مدنية العرب التى اتفق على عظمتها المشرق والمغرب ، وتحاول أن تحط من قدرها ، وأن تطفىء من نورها بأفواهها ، زاعمة أنها انما تتحرى حقيقة وتثبت واقعا »[2] .

ويقال فى الحديث عن شكيب أرسلان انه كان « عثمانيا » فى شبابه ، وكان مواليا لحكم الأتراك ، وكان يؤيد الخلافة ويدافع عنها ، ولم يرتض انضمام العرب الى الحلفاء ضد تركية فى الحرب العالمية الأولى . وهذا صحيح .

ولكن الأمير كان يعتز بعثمانيته لأنها كانت تعبر عن اسلاميته ، وكان يرى فى دولة الخلافة الدولة الذائدة عن الاسلام والمسلمين ، وفى طليعتهم العرب ، ومع هذا كان لا ينسى عروبته ، وها هو ذا يخاطب العثمانيين فى أثناء الحرب العالمية الأولى عندما

---

(١) مجلة الزهراء ، مجلد ٣ عدد جمادى الأولى ١٣٤٥ هـ والأثلة : شجرة . والأثلة : الأصل والحسب .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩٣ .

حاولت تركية اصلاح ذات البين بينها وبين العرب عقب حوادث أحمد جمال باشا ، فلا ينسى أن يذكر لنا الرابطة التى تربطه بالعثمانيين وهى رابطة الدين ، وشهادة أن لا اله الا الله ، وأن ينص على أنه ليست هناك « وحدة نسب » بين الترك والعرب ، وأنه يعتز بعثمان لأنه « حامى ملته » ، ولكنه لا ينسى الفخر بعروبته وآبائه العرب ، فيقول :

مهما يكن من هنـــات بيننا فلنــا
معكم على الدهر عهد غير منقضب
كفى « الشهادة » فيما بيننا نســبا
ان لم تكن جمعتنا وحــدة النسب
مجــدى بعثمان حامى ملتى ، وأنــا
لم أنس قحطان أصلى فى الورى وأبى[1]

واذا كان شكيب قد قال هنا ان العهد بين العرب والعثمانيين غير منقضب ولا منفصم ، فقد كان بهــذا يحسن الظن بالأيام وبالناس ، ولكنه لما تكشفت أمامه الحقائق وظهرت نوايا حكام الترك بعــد ذلك أدرك أن العروبة أقوى وأبقى فعاد يقــول فى سنة ١٩٢٩ : « ولكن العثمانية قد ذهبت ، وذهبت وحدتها ، وانطوى بساطها ، وأما العربية فلن تذهب ، ووحدتها لن تزال نشيدة آمال العرب »[2] .

ولكن شكيب لم يشترك فى الثورة العربية التى قامت ضد

(١) ديوان الأمير ، ص ١٢٩ .
(٢) الارتسامات اللطاف ، ص ٢٧٩ .

تركية سنة ١٩١٦ ، وأساء بها الظن وبنتائجها ، وأساء به الكثيرون الظن من جراء ذلك ، وشاركه فى الرأى الشيخ عبد العزيز جاويش ، ومحمد فريد ، وعبد الحميد سعيد وغيرهم ، ويوضح شكيب موقفه هنا ، ويدافع عن رأيه ، فيقول :

« لم يمنعنا من الاشتراك فى الثورة العربية سوى اعتقادنا أن هذه البلاد العربية ستصبح نهبا مقسما بين انجلترة وفرنسة ، وتكون فلسطين وطنا قوميا لليهود ، وهذا التكهن كان عندنا مجزوما به ، حتى انى كنت أقول قبل الحرب : لو ارتفع الغطاء ما ازددت يقينا ، ثم انتهت الحرب ، وانتصر الحلفاء ، وارتفع الغطاء ، فما حصل بالفعل شىء غير ما كنا نقول » .

ثم يشير الى أنه لو علم أن الثورة يومئذ تؤدى الى استقلال العرب لما سبقه أحد اليها ، ولكنه فضل الدولة العثمانية الشرقية الاسلامية على احتلال الافرنج الأعداء الغرباء .

ويذكر أن اعتقاده صيرورة البلاد العربية حينئذ الى احتلال الأجانب لها لم يكن مجرد حدس وتخمين وأخذ بالقرائن ، بل هو قد عرف تقسيم فرنسة وانجلترة لسورية وفلسطين سنة ١٩١٢ ، وأنه سيشرح هذا فى كتاب يسميه « البيان عما شهدته بالعيان » ، وأن هـذا التقسيم الأثيم اعترف به « المسـيو بوانكاريه » سنة ١٩١٢ ، وأنه كتب عن ذلك أثناء الحرب العالمية الأولى ، ويتمنى شكيب لو أن حدسه هنا خاب واستقلت البلاد العربية[1].

---

(١) الشورى ، عدد ١٠ ابريل ١٩٢٩ .

ولقد سلم الكثيرون بصواب رأى شكيب فى القضية العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، ومنهم من صارحه بهذا واعتذر اليه ، ومنهم من وضع يده فى يد شكيب ، ومنهم من اقتنع عمليا وان لم يعتذر بلسانه ، ويقول شكيب فى ذلك : « فلما انجلى الغبار وانكشفت الأسرار ، وعرفوا أنى ما تكهنت الا بما وقع عادوا فوضعوا أيديهم فى يدى وعولوا علىّ ، ومن هؤلاء الملك فيصل رحمه الله ، فانه ما سقط عن عرشه فى دمشق حتى أرسل الى بمكانى فى برلين رسالة تدل على منتهى الثقة ومزيد الاعتقاد باخلاصى للقضية العربية ، وأفضى الىّ بأسرار لا يفضى بها الى أعز الناس عليه ، وبعد ذلك بسنوات جاءنى منه كتاب هو عندى يقول لى فيه : أشهد بأنك أول من تكلم معى من العرب فى قضية الوحدة العربية »[1] .

وينبغى أن نتذكر هنا أن الذين كانوا يرون رأى شكيب لم يكونوا آحادا ، يعدون بالأصابع ، بل كانوا جمعا له كميته ، وان كان أقلية بالنسبة الى مخالفيه ، ولذلك نرى شكيب يتحدث عن استمالة الانجليز للعرب ، وجعلهم ضد تركية فى الحرب العالمية الأولى ، ثم يقول : « فصار بين العرب حزب غير قليل ينزعون الى الانفصال عن الدولة قلبا وقالبا ، متوقعين لذلك أول فرصة ، ولا يمكن أن يقال ان هذا رأى الجمهرة من الأمة العربية ، بل فى الحقيقة كان عقلاء العرب يفقهون أنه اذا وقع الانفصال

---

(١) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٦٠ .

بين العرب والترك تسقط بلاد العرب تحت حكم الافرنج ، فلذلك كانوا يختارون البقاء تحت حكم الدولة العثمانية خوفا من حكم الأجانب ، واختيارا لأهون الشرين »[1] .

وكان اختلاف شكيب مع غيره فى هذه القضية لا يؤدى الى عداوة أو مهاترة ، ولقد بلغ الخلاف ما بلغ بين شكيب وعبد الحميد الزهراوى فى هذه القضية ، فالزهراوى يرى التعاون مع الانجليز للخلاص من تركية ، وشكيب يرى الابقاء على دولة الخلافة ، مع المطالبة بالاصلاح ، ويحذر من غدر انجلترة ، وتناقش شكيب والزهراوى سنة ١٩١٢ فى القضية مناقشة حامية حضرها السيد رشيد رضا ، وانحاز رشيد الى صف الزهراوى ، وكل ما نشأ عن هذا هو انقطاع اللقيا بين شكيب ورشيد لمدة طالت ، ومع هذا يحترس شكيب فى تصوير الموقف ، فيقول : « وان كان كل منا فى ذات صدره بقى حريصا على أخيه ، محبا أن يسمع عنه الأخبار السارة »[2] .

ومما يدل على أن شكيب كان ممن يأخذون بقول شوقى : « اختلاف الرأى لا يفسد للود قضـــية » أنه لما كثر انتقـــاد عبد الرحمن الشهبندر عليه لأسباب ليس هنا مجال تفصيلها ، كتب شكيب يقول عن الشهبندر : « ولعله يقول انى آذيتـــه بسبب أنه كان معاديا للأتراك ، وأنى كنت متمسكا بسياسة اتفاق

---

(١) تاريخ ابن خلدون . ملحق الجزء الأول ، ص ٣٤١ .

(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ١٥٢ ـ ١٥٥ .

العرب مع الترك ، فالعداوة بيننا آتية من اختلاف السياسة ، ولكن يرد على هذا أن كثيرا من الزعماء السوريين كانوا مخاصمين للترك مثله وأكثر منه ، ولم ينلهم منى أدنى أذى ، ولم يقولوا انى آذيتهم بشيء ، بل شهدوا أنى نفعتهم ودفعت عنهم أذى كثيرا بما قدرت عليه ، وأن كثيرا من هؤلاء الزعماء كانوا ولم يزالوا من أعز اخوانى وأخلص خلانى ، وقد جاهروا بعداوة الأتراك ، وجاهرت أنا بسياسة وئام العرب والترك ، ولم يجر اختلاف السياسة بيننا الى أدنى عداوة شخصية » [1] .

وفى سنة ١٩٤٧ كتب الأستاذ حبيب جاماتى يقول عن موقف شكيب : « واذا نظرنا الآن بعين مجردة عن الغرض ، ورأينا أن العرب لا يزالون يجاهدون فى سبيل الاستقلال الذى ثاروا من أجله سنة ١٩١٦ فاننا نضطر مرغمين الى الاقرار للأمير بصواب الرأى وبعد النظر » [2] .

وفى سنة ١٩٥٣ يقول الأستاذ على الغاياتى عن صلته بشكيب : « ثم جاءت الحرب العظمى الأولى ، فباعدت سياسيا بيننا وبينه رحمة الله عليه ، فقد كان فى جانب الترك والجرمان ، وكنا على عكسه نؤيد جانب الحلفاء ، ونعتقد بحسن نية أنهم سيوفون بعهودهم ، ويحققون وعدهم لمصر وسائر البلاد العربية .

ولما رفع الحسين بن على شريف مكة الأكبر علم الثورة ظننا

---

(١) الشورى ، عدد أول مايو ١٩٢٩ .

(٢) ذكرى الأمير ، ص ٤٥ .

أن استقلال الحجاز سيفتح الباب على مصراعيه أمام استقلال بقية الأقطار الناطقة بالضاد ، والواقعة تحت سيطرة الترك الذين أصبح زمامهم بيد الاتحاديين ، وهم البلاء الأكبر على العرب ، وقد خاب ظننا مع الأسف الشديد »[1] .

ولقد سمعت الحاج أمين الحسينى سنة ١٩٥٥ يقول : ان شكيب لم ينخدع فى الحلفاء مع المنخدعين ، وكان يجاهر بهذا ، ويقول لمخالفيه : « أنا أشد عربية منكم ، ولكنى أعلم أن الحلفاء سينكثون عهودهم ، وستظهر الحقائق لكم » . وكان شكيب حريصا فى أول الأمر على التوفيق بين العثمانية والعربية ، أو بين الاسلامية والعربية ، وهو فى هذا الاتجاه شبيه بالمرحوم مصطفى كامل زعيم الحزب الوطنى .

وسمعت فى العام نفسه الأستاذ عونى عبد الهادى يقول : كان شكيب وطنيا عربيا لا غبار على وطنيته ، وكان يعتقد الخير فى تأييد تركية أولا ، كما مد يده الى ايطالية بعد ذلك حين اعتقد أن فى هذا خيرا لوطنه وقومه ، وهو فى جميع أحواله قد خدم القضية العربية فى نظر كل منصف ، بل يعد من طليعة المجاهدين لأجل هذه القضية .

ومهما يكن من أمر فقد نفض شكيب يديه من « العثمانية » بعد أن رأى حكام تركية بعد الحرب يديرون ظهورهم للعرب وللاسلام معا ، وأقبل شكيب بكليته على خدمة القضيتين العربية

---

(١) منبر الشرق ، عدد ٢٣ يناير ١٩٥٣ .

والاسلامية ، وأخذ يدعو لنهضة العرب ووحدتهم ، فهو يقول : « رأس نهضة العرب هو أن نجزم بالاستقلال والاتحاد اللذين نريدهما ، واللذين لا حيـاة لنا فى المستقبل بدونهما فى عصر القوميات هذا » (1) .

ويقول : « هل للعرب نجاة بغير الاتحاد ؟ وهل الدولة العربية التى تنزع اليها نفوسنا غير دولة (الاتحاد العربى) أو الممالك العربية المتحدة ETATS-UNIS ARABES » ؟ (2) .

ويقرر شكيب أن « العروبة جامعة كلية » ويعقد لذلك مقالا طويلا (3) يتحدث فيه عن اجتماع المسلمين والمسيحيين على أرومة العربية ، وعن رابطة الدم وقوتها ، وتأثير العقيدة الدينية ، وأنها لا تنفى رابطة الدم ، وأنها ليست كل شيء ، ويتحدث عن الروابط التى تجمع بين المسلمين والمسيحيين ، كالأصـل ، والمصالح ، واللغة ، والوطن ، ويضرب الأمثلة ، ويبين كيف يرجع نصارى العرب الى أصول عربية .

ويتكلم عن اللغة واتقان كثير من المسيحيين لها ، ويبين أنه لا تعارض بين الوحدة الاسلامية والوحدة العربية ، وأن الحروب الصليبية هى التى أوجدت العداوة بين المسلمين والمسيحيين ، ويشير الى اتحاد المسلمين والأقباط فى مصر ، ويجعل ذلك قدوة لسورية .

---

(1) الفتح ، عدد رجب ١٣٥٠ هـ .
(2) الشورى ، ٢٨ أغسطس ١٩٢٩ .
(3) عروة الاتحاد ، ص ١٨١ ـ ١٩٨ .

ويرى شكيب أن العامل الاجتماعى هو أقوى العوامل الرابطة بين الأمم ، وأن ركنه هو اللغة والثقافة قبل كل رابطة أخرى ، ويرى فى سنة ١٩٢٧ أنه ينبغى أن تنشر فى سورية والعراق وجزيرة العرب كلها روح الدعاية الأدبية ، وأن تتشبع الضمائر بأننا سكان هذه البلدان كلها أمة واحدة ، وأصلها واحد ، وغايتها واحدة ، وأنه يجب على الحكومات الحجازية واليمانية والنجدية والعراقية والحضرمية والعمانية وحكومة سورية الآتية فى الطريق أن تجعل بث هذه الوحدة أقصى همها ، وأن ترصد لها المساعى الرسمية ، فضلا عن المساعى الخصوصية التى يقوم بها الزعماء والمفكرون .

ثم يقول : « ان جمع الشمل السياسى لا يكون الا بلم الشعث الاجتماعى ، وبث روح الوحدة الأدبية » [1] .

وقبل هذا بسنتين — أى فى سنة ١٩٢٥ — يكتب شكيب ساردا العيوب والثغرات الموجودة فى العرب شعوبا وملوكا ، ثم يقول : « ومع هذا كله فلا أزال على رأيى من وجوب جمع الكلمة بين ملوك العرب ، وتأليف الامام يحيى وسلطان نجد مع الملك حسين ، على شرط أن يتحالف الثلاثة على عدم ادخال الأجانب فى أمور الجزيرة ، ويترك الى مؤتمر عربى اسلامى فصل مسألة الحجاز .

وبهذا يكون العرب أفهموا أوربة المرابطة بالمرصاد لمعايرة

---

(١) الشورى ، ٢٦ مايو ١٩٢٧ .

السجول ووزن القوى أن الأمة العربية لم تمت ، وأنها تقدر أن تجمع شملها ، وأنها تحتوى عناصر حية هائلة »[1] .

ولقد ظل شكيب يبدىء ويعيد في الحديث عن الوحدة العربية والدعوة اليها والتحريض عليها ، وقد بدأ بذلك فى وقت مبكر عقب الحرب العالمية الأولى ، وبقى يغادى هذه الفكرة ويراوحها ، ولا يترك فرصة مناسبة للحديث عنها ، فهو فى سنة ١٩٢٩ يتحدث عن الصهيونية وخطرها وممالأة انجلترة لها ، واستخفافها بالعرب ، فيشير الى أن علة العرب هى التفكك والتمزق ، وأن سبب تغلب أعدائها عليها هو اختلافها فيما بينها وعدم التقائها على كلمة واحدة وهدف واحد ، فيقول :

« وأما سبب استخفاف الانكليز بالعرب فيرجع الى أمور كثيرة يطول شرحها ، وانما نجتزىء منها بذكر ما تراه انكلترة بين العرب من النزاع الدائم والخصام المستمر ، فهى تجد أمة كثيرة العدد شديدة البأس متوقدة الذكاء ، الا أنها مع كثرة عديدها مفككة الأجزاء مقطعة الأوصال ، حتى ان بعضها لا علم له ببعض ، وهى تجد أمة شديدة البأس ، لكن بأسها واقع فيما بينها ، وشاغل لها عن الخارج بالكلية .

وهى تجد أمة متوقدة الذكاء ، الا أن ذكاءها مصروف الى

---

(١) الشورى ، ٢٠ أغسطس ١٩٢٥ . والسجول : جمع سجل ، وهو الدلو العظيمة مملوءة .

كيد بعضها لبعض ، وغرام هذا بخضد شوكة ذاك ، وما أشبه ذلك من البلايا » (١) .

وفى سنة ١٩٣٠ يلوم قومه لتقاعسهم عن السعى الجاد فى سبيل الوحدة العربية التى لا يراها تبعد عن الوحدة الاسلامية ، ويتخذ أسلوب السخرية فى هذا اللوم فيقول :

« لو ندبنا المسلمين الى البذل فى سبيل أقدس قضية وطنية أو قومية لامتنعوا أو تثاقلوا ، ولكنهم اذا قيل لهم ان هنا مزارا لولى أو قبرا لأحد الصالحين لتسابقوا الى التبرع لأجل بنائه ، فحبذا لو جعلنا لمشروع الوحدة العربية قبة أطلقنا عليها اسم أحد المشايخ ، فكانت تجمع اعانات كثيرة » (٢) .

وفى سنة ١٩٣٧ يواصل الحض على الوحدة فيقول : « وأنتم أيها العرب الكرام : اذا دعوناكم للوحدة العربية فلا تقاومونا ، ولا تهزأوا بنا ولا تقولوا : خيالات . ولا تحملوا على مشروع هذه الوحدة كما فعل كثير منكم يوم قمنا بالدعاية اليه منذ سبع سنوات ، ثم عادوا اليوم الى رأينا ، وصاروا فى مقدمة أنصاره .

لقد أثبتوا للناس أننا — والحمد لله — موفقون فى آرائنا ، مستشعرون للأمور قبل وقوعها ، وأننا ثمانى مرات فى العشر نقول رأينا فينكره الكثيرون ، ثم تحققه الأيام ، وتؤيده الحوادث ، ويتجلى فيه الصواب كفلق الصبح »(٣) .

(١) المرجع السابق ، ٢٣ أكتوبر ١٩٢٩ . ويقال خضد شوكته: اى كسرها .

(٢) المرجع السابق ، ٢٣ يوليه ١٩٣٠ .

(٣) المصدر السابق ، ٣ مارس ١٩٣٧ .

ولقد ألقى شكيب محاضرة عن « الوحدة العربية » فى النادى العربى بدمشق يوم ٢٠ سبتمبر ١٩٣٧ — وبين يدىّ نصها — وفى هذه المحاضرة يقـــرر أنه اذا أنعمنا النظر فى حالة العـــرب ومواقعهم الجغرافية ومطامع الدول المحيطة بهم — ســـواء فى الشرق أو فى الغرب — وجدنا وحدة العرب ضرورة من الضرورات الحيوية ، حتى يعيشوا آمنين ، وحتى يستوثقوا من مستقبلهم ، ولا يتعرضـــوا للمصائب التى سيحدثها لهم بقـــاؤهم مفككين مبعثرين .

ويشير الى أن جشع الأمم القوية لا يترك الأمم الضعيفة المفككة تعيش فى اطمئنان ، وأنه لو أراد استقصاء الأمثال على عبث الدول الكبرى بحقوق الدول الصغيرة لطال المقال واحتاج ذلك الى مجلدات ، وأن بعض الأوربيين يغضب اذا وقع العدوان على بلد أوربى ، ولكنه لا يغضب اذا وقع مثله على بلد فى آسية أو أفريقية : « فلم يعد ممكنا اذن أن يعيش العرب آمنين فى أوطانهم ، ما داموا مليونا فى هذا القطر ، ومليونين فى ذلك القطر ، وثلاثة ملايين فى ذلك القطر .. وكل منهم لا يربطه بالآخر غير النطق بالضاد ، فأنتم تعلمون القوى العظيمة الهائلة التى عنـــد دول الاستعمار اللائى منها ما يقود مائة مليون من البشر ، ومنها ما يتولى أربعمائة مليون ، وهلم جرا .

لا أمل فى ثبات العرب أمام دول كهذه الا اذا كانوا متحدين جبهة واحدة فى وجه الأجنبى الطامح » .

وهو يرى أن تكون الوحـــدة اتحادا عسكريا واقتصاديا

وسياسيا يضمن لنا البقاء ، ويقف بأطماع الطامعين فينا . وهذا لا يستلزم فى رأيه الاتحاد الادارى ، ولا يوجب « تمام اندماج مملكة بأخرى ، بل الوحدة العربية ممكنة بسهولة مع ابقاء كل من العراق وسورية والمملكة العربية السعودية ممالك مستقلة بادارتها الداخلية »[1] .

ويتحدث عن الاتحاد العربى بين الدول الأربع : « الشـــام والعراق ومملكة ابن السعود ومملكة اليمن » ثم يذكر أنه عند اتحاد جميع هذه البلدان يبلغ العرب الذين فيها من العدد ثلاثة وعشرين مليونا من الأنفس ، « فاذا وجدت مصر فى شرقيها ثلاثة وعشرين مليونا عربيا متحالفين تحالفا عسكريا اقتصاديا اجتماعيا ، متحدين كتلة واحدة فى وجه كل مناوىء ، فلا نظن أنها تتردد فى أن ترتبط مع هذه الأمة العربية الكبيرة ارتباطا متينا وثيقا عسكريا واقتصاديا ، وتصير عندنا بذلك جبهة شرقية هائلة يربو عدد أهلها على خمسة وأربعين مليون نسمة » .

ويظهر أنه استعمل كلمة « جبهة شرقية » هنا مراعاة للأوضاع التى كانت قائمة حينئذ ، ولأن أحوال مصر فى ذلك الوقت كانت تحول بينها وبين انطلاقها فى المجـال العـربى الموائم لقوميتها وفطرتها .

ويقرر شكيب فى تلك المحاضرة أن لبنان قطر عربى بحت من جهة الثقافة واللغة ، وان كان فيه انقسام ، وأن بلاد شمالى أفريقية

(١) يحسن أن نلاحظ أنه كان يقول هذا فى سنة ١٩٣٧ .

أقطار عربية ، حتى البربر ترجحت عربيتهم ، ثم يقول : « فنحن مع شمالى أفريقية بجميع قلوبنا ، وأهالى شمالى أفريقية هم معنا بجميع قلوبهم ، ولا نفرقهم عن أنفسنا فى شىء ، كما أنهم لا يفرقوننا عن أنفسهم فى شىء » ، ولكنه يقول عقب ذلك مباشرة : « ولكن وحدتنا معهم لا تتعدى الوحدة الدينية واللغوية والثقافية والاجتماعية » .

والاستدراك هنا قلق فى مكانه ، فماذا يبقى بعد ما ذكر شكيب من وجوه الوحدة ؟ .

وهو يرى أن وحدة العرب لا يمكن أن تقع دفعة واحدة ، بل هى كسائر المشروعات العظيمة غير قابلة للتحقيق الا تدريجا ، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وهذا التدريج فى اتمام الوحدة لا يقتصر على الكمية ، بل يشمل الكيفية أيضا .

ثم ينهى شكيب محاضرته بهذه العبارة : « وبهذا أختتم كلامى راجيا أن هذا المشروع المقدس الذى نحن فى صدده يتم بحسب برنامجنا المرسوم من قبل ، وتقر به عيوننا ونحن فى هذه الحياة ، واذا لم أعش حتى أراه حقيقة مجسمة ، فيوشك أن أبشر به وأنا تحت التراب ، فليست العبرة فى حياة الأفراد اذا كانوا ، وانما العبرة هى فى حياة الأمم ، فلتكن اذاً كلمتنا دائما : لتحيى أمتنا العربية » ! .

وهذا الايمان بالوحدة عند شكيب ليس ابن يومه أو ليلته ، فهو فى سنة ١٩٢٩ يقول : « ان الأمة العربية سائرة الى الوحدة ، مهما عارض فى ذلك اللئام من أعدائها ، والمتفلسفون من أبنائها ،

وان هذه الوحدة آتية لا ريب فيها ، ولو بعد مئة سنة أو أكثر ، وطالما قلت ان من أهم الشروط الأساسية لهذه الوحدة هو مد الخطوط الحديدية بين الشام وجزيرة العرب ، والعراق وجزيرة العرب ، على أن تكون هذه الخطوط للعرب ، وبأيدى العرب»[1].

بل هو القائل سنة ١٩٤٠ : « منذ انتهت الحرب العامة (الأولى) توجهت جميع مساعينا الى ايجاد الوحدة العربية تدريجا ، ومنذ عشرين سنة كنا نراجع كلاً من ملك العربية السعودية وامام اليمن وملك العراق فى هذا الموضوع ، بينما غيرنا من أنفس العرب كانوا يعارضونه بكل قواهم ، أو يقولون فيه انه خيال فى خيال .

وفى يدنا والحمد لله أكثر من مئة وخمسين كتابا من هؤلاء الملوك الثلاثة كلها أجوبة عن كتاباتنا الى جلالتهم فى قضية الوحدة العربية وما يتعلق بها .

وكان المرحوم الملك فيصل كتب الينا يقول : أشهد أنك أول عربى تكلم معى فى الوحدة العربية ، وأراد أن تكون وحدة عملية .

أقول هذا لا من باب تزكية نفسى ، ولكن من باب التحدث بنعمة الله ، وكوننا لم نزل وراء قضية هذه الوحدة حتى خرجت من دور الآمال الى دور الأعمال »[2] .

ولقد تلمس شكيب كل طريق وكل أسلوب فى الدعوة الى

---

(١) الارتسامات اللطاف ، ص ٢٠٧ .

(٢) عروة الاتحاد ، ص ٦٧ .

الوحدة العربية ، حتى قال : « بكينا حتى عمينا على أن نرى تحقيق مشروع الحلف العربى ، وأجمعنا كلنا على أنه لا حياة للعرب فى هذا العصر وما يليه الا به ، لأنه الوسيلة الوحيدة لصد الاستعمار الذى أنشب براثنه بقسم من بلداننا ، وهو يتهدد القسم الثانى منها . فاذا أنشب براثنه بجزيرة العرب كما أنشبها بسورية والعراق وفلسطين والكويت والبحرين وعمان وحضرموت وعدن ، الخ ، لم يبق عربى على وجه البسيطة حرا » .

وبعد أن يفند الشبهات التى تثار حول فكرة « الحلف العربى » يقول : « الوحدة العربية يجب تأسيسها منذ الآن ، والا ندم جميع العرب ، ولات ساعة مندم » (١) .

ولكننا نلاحظ اضطراب شكيب فى تعبيره عن الوحدة العربية ، فتارة يعبر عنها بكلمة « الاتحاد » ، وتارة بكلمة « الحلف » ، وتارة بكلمة « جمع الكلمة » ، وتارة بكلمة « جبهة واحدة » ، وتارة بكلمة « الوحدة العربية » . ويظهر أنه كان فى هذا يخضع لاختلاف الظروف والمناسبات والأوضاع ، ولكنه على كل حال يصرح أكثر من مرة بأن العرب سائرون حتما الى « الوحدة » لأن أمتهم « واحدة » .

انه فى سبيل بلوغ هذه الوحدة الشاملة لا يرى مانعا أن يتنقل فى مراحل ، ويتدرج مع الزمن ، فهو مثلا يقول سنة ١٩٢٩ عن الجزيرة العربية انها القطعة الباقية على الاستقلال من الوطن

---

(١) الشورى ، ١١ مارس ١٩٣١ .

العربى ولذلك هى « مناط آمال الأمة العربية قاطبة ، ولا يخفى أنه آسهل على الناس تقوية الموجود من استرداد المفقود ، فالعرب أجمع مولّون وجوههم شطر الجزيرة ، يأملون حفظها من مصائب الاحتلال التى وقعت بها البلاد العربية الأخرى ، وذلك حتى تكون فى المستقبل مبعث الدولة العربية المستقلة ، كما كانت فى الزمان الغابر »[1] .

فهو يتخذ من استقلال هذه الدولة الصغيرة بداية طريق الى استقلال الدولة الكبيرة . ثم ينتقل الى مرحلة تالية فى سنة ١٩٣٢ فيحرض ملك العراق على الاتحاد مع ملكى السعودية واليمن ، ويدعو للجميع قائلا : « أيدهم الله جميعا لتأييد هذه الأمة وصيانة ذمارها ، وألهمهم دوام الائتلاف والاتحاد لما به تجديد مجدها ، واقالة عثارها ، حتى يعود أمرها كما بدا ، وترجع أيام عـزها جدّدا ، وما ذلك على الله بعزيز »[2] .

وهو فى أثناء تكراره لدعوته الى الاتحاد والتدرج فيه ينذر ويحذر ، ويلوّح بالاتحاد الكامل ، أو الوحدة الجامعة ، ففى سنة ١٩٣١ مثلا نراه يقول : « الوقت مخيف جدا ، والمستقبل مظلم حالك الظلام ، والحرب الأوربية مهما تأخرت فهى آتيـة لا ريب فيها ، وقد ينشأ عنها من تقاسم بلدان الضـعفاء ومن المعاوضات والمبادلات ما نشأ فى الحرب الماضية .

---

(١) المرجع السابق ، عدد ١٥ مايو ١٩٢٩ .

(٢) تاريخ غزوات العرب ، ص ٦ .

فالبلدان العربية تحت الخطر ، بل الخطر الشديد ؛ انى لأعلن العرب هذه الحقيقة من الآن ، وليس أمامهم لدرء الخطر الا الاتحاد ظاهرا وباطنا ، انه اذا نشبت حرب أوربية تفلت كلٌ من قيده ، وصـار كل قوى يستعمل قواه ، والحق بعد ذلك للغالب ، وقد ينتهى الأمر بالاتفاق ، لكن على ظهر الضعيف »[1] .

ويقول بعد شهر واحد من قوله لعبارته السابقة : « لن يستغنى العراق عن محالفة انكلترة الا اذا نهضت الأمة العربية واتحدت ، وصارت كتلة عظيمة يؤبه لهـا ويحترم جانبها ، ولهذا السبب — لا لغيره — كنا فى مقدمة من دعا الى الحلف العربى فى السنة الماضية ، والى توحيد العراق وسورية فى هذه السنة .

وفى كل من هاتين المسألتين لقينا الأمَرَّين من المعارضـات والمنازعات والمماحكات والمكابرات ، وذلك من الناس الذين كان ينبغى أن يبادروا الى تأييد المشروع الأول ثم المشروع الثانى ، فان مقصدنا هو الاستغناء عن انكلترة وتركية معا »[2] .

ثم ينتقل شكيب فى سيره على طريق المطالبة بالوحدة الى مرحلة أخرى جديدة يبلغ بها مصر ، فاذا هو يكتب مقـالا فى سنة ١٩٤٠ يقول فيه : « بمجرد ما حصلت مصر على استقلالها ، مالكة لزمام أمـرها ، اقترحنا على الدول العربية الثـلاث [3] الدخول مع الدولة المصرية فى حديث الوحدة العربية ، حتى تكون

---

(١) الفتح ، عدد ٤ شوال ١٣٥٠ هـ .
(٢) المصدر السابق ، عدد ٣ ذى القعدة ١٣٥٠ هـ .
(٣) يقصد العراق واليمن والسعودية .

مصر أيضا فى مقدمتهن ، وينعقد بين هذه الدول الأربع محالفات عسكرية وسياسية واقتصادية وثقافية تجعلهن كتلة واحـدة لأجل الدفاع عن ذمـار العـرب ، وعن ذمار الشرق ، بل وعن ذمار الاسلام » .

ثم يذكر فى المقال نفسه أنه هبط مصر شتاء ١٩٣٩ وألقى عدة خطب فى هذا الموضوع ، وتكلم فيه مع ولاة الأمور ، وأنه مسرور لرؤية هذه الوحدة تتوطد يوما بعد يوم ، ولأن معارضيها وناقديه فى أمرها قد باءوا بالفشل ، وأن الدول الأربع العربية قد صارت عصبة واحدة فى السياسة ، ويطمع أن تكون أيضـا عصبة واحدة فى الدفاع عن الأمة ، وترتبط بمحالفة عسكرية ، واتفاقات اقتصادية ومالية وثقافية واجتماعية ، تحقق قوله تعالى : « وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون »[1] .

* * *

ثم يأتى حديث « الجامعة العربية » التى أنشئت فى آخـر الحرب العالمية الثانية .

لقد كان شكيب فيما يقول الرواة أول من دعا الى انشائها عقب الحرب العالمية الأولى .

يقول الأستاذ عبد العزيز عزت عن شكيب : « وهو أول من نادى عن عقيدة وايمان بتكوين جامعة عربية تعمل على تضامن العرب كافة واسعادهم واستقلالهم ، وكان يقول ان شريعة الرسول عليه السلام التى تسوى بين المسلم وغير المسلم فى بلاد الاسلام :

(١) عروة الاتحاد ، ص ٦٧ .

(لهم ما لنا وعليهم ما علينا) تجعل مواطنينا غير المسلمين تواقين للاستقلال معنا ، وتاريخ الدول الاسلامية أعظم شاهد على هذه المساواة فى جميع الحقوق وتمام الحرية » [1] .

ويقول الأستاذ حبيب جاماتى : « وكان شكيب أرسلان أول من دعا الى انشاء جامعة عربية ، وذلك بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة » [2] .

وفى سنة ١٩٢٩ يتحدث شكيب عن نهضة الجزيرة العربية وأمله فى أن تكون منقذة لأخـواتها البـلاد العربية فيقول : « .. وتنجد أخواتها التى انبسطت عليهن أيدى الاستيلاء الأجنبى ، وأصبحن لا يملكن لأنفسهن أمرا ، فتزحزح عنهن هذا الرق الذى يرسفن فيه ، وتتم بذلك الجامعة العربية التى هى نكتة المحيا ، ونشيدة آمالنا فى هذه الدنيا » [3] .

ولما تألفت الجامعة العربية فرح بها شكيب وحياها ، وتمنى لها التوفيق فى رسالتها ، ولذلك يقول الشيخ بشارة الخورى فى تأبينه لشكيب مخاطبا اياه : « فرحت للبنان وسورية ولجميع البلاد العربية ، اذ وجدتها متآخية فى جامعة سعيت لهـا طول حياتك ، فتحققت بها أمانيك ومساعيك » [4] .

* * *

---

(١) ذكرى الأمير ، ص ٣٤ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٥٤ .
(٣) الارتسامات اللطاف ، ص ٢١٩ .
(٤) ذكرى الأمير ، ص ٢٩ .

وشكيب حينما يدعو الى الوحدة ويعمل لهـا يرسم أمامها الطريق الموصل الى غايتها ، ويقترح لذلك عدة أمور منها أنه سئل سنة ١٩٢٩ عما يشير به على أبناء الأمة العربية ، فأجاب بأنه يوصيهم « بتكوين فكرة عامة عربية يخدمونها ، ولا يبالون بسواها ، حتى اذا اعترضتها انقسامات داخلية وأهواء شخصية تمشى تلك الفكرة من فوق رءوسهم شاءوا أم أبوا .

وان الأمم الأخـرى كالألمان والايطاليين مثلا لبثوا مئات من السنين منقسمين متشاكين ، يغير بعضهم على بعض ، ولكن انتهى الأمر بنمو فكرة الوحدة ، لأن الشعب درّب أمراءه ، وحملهم على الانقياد لارادة الأمة ، فتكونت من تلك الامارات المتعددة أمم عظيمة نرى آثارها الآن ، وليست الأمة العربية التى تبلغ عشرات من الملايين بأقل من هذه الأمم عددا أو نجدة ، أو مضاء وذكاء . وأين كانت هذه الأمم لما كان العـــرب ســـادة فى الأرض » ؟ [1] .

وهو يجعل للنهضة العلمية مكانة ملحوظة بين حوافز التجمع وعوامل الوحدة ، فيقول : « لا نهضة للأمم ســوى النهضة العلمية ، فاذا وُجدت هذه جاءت سائر النهضات من سياســية وعسكرية واجتمـاعية واقتصادية ، الخ ، آخذا بعضها برقاب بعض » . [2] .

والنهضة العلمية للأمة لابد أن تكون فى اطار لغتها ، وتاريخها ،

---

(١) الشورى ، ١٥ مايو ١٩٢٩ ٠ والفتح ، عدد ١٦ مايو ١٩٢٩ ٠

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى ، مجلد ١٥ ص ٤١٦ ٠

وعقيدتها ، وشخصيتها ، ولذلك يقول شكيب : « التجاريب من قديم الدهر أثبتت أن التربية العلمية لا تنهض بالأمة نهوضا حقيقيا الا اذا حصلت ضمن دائرة لغتها وتاريخها وعقيدتها ومشربها »[1].

وهو القائل فى حديث له مع الأستاذ أحمد بلافريج نشرته مجلة الفتح فى عدد ١٧ جمادى الأولى ١٣٤٩ : « أنصح للمغاربة أن يقتبسوا العلوم الأوربية مع المحافظة على معتقداتهم ومشخصاتهم ، وأنا لا أعتقد أن هناك علما أوربيا وعلما شرقيا ، فالعلم مشاع بين البشر أجمعين ، واليابانيون أخذوا عن الغرب ما نفعهم ، وحافظوا على شخصيتهم ودينهم ، والتفرنج فى نظرى شر الأشياء ، والأمم مهما كانت فمن شأنها أن تحافظ على كيانها ، فكيف بأمة عظيمة لها تاريخ مجيد » ؟ .

ويتحدث فى عدد ١٠ من المحرم ١٣٥٠ عن محاولة تنصير فرنسة للبربر فى المغرب ، ثم يشيد بصلابة البربر وعدم تميعهم فى الفرنسيين ، فيقول : « فالبربر مثلا كانوا قبل الاسلام بقرون يكرهون كل سلطة أجنبية عليهم ويقاتلونها ، وعلى فرض أنهم تنصروا — وليس ذلك من الأمور السهلة — فلن يبرحوا كارهين لفرنسة نافرين من سلطانها ، ومهما تثقفوا باللغة الأفرنسية فلا يصيرون افرنسيسا ، بل يزداد نزوع العرق البربرى فيهم ، وحنينهم الى الاستقلال » .

وشكيب يشير فى سنة ١٨٩٧ فى ترجمته لرواية « آخر

---

(١) الفتح ، عدد ؟؟ ربيع الأول ١٣٥١ .

بنى سراج » الى أن البحث فى تاريخ الأمة وأدبها يوحى اليهـا بوحدتها وتماسكها ، فهو يقول مثلا : « من جملة قرى غرناطة التى ورد ذكرها فى (الاحاطة) للسان الدين بن الخطيب قرية اسمها حارة عمروس ، وفى طرابلس الغرب قرية اسمها عمروس ، وفى مصر بلدة اسمها عمروس ، وفى الشويفات بغرب لبنان مسقط رأس هذا العاجز حارة اسمها العمروسية ، فليتأمل القارىء الى وحدة العربية شرقا وغربا مع تباعد الديار » [1] .

وهو ينصح قومه العرب فى الجزائر [2] باستعمال سـلاح المقاطعة كوسيلة من الوسائل للتخلص من حكم الأجنبى تمهيدا لاستقلال البلاد العربية وتوحيدها بعد ذلك ، فيقول بعد حديثه عن سلاح الاحتجاج : « والسلاح الذى هو أمضى منه هو سلاح المقاطعة فى الأخذ والعطاء ، حتى لا يبقى معاملة لمسلم مع افرنسى ، ما دام الظهير البربرى غير ملغى .

ان سلاح المقاطعة التجارية اليوم هو أمضى سيف وأهـول قنبرة [3] يخشاها الأوربى الذى يعبد المال من دون الله ، أفلا ترون الهنود كيف أنهم بمقاطعتهم للبضائع الانكليزية اقتسروا بريطانية العظمى على عقد مؤتمر كبير للنظر فى نظام جديد للهند » ؟ [4] .

وهو يوصى بنسيان الطائفية والتعصب ، ويدعو الى المساواة

---

(١) آخر بنى سراج ، ص ٧١ .
(٢) ومثلهم العرب فى كل مكان من الوطن العربى .
(٣) شكيب يرى ان كلمة « قنبلة » خطأ ، وأن الصواب قنبرة .
(٤) الفتح ، عدد ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٤٩ .

بين جميع أبناء الأمة العربية ، ولذلك قال فى أثناء الحرب العالمية الثانية عن قومه : « وأهم قـرار يجب أن يتخذوه بعـد قرار الاستقلال التام هو قرار المساواة التامة بين الأهالى من جميـع الطوائف والمذاهب ، وأن البلاد هى لأهلها وحدهم ، ومن كل فريق منهم »[1] .

وهو يوحى الى قومه بأن يصروا على نيل حريتهم واستقلالهم ، والتضحية فى سبيل ذلك ، وبذل الدماء والاقتداء بالشهداء ، فيقول سنة ١٩٢٦ : « لابد أن تستقل سورية برغم بعض أعداء العرب .. من أهلها ، ولابد أن يخرج منها الأجنبى كما خرجت أسلافه من ثمانمائة سنة غير مستفيد شيئا غير الضرر والضرار ، والقتل والدمار ، وسوء الأحدوثة والعار .

وسيكون لمحررى سورية يومئذ تاريخ يقترن بتاريخ نهضة الأمة العربية ، وتسجل أسماء الأبطال الذين بدمائهم اشـتروا حياة العرب .

ولابد أن نحصى أسماء من قتلوا من الثوار من أول الثورة الى أن تنتهى ، وأن نطبعها وننشرها ، وننشر بجانب كل اسـم منها مكان القتل وتاريخه ، ونعلم أولادنا وأحفادنا هذه الأسماء ، حتى تكون لهم قدوة كلما أحس الوطن بالخطر »[2] .

ولقد أقام شكيب من نفسه بلسانه وقلمه وعمله وسـائر

---

(١) عروة الاتحاد ، ص ١٧٢ .

(٢) الشورى ، ٢٨ يناير ١٩٢٦ .

جهوده « ديدبانا » لحراسة أمجاد العرب والمسلمين ، وللدفاع عن قضاياهم حيثما كانت وكيفما كانت .

يسمع بما تفعله فرنسة فى تونس فيكتب مندداً بذلك ، معدداً مآسى الفرنسيين هناك ، وما ارتكبوه من آثام ، وما بذلوه من وعود كاذبة ، ويذكر بالتنديد والتشنيع كيف يأنف الأعضاء الفرنسيون فى المجلس التمثيلى بتونس من الجلوس مع الأعضاء التونسيين ، فالأولون يجلسون فى طبقة عليا ، والوطنيون فى الطبقة السفلى ، ثم يضرب أمثلة من استبداد ايطالية فى طرابلس ، وفرنسة فى الجزائر ، وانجلترة فى مصر والهند [1] .

وفى أوائل يونيه ١٩٢٥ يأسى لحوادث « ثورة الريف » ، ويكتب الى عضو بارز فى عصبة الأمم يقول له : « ان كانت هذه الجمعية المرصدة لحقن الدماء فى العالم لا تتدخل فى حقن الدماء التى تسيل نهراً فى الريف ، فما محلها اذن من الاعراب ؟ . فلتجرب الجمعية على الأقل السعى فى الصلح بين فرنسة وأسبانية وبين عبد الكريم [2] لعل هذا السعى يثمر . أما عدم التجربة من الأصل فعلامة سيئة » [3] .

وفى ١٤ آكتوبر ١٩٢٥ يرسل برقية مطولة الى كل من رئيس الولايات المتحدة ورئيس لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكى ، يشرح فيها المآسى الاستعمارية التى أصيبت بها مراكش

---

(١) المرجع السابق ، ٧ يناير ١٩٢٥ .
(٢) يقصد الأمير البطل عبد الكريم الخطابى .
(٣) المرجع السابق ، ١٦ يولية ١٩٢٥ .

وسورية ، ويطالب أمريكة باتخاذ ما يلزمها تجاه هذه المآسى ، ويطلب منها أن ترسل بعثات صحية تخفف بها ويلات الحرب ، وتخلص الأبرياء من الشيوخ والنساء والأطفال المعرضين للموت بآلات الحرب الجهنمية [1] .

وبتاريخ ١٥ سبتمبر ١٩٢٥ يقدم الى عصبة الأمم نداءً مطولا بالفرنسية ، يطالب فيه بسرعة الاعتراف باستقلال سورية ولبنان وفلسطين وبالسلطان القومى لهذه الأقطار الثلاثة ، وبحق هذه البلدان فى أن يرتبط بعضها مع بعض بحلف بينها ، ويطالب بالغاء نظام الانتداب ، وبجلاء القوات الأجنبية عن سورية ولبنان وفلسطين ، وادخال سورية ولبنان الكبير فى عصبة الأمم مع اعلان استقلالهما التام الناجز ، والتعجيل بوقف القتال الدائر فى سورية ، مع التحقيق فى وقائع جبل الدروز وغيرها .

وعاد بعد أيام فكتب للعصبة تقريرا آخر عن أسباب الثورة السورية وفظائع فرنسة فيها ، وعاد بعد أيام فأرسل تقريرا الى « تيودولى » رئيس لجنة الانتدابات بالعصبة عن الثورة السورية [2] .

وفى عدد ٤ يونيه ١٩٢٦ من « الشورى » يكتب قائلا :
« .. وبعد الأفعال البربرية التى أتاها قواد الجيش الافرنسى عند اخلاء الدروز لراشيا ، واخلاء ثوار جبل ستير لقصبة النبك ، وفى

---

(١) المرجع السابق ، ٥ نوفمبر ١٩٢٥ .

(٢) المرجع السابق ، اعداد ٨ أكتوبر و ٥ و ١٩ نوفمبر ١٩٢٥ .

حمص وفى دمشق ، مما ستسجله الكتب والتواريخ ، ويبقى على جبهة فرنسة سمة عار الى الأبد .. جاءنا حضرة رئيس حكومة سورية الجديد أحمد نامى بك يتكلم فى الشام بوفاق أشبه بوفاق انكلترة مع العراق .

فنقول لأحمد نامى بك وللمسيو جوڤنيل معه : الصيف ضيعت اللبن . لو كان هذا الاقتراح قبل تعميق كل هذه الجراح لقبلناه ، ولكن الاكتفاء بوفاق أشبه بالوفاق البريطانى العراقى بدلا من هذه المصائب كلها ، ليس فى سورية وطنى حر يرضى به»!.

وتحاول فرنسة أن تخرج البربر عن الاسلام ، فيثور شكيب ويندد بذلك فى عدد ١٧ جمادى الأولى ١٣٤٩ هـ من مجلة « الفتح » ويبين خطورة المأساة ، ويذكر الكتابات الكثيرة التى سطرها حول هذا الموضوع ، ويدعو الى معالجته ، ويشدد النكير على فرنسة ، ويبين ما فى عملها من مخالفة للمدنية والقوانين والعدالة الانسانية .

ولقد عمل شكيب من أجل المغرب العربى ما جعل أحد رجاله وهو السيد محمد بن عبود المراكشى يقول عن شكيب : « يتذكر المغاربة ما قدمه اليهم من خدمات ، ويذرفون دمعة حارة على الرجل الذى فكر فيهم وعمل لقضيتهم ، يوم نسى الكثيرون أن المغرب جزء لا يتجزأ من العالم العربى ، ويوم لم يكن فى الدنيا صوت يدافع عنه سوى صوت الأمير شكيب رحمه الله .

وقد عمل فى نفس الوقت على ايقاظ الشعور الوطنى فى هذه البلاد ، والاتصال بأبنائها وتوجيههم وتنبيههم الى الأخطار المخيفة

التى كانت تحيط بهم يومئذ . وهكذا نجد أن كثيرا من زعماء المغرب تلامذة أوفياء للأمير الكبير » [1] .

* * *

ثم هذه « فلسطين » ! . ان الأمير المجاهد فى سبيل قومه ووطنه الكبير يدافع عن فلسطين منذ وقت مبكر ، فهو فى ٣٠ سبتمبر ١٩٢٦ يكتب فى « الشورى » مفندا لمزاعم اليهود وتخرصات وايزمان ، ثم يقول : « اذا كان الله حكم على اليهود بأن يشتتوا أيدى سبا ، ولا تكون لهم مملكة ، أفيكون العرب مسئولين عن ذلك ، ويجب أن يعاد شمل هذه الأمة على ظهر العرب ، ومن كيس العرب ؟ .

ان أربعة عشر مليونا ونصف مليون من هذا الشعب اليهودى هم فى أوربة وأمريكة ، اذا قد كان الأولى بالأوربيين الذين هم فى ديارهم أن يجمعوا شملهم الى مملكة واحدة ، وأن يعيدوا عليهم حقهم الضائع من كيسهم ، لا من كيس غيرهم ، لا أن تقطعهم انكلترة ملك العرب الذى يتصرف به العرب من آلف وثلاثمائة سنة » ! .

ثم يقول : « فالعرب لم يموتوا ، ولن يتخلوا لكم عن وطن عربى بحت هم سادته من ثلاثة عشر قرنا لأجل عاملكم الدينى أو الاقتصادى » .

ولكنه يعود بعد هذا الى تحذير أبناء فلسطين من الخلاف والشقاق ، ويذكرهم بتبعاتهم فيقول : « بقيت هناك حقيقة مرة

---

(١) ذكرى الأمير ، ص ٣٤ .

نريد أن نصرح بها لاخواننا الفلسطينيين ، ونرجوهم أن يتقبلوها منا بدون اشمئزاز : اننا حضرنا الجلسة الأخيرة التى انعقدت فى جنيف فى مارس الماضى ، لأجل المذاكرة فى ادارة فلسطين ، وسمعنا افادات المندوب الانكليزى ، وفهمنا منها كيف أن اختلاف أعيان فلسطين — لأن الأعيـان هم الذين اختلفوا — ومنافساتهم ومزاحماتهم على العضوية والرئاسة وما أشبه ذلك ، قد قوت آمال الانكليز واليهـود كثيرا على انفاذ البرنامج الصهيونى ، وأضرت جدا بالعرب ويا للأسف .

كما أن نغمة وايزمان هذه المرة تشعر أيضا بنشاط وأمـل منشأ لهما سوى اختلاف الفلسطينيين .

وخلاصة القول أن بقاء فلسطين بلادا عربية ، أو تحولهـا يهودية وطرد العرب أخيرا منها ، ذلك منوط بالعرب الفلسطينيين أنفسهم قبل سائر العرب ، وبهذا بلاغ لقوم يعقلون » ! .

وفى عدد ١٦ أكتوبر ١٩٢٩ نجده يواصل حملاته عـلى الصهيونية فى صرامة وحزم ومناصرته لقومه فى ايمان وعزم فيقول : « مما لا خـلاف فيه هو أن الصـهيونية (أى الوطن القومى الصهيونى) فى فلسطين اعتداء محض ، وتجاوز بحت ، لا يفترق بشىء عن اعتداء لص من قطاع الطريق على عابر سبيل يسلبه ماله وثيـابه .

والذين يدعون بعد ذلك الى الصلح بين العرب واليهود هم أشبه بمن يدعون عابر السبيل المسلوب ماله والمجرد من ثيـابه الى مصالحة اللص الذى اعتدى عليه ، وينسون أن هناك فرقا

عظيما بين المتنازعين فى أمور قد توجد فيها لكل من الخصمين شبهة حق ، وبين المتنازعين فيما لا حق فيه لأحد الخصمين بالمرة ، وما لا صلح فيه الا برد المال الى صاحبه ، مع تضمينه العطل والضرر » .

ومجلة « الفتح » تقول عن الأمير فى ١٦ مايو ١٩٢٩ انه « كاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان ، يقوم فى أوربة مقام مكتب استعلامات اسلامى عظيم » ثم تمضى فتذكر طائفة من الشواهد على عنايته بشئون العروبة والاسلام والدفاع عنهما ، ثم تقول : « فالأمير شكيب أمة وحده ، وهو فى أوربة يسد مسد جماعات وادارات ووفود » ثم تنوه بمقالاته ورسائله وكتبه ، وتقرر أن أمم الشرق لو أرادت استخدام رجال آخرين للقيام بهذا المجهود لأنفقت آلاف الجنيهات . كما تذكر أن الأمير قد تبرع لحركة الجهاد فى بلاد الريف بقيادة الأمير عبد الكريم ، وتبرع لمنكوبى الزلازل فى فلسطين ، وتبرع لمشروع مكتب الاستعلامات ، الخ .

ولم تكن وظيفة « الديدبان » عند شكيب مقصورة على المجالين السياسى والاجتماعى فقط ، بل كانت تمتد فتشمل المجالين الأدبى والعلمى ، ولذلك نجده فى سنة ١٩٣٧ يقول : « ان النهضة الشرقية العربية — وان كان قد ذرّ قرنها منذ قرن فأكثر — لم تسر هذا السير الحثيث الا فى الخمسين سنة الأخيرة التى شهدها كاتب هذه الأحرف بجميع صفحاتها ، وذلك لأننى بدأت الكتابة فى الصحف ، وبمرافقة الحركة العلمية فى سيرها منذ

٥٢ سنة متوالية ، فلى الحق اذن بأن أدّعى معرفة تاريخ هــذه النهضة ، وما دخل فيها من التطورات ، على قدر ما يستطيع خادم أمين للعلم زاول عمله فى مكافحة الجهل طوال مدة خمسين سنة دون أن يتخلف يوما واحدا » [١] .

ونستطيع أن نقول ان من دلائل غيرة شكيب على عروبته ، واعتزازه بقوميته ، هذه السخرية العميقة التى سخرها بالاستعمار ، وما استحدث طغيانه من أساليب وأحابيل ، فها هوذا يشير الى تقسيم الدول الاستعمارية للبلاد العربية تحت اسم (الانتداب) ويسخر منه قائلا : « وأعطى شياطين الانس هذا التقسيم المقرر من قبل اسم (الانتداب) . جعلوه أنه سيقع من جمعية الأمم التى لم تكن خـُلقت بعد ، أى أوجدوا التقسيم قبل وجود المقسِّم والانتداب عندما لم يكن المنتدب .

وهذا من أعظم مهازل هذا العصر التى جعلت مقام هــذه الدول الأصيل ساقطا فى نظر كل ذى وجدان قويم ، وسلبت منها كل ثقة . هذه هى عقيدة الناس فى قصة هذا الانتداب »[٢] .

وهو فى مقام آخر يهزأ بالانتداب ، ويندد به قائلا عن أمته : « ان هذه الأمة قد احتجت بمزيد الشدة فى جميع الفرص ، وتحت جميع الصور عــلى المظلمة التى حلت بهــا بقسمة سورية الى منطقتين : احداهما فرنسوية والأخرى انكليزية ؛ وفصل فلسطين

---

(١) النهضــــة العربيــة فى العصر الحاضر ، ص ٩ • ومجلــة المجمع العلمى العربى ، مجلد ١٥ ص ٤١٨ • (١٩٣٧ م) •

(٢) الشورى ، ١٨ فبراير ١٩٢٦ •

عن سورية ، وارهاق كل منهما بشكل حكومة ان هو فى الواقع الا شكل ادارة استعمارية مقنع بكلمة (انتداب) الخلابة » [1] .

ويشتد شكيب فى وصف المستعمرين فيقول فى عدد ٢٦ فبراير ١٩٢٥ من « الشورى » : « لماذا نلومهم على الكذب وهم أهل استعمار ولصوص بلدان ، وقد جرموا فعلموا أنهم مهما كذبوا وبهتوا ، فقد يجدون فى الشرقيين من يصدقهم ، وأنهم يخدعون الناس مئة مرة ، ويظهر خداعهم ، وتفتضح حيلتهم ، ثم يعاودون الخداع مئة مرة ، ولا يعدمون فى هذه المرة بعد المئة حمارا يقع فى أحبولتهم ، وتاريخ الاستعمار حافل بهذه الحوادث » .

ويعبر عن مكائد انجلترة الاستعمارية بمناسبة موقفها من ميناء العقبة ، فيقول فى سنة ١٩٢٥ : « على أن انكلترة ان لم تأتك من بين يديك جاءتك من خلفك ، فالآن جاءت الى العقبة ، لا من طريق مصر ، ولا من بادية سيناء ، بل من البلقاء ، أو مما يقال له اليوم شرق الأردن .

فهذا القطر الذى كان تعلق للعرب أمل بأن يبقى لهم ، وتخلص لهم زاوية صغيرة من سورية ينام فيها العربى مستريحا آمنا ، لا يتحكم فى رقبته المستر جون ، ولا المسيو جول ، قد شملته أيضا نعمة (الانتداب) ، مع نعمة أخرى لا يعد الانتداب فى جانبها شيئا ، وهى نعمة امارة هذا الأمير عبد الله !!.. ونعمة أخرى

(١) المرجع السابق ، ٨ أكتوبر ١٩٢٥ .

لا تعد نعمة امارة هذا الأمير بجانبها شيئا ، ألا وهى نعمة وزارة ذلك الشهم المخلص الوطنى العربى الصادق الركابى !!.. فبأى آلاء ربكما تكذبان » ؟ [1] .

وبمناسبة تعريض شكيب هنا بالأمير عبد الله — الذى صار فيما بعد الملك عبد الله — نذكر أن شكيب صارح برأيه الصارم فى الأمير عبد الله ، حينما سأل مراسل جريدة المقطم فى سنة ١٩٢٩ الأمير عبد الله : هل عنده علم بمساعى الأمير شكيب فى التأليف بين العرب ؟ . فقال : انه لا يتتبع أخبار شكيب أرسلان .

فعلق شكيب أرسلان على هذه الاجابة بقوله : « انه لا عجب فى أن أميرا مثل الأمير عبد الله لا يتتبع أخبار عاجز مثلى لا يستحق عنده هذا الاهتمام ، فأما أنا فأتتبع أخباره وأستقصيها بقدر الامكان ، لأنه أمير على نصيب غير قليل من سورية ، وكنت أود لو عثرت من أخباره على ما يسر ، فكنت أنشر له راية الثناء فى الخافقين ، ولو لم يحبنى .

الا أنى حتى هذه الساعة لم أجد من هذه الأخبار ما تقرّ به العين ، وخابت من هذه الجهة الآمال ، كما يخيب برأس الأقرع المشط ، فعسى أن نسمع فى المستقبل ما فاتنا فى الماضى ، والله يحيى العظام وهى رميم » [2] .

---

(١) المرجع السابق ، ١٦ يولية ١٩٢٥ .

(٢) المرجع السابق ، ٢٨ أغسطس ١٩٢٩ ، ويمكن مراجعة رأى الأستاذ ساطع الحصرى فى الأمير عبد الله فى كتابه (العروبة أولا) ص ٥٢ ـ ٥٥ حيث يصفه باشاعة الفتنة والأنانية ، والطموح الشديد ، بلا تفكير سليم .

ويشتد شكيب على من يتعاون مع الحلفاء المستعمرين ، ويفصّل الحكم الصارم عليه ، بعد أن يبين كيف أن الحليفات قد نقضن عهودهن مع العرب ، وفعلن بهم الأفاعيل ، واستعبدن ديارهم ، فيقول :

« أما العرب فكل عربى يسير فى جانبكن الى حرب الروس أو الألمان أو أية أمة أخرى قبل أن تسلمن سورية وفلسطين الى العرب أهلهما ، فانه خائن لوطنه وقومه ، مارق من الوطنية والعروبة مروق السهم من الرمية ، جدير بأن تبرأ منه الأمة العربية ، وأن تحاسبه على خيانته حسابا عسيرا كائنا من كان »[1].

وفى موطن آخر يحمل شكيب على الذين يوالون فرنسة التى استعمرت وطنه ، أو يشيدون بها ، فيقول فيما يقول : « ويقول جميل مردم : ان الخلاف بيننا وبين فرنسة هو خلاف عائلى ، نحله فيما بيننا ولا مدخل للغريب فيه ؛ ولم نعلم متى كانت فرنسة ابنة عمنا من الرضاعة ؛ ويقول لطفى الحفار : ان فرنسة هى التى أسست حقوق الانسان فى العالم ، ويكرر ذلك ، وينسى أنه جعل السوريين وعرب المغرب بقوله هذا أحطّ من بنى الانسان ، لأن فرنسة أكلت حقوقهم فعلا ، فلو كانوا من بنى الانسان لما كانت تعاملهم هذه المعاملة ، فانها بزعم الحفار قد أسست حقوق الانسان » [2] .

* * *

(١) عروة الاتحاد ، ص ٥٥ .
(٢) عروة الاتحاد ، ص ١٧٧ .

واذا كان شكيب يكره كل دولة استعمارية فانه يخص انجلترة وفرنسة الدولتين العجوزتين فى تاريخ الاستعمار بمزيد من الغضب والكراهية ، لأنهما أذاقتا العرب قومه ألوانا من العذاب ، ولذلك يقول عنهما : « لا يخفى أن الدولتين اللتين تزعمان أنهما عماد الديمقراطية فى العالم — وهما فى الحقيقة عماد الاستعمار ، ومصدر استعباد الشعوب — ليس لهما شغل أهم من الدعاية الكاذبة ، وتصوير الحوادث بغير حقيقتها ، وتكرار ذلك فى العشى والابكار ، الى الحد الذى يوهم الجاهل ويقنع الغافل بأنه على شىء من الصحة ، ومن هذه الدعاية أموال دافقة وأعطيات جزيلة يأخذها هؤلاء المستعمرون من عرق جبين الفقراء والضعفاء ، وينفقونها على شراء الضمائر والذمم »[1] .

واذا راجعنا الكتابات السياسية التى كتبها شكيب فى أول الحرب العالمية الثانية نلاحظ أنه فى أغلبها يهاجم الحلفاء بشدة[2] ، وينعى عليهم استعبادهم للعرب والمسلمين ، ويميل الى تمجيد ألمانية وتمجيد هتلر بعض الشىء ، ويعتبر هتلر نقمة الهية صبها الله على انجلترة وفرنسة لينتقم منهما . ولذلك يقول :

« فلا تظنن هتلر هنا الا آلة الهية قد هيأها العزيز الجبار للانتقام من أولئك الطواغيت الذين استعبدوا ثلث العائلة البشرية ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

(٢) انظر مثلا من المصدر السابق ص ٩٧ ، و ص ١٠٣ — ١١٣ .

ثم بلغت بهم الجرأة على الله أن زعموا أنهم انما يحاربون لأجل حرية الشعوب » [١] .

وإذا كانت انجلترة وفرنسة تبوءان بمزيد من كراهية شكيب وصرامة حكمه ، فان فرنسة التي احتلت وطنه العربي : الشـــام تبوء بالنصيب الأكبر من هذا المزيد ، مع أنه كان في موطنه حينئذ من يقول عن فرنسة : انها أمّنا ! . ولذلك نجده يقول : « ان فى الأنيار الأجنبية كلها لا يوجد نير أثقل ولا أغلظ ولا أشد وطأة من النير الفرنسى ، هذا باتفاق كلمة المسلمين والشرقيين وجميع المقهورين فى العالم » [٢] .

ويقول أيضا عن فرنسة انها : « أمعنت فى قهر المسلمين وهدم ممالكهم وثل عروشـــهم واستعباد دهمائهم وابادة خضرائهم ، فلم تبق ولم تذر ، وأتت فيهم من أصناف الجبروت وأفانين العظموت مالم يتحدث بمثله تاريخ البشر » [٣] .

ويكتب شكيب مقالا بعنوان « الانسانية الفرنسية » [٤] يسوق فيه طائفة من فظائع فرنسة فى شمال أفريقية منها :

١ — أمر الفرنسيين للأسرى بحفر قبورهم بأيديهم ، ثم دفنهم فيها ، واطلاق الرصاص عليهم .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٩٧ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٥ . والأنيار : جمع نير ، وهو الخشبة التى توضع على عنق الثور .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٧ .

(٤) الشورى ، عدد ٢٢ أكتوبر ١٩٢٥ .

٢ — اشعال النـــار على بعض المواطنين العـــرب وخنقهم بالدخان .

٣ — اشعالهم للنار فى فم كهف اختبأ فيه بعض المجاهدين حتى اختنقوا .

٤ — تعليق بعض الجنود الفرنسيين رءوس ضحاياهم من العرب على طرف السّرج .

ثم يختم شكيب بقوله : « أفعلمت أيها الشرقى من أولئك المتمدنون الذين أتوا الى مراكش والجزائر وتونس ، وقدموا أخيرا الى سورية ليعلّموا الأهالى المدنية » ؟ .

ويذكر شكيب الحروب الصليبية وأن الأمم الأوربية تفاوتت فى الاحنة والشدة فيها ، فالألمان زحفوا زحفة واحدة ، والانكليز كذلك ، ولكن فرنسة زحفت « على الشرق فى احدى عشرة حملة صليبية ، كلما انطفأت نار واحدة منها أوقدتها فرنسة استئنافا ، حتى كأنها أخذت الحروب الصليبية كلها على عاتقها » [١] .

وفى بعض الأحيان يبالغ شكيب فى التعبير عن قسوة فرنسة ، فبعد أن يحبر نحو ثلاثين صفحة فى مثالب فرنسة وأفاعيلها فى العرب يقول : « ويا ليت شعرى ، لو أردنا الاستقصاء من هذا البحر وايراد الشواهد لحفيت الأقـلام ، وجفت المحابر ، وامتـلأت المجلدات ، ولم نصل منها الى أقل جزء » [٢] .

---

(١) عروة الاتحاد ، ص ١٣٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٤ .

وينبغى أن نعلق على هذه العبارة بقولنا : ان أقل جزء يتحقق بأقل شىء يذكره شكيب ، وما نريد أن يخفف شكيب الحملة على فرنسة ، ولكننا نلاحظ المبالغة فى التعبير فقط ! .

وكأن شكيب مغرم بمهاجمة فرنسة ، فهو يكتب مقالا يتحدث فيه عن اعتداء فرنسة على الألمان فى الرين ، ويورد المثل العربى الذى يقول : الثكلى تتسلى بالثكلى . ثم يقول : « من عرف الفرنسيس كما عرفناهم نحن معاشر السوريين علم أنهم لا يعتدى عليهم أحد ، وأنهم يعتدون على غراب البين كما يقال » .

ويقول : « لقد فضحت فرنسة نفسها فى الشرق والغرب ، وأصبح المكذب لآيات بغيها قليلا ، والمصدق لتمويهاتها ومكابراتها أقل ، وهذه جرائد أميركة وانكلترة الحرة تصرخ بأن سياسة فرنسة فى سورية أصبحت مخجلة » (١) .

ومع هذا الغرام الواضح من شكيب بتعقب فرنسة فى كتاباته ، وعلى الرغم من هجومه المتكرر عليها بسبب أفاعيلها مع العرب والمسلمين عامة ، ومع أبناء سورية وطن شكيب خاصة ؛ نراه يشيد بوطنية أبناء فرنسة وحبهم لبلادهم ، فيقول : « والحال أن الفرنسى كيفما تغرب وفى أى بيئة وجد يبقى فرنسيا بجميع عواطفه ، وقد عرفت كثيرا من الألمان الذين هم متزوجون بافرنسيات ، ولم أعرف واحدة من هؤلاء تابعة لزوجها فى السياسة ، بل هن لا يعطفن الا على فرنسة » (٢) .

---

(١) الشورى ، ٢١ أكتوبر ١٩٢٦ .

(٢) عروة الاتحاد ، ص ١٣٣ .

ثم نأتى الى حديث الدين والقومية ، أو حديث العروبة والاسلام ، وذلك لوثيق العلاقة بين العروبة والاسلام ، فان العروبة وعاء الاسلام ، والاسلام روح العروبة .

لو استعرضنا حياة شكيب أرسلان لوجدناها مجموعة من الجهود التى بذلها فى خدمة العروبة والاسلام ، واعزاز شأن العرب والمسلمين ، ولذلك نراه يتنقل فى جهاده بين دوائر ثلاث هى : الشرقية ، والاسلامية ، والعربية ، فهو داعية للجامعة الشرقية بصفة عامة ، لكى تقف هذه الجامعة أمام طغيان الغرب واستعماره واحتلاله وعدوانه وماديته الباغية . وهو يدعو الى الجامعة الاسلامية بصفة خاصة ، لكى تكون هذه الجامعة قوة انسانية أخلاقية تبشر بين الناس جميعا بمبادىء الحق والعدل والمحبة ، وهو يدعو الى الجامعة العربية بوجه أخص ، ليكون العرب أحرارا فى بلادهم ، ومتحدين فى وطنهم العربى الكبير .

ولقد كتب شكيب مقالا جعل عنوانه « النصرانية جاءت من الشرق » فدافع فيه عن الشرق ، ووصفه بأنه المهد الأصلى للمدنية ، ومنه تفجرت ينابيعها ، وكذلك المبادىء الأساسية التى تفخر بها أوربة ، وذكر أن المسيح من الشرق وتعاليمه شرقية ، فكان شكيب فى هذا مفاخرا بالشرق ناصرا له ، ولكنه يؤمن بوثاقة الصلة بين هذا الدفاع وبين دفاعه عن الاسلام الذى بدأ اشراقه فى الشرق ، ولذلك ينتقل شكيب فى المقال الى الحديث عن الاسلام ، وعن آداب الحرب فى الاسلام ، وعدالة المسلمين ، ويتكلم عن فنون الأوقاف فى التاريخ الاسلامى ، والنزعة الانسانية

الرحيمة البادية فى هذه الفنون ، مما لا يفعله « الا الأمم التى بلغت الأمد البعيد من الانسانية » [1] .

وشكيب يرى أن الدين عامل مهم فى التقريب بين الجموع ، وان كان معه عوامل أخرى ، ويرى أنه اذا اجتمعت الوطنية مع الدين كان الاتحاد بين الجموع أقوى وأبقى .

وشكيب يؤمن بالارتباط الوثيق بين الاسلام والعروبة ، وبين يدىّ رسالة مخطوطة بعث بها شكيب الى أخيه رشيد رضا بتاريخ ٩ أيلول ١٩٢٣ ، وفيها يتكلم عن مآسى الاستعمار فى أفريقية والمستعمرات ، ثم يقــول : « فليس الاســلام مهدّدا فقط ، بل العربية ، ولعمرى ، هل يعيش هذا بدون هذه » ؟ .

وفى موطن آخر يتحدث عن أفاعيل فرنسة فى الجزائر ، وعن النكبة التى حلت فى فرنسة بدخول الألمان باريس ، وعن الذين لا يزالون يتنكرون للقومية العربية من أبناء شــمال أفريقية ، ويسمون أنفسهم « المسلمين الافرنسيين » ، ثم يقول : « فعساهم بعد هذه النازلة الكبرى التى حلت بفرنسة يثيبون الى الصواب ، ويعلنون أن البراءة من العربية لا تلتئم مع الاسلام الذى يظهرون الانتساب اليه » [2] .

وهو يدرك الفضل الجزيل الذى أضفاه الاسلام على الأمة العربية التى يؤمن بعظمتها وسموها ، فيقول : « نعتقد أن العرب خير أمة أخرجت للناس نسبا وحسبا ، وصفاء قريحة ، ووفاء

---

(١) الشورى ، ٢٩ مايو ١٩٢٩ .

(٢) عروة الاتحاد ، ص ١٤٩ .

سجية ، وعلو همة ، ولولا الاسلام لبقوا ممزقين كل ممزق » [1] .

ويقرر أثر القرآن العظيم فى اعادة تكوين العرب على أساس سليم قويم ، ويقارن بين حالتى العرب قبل الاسلام وبعده ليظهر الفرق الكبير بين الحالين ، فيقول : « فالقرآن أنشأ اذن العرب نشأة مستأنفة ، وأخرجهم من جزيرتهم والسيف فى احدى اليدين ، والكتاب فى الأخرى ، يفتحون ويسودون ويتمكنون فى الأرض .

ولا عبرة بما يقال فى شأن العرب قبل الاسلام ، وما يروى من فتوحات لهم ، وما ينوه به من أخلاق عظام فى الجاهلية ، فهذه قد كانت ولا تزال آثارها ظاهرة ، ولا شك فى مدنية العرب القديمة ، وأنها من أقدم مدنيات العالم ، وما يرجح أن الكتابة قد بدأت عندهم ، ولكن دائرة تلك المدنية كانت محدودة مقصورة على الجزيرة وما جاورها .

وقد أتى على العرب حين من الدهر سادهم الغرباء فى أرضهم ، وأذلهم الأجانب فى عقر دارهم ، كالفرس فى اليمن وعمان والحيرة ، وكالحبشة فى اليمن ، وكالروم فى أطراف الحجاز ومشارف الشام ، والحقيقة أنهم لم يستقلوا استقلالا حقيقيا الا بالاسلام ، ولم تعرفهم الأمم البعيدة وتخنع لهم وتتحدث بصولتهم ، ولم يقعدوا من التاريخ المقعد الذى أحلهم فى الصف الأول من الأمم الفاتحة الا بمحمد صلى الله عليه وسلم » [2] .

ويلحظ شكيب فى وضوح أن الاسلام هو الذى هذب فى

---

(1) جريدة الشباب ، عدد ٢٤ مارس ١٩٣٧ .

(2) لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ، ص ٩ .

العرب العصبية الغالية ، فأزال العنجهية من بين صفوفهم ، وحارب فيهم الفرقة والشتات ، وجمعهم على كلمة سواء ، وألّف بين قلوبهم ، وصيرهم بعد العداوة اخوة متحابين ، ونقلهم من نظام القبائل المتفاخرة المتكاثرة المتناحرة الى مجال الأمة المتحدة المتكافلة المتضامنة التى يحس كل عضو فيها بمشاعر بقية الأعضاء ، ولذلك يقـــول :

« ولم يكن ليفت فى عضد هذه العصبية الغالية سوى العقيدة الاسلامية التى جعلت الاسلام هو العروة الوثقى ، وجعلت أخوته فوق كل رابطة ، ولذلك قيل ان العرب لم يكونوا ليتحدوا فى يوم من الأيام الا بالاسلام ، ولولا الاسلام لبقوا شعوبا وقبائل يقتتلون فى جزيرة العرب الى يوم القيامة ، وبأسهم أبدا بينهم .

فلما جاء الاسلام ووحد بينهم فى الدين ، وقال الله تعالى : (وكنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا) لم يلبثوا أن خرجوا من جزيرة العرب بقوة هذا الاتحاد ، ففتحوا نصف العالم فى ثمانين سنة ، ولم يقف فى وجوههم شىء .

ولكن بعد أن بعد عهدهم بعهد النبوة وخلافة الراشـــدين ضعفت فيهم العقيدة التى كانت مدار العمل عند سلفهم ، وعادت فتجددت بينهم العصبيات الموروثة عن الجاهلية ، فرجعوا يقتتلون على المضرية واليمنية فى الاســـلام ، كما كانوا يقتتلون قبـــل الاســـلام ، ورجع بذلك زرعهم هشـــيما ، وبدرهم عرجونا قديما » [1] .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ١٦ .

ولا يرى شكيب تعارضا ولا تصادما بين الوحدة العربية والأخوة الاسلامية ، بل هو فوق ذلك يرى أن الوحدة العربية تتضمن خيرا وقوة للشرقيين والمسلمين ، فيقول : « فأما اتحاد العرب والجامعة العربية فليس فى ذلك الا ما يزيد الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا قوة ومئنة ، فان استقلال آسية ونهوضها يتوقفان على اتحاد شعوبها ، وكما أن الشعب الواحد هو مجموع عشائر متحدة ، والعشيرة الواحدة هى مجموع عائلات متحدة أشبه بالجسم الواحد الذى هو مجموع كريات وذرات متحدة ، كذلك القارة الكبرى هى مجموع أمم يبدأ اتحادها أولا بنفسها ، ثم يمتد الى جوارها الأقرب فالأقرب ، حتى يشمل القارة كلها » .

ويمضى قائلا : « ولن ينهض الشرق — لا سيما الشرق الأدنى — بدون نهضة العرب ، والمدنية العربية (بواسطة الدين الاسلامى العربى) واشجة العروق فى النصف من آسية وفى أكثر أفريقية وفى جزء من أوربة ، واذا نهض العرب نهض الأرخبيل الأندونيسى بطبيعة الحال ، فهما من قبيل اللازم والملزوم .

ولما كان مصدر الدين المحمدى من العرب [1] كان العرب ينظرون الى كل مسلم على وجه الأرض — أندونيسيا كان أو صينيا أو هنديا أو فارسيا أو تركيا أو طاغستانيا أو أرناؤوطيا أو صقلبيا أو زنجيا أو حبشيا أو صوماليا — كأنه عربى بدون فرق عنهم ، يرون فيه أخا وابنا معنويا .

---

(١) يقصد بدء انتشاره .

وكذلك هــذه الشعوب كلها ترى فى الأمة العربية المعلمة المهذبة ، التى هى لهم بمقام الأستاذ ، فان كان الأستاذ راقيا كاملا سار التلميذ على أثره ، واقتبس من أشعة علمه ، واقتدى به فى كماله ، واذا كان مقصرا متأخرا متقهقرا كان نصيب تلاميذه التأخر والانحطاط »[1] .

وشكيب يتذكر من غير شك أن وطنه العربى الكبير يضم مسلمين ومسيحيين ، وأن الجميع يجب أن يتشاركوا فى خيرات بلادهم ، وأن ينهضوا بتبعاتها ، وحقوقها ، وأن يسودهم السلام والوئام ، ولذلك يعنى شكيب ببيان العلاقات الطيبة بين المسلمين والمسيحيين فى الوطن العربى ، فيقول فيما يقول :

« لما كانت أوربة المتمدينة غائصة فى دماء ١٢ مليون قتيل ، والحرب عامة للشرق والغرب ، وناشبة فى سورية نفسها : عاش المسلمون والمسيحيون أربع سنوات ونصف سنة حتى انتهت الحرب أحسن مما يعيش الاخوة فى البيت الواحد ، لا بل الاخوة فى البيت الواحد قد يتشاجرون ، وأما المسلمون ومن اليهم من الفرق الاسلامية فى سورية فلم يختلفوا طول مدة الحرب فى كبيرة ولا صغيرة مع المسيحيين ، ولا رفع مسلم يده على مسيحى ، وانى أراهن وأخاطر من شاء المخاطرة أيا كان أن يأتينى بدليل واحــد يخالف ما أقول » .

ويؤكد شكيب قوله هذا بما حدث له شخصيا ، وبما رآه

---

(١) مجلة الفتح ، ٩ رجب ١٣٥٠ هـ .

رأى العين ، وأدركه ادراك الحس ، فيمضى قائلا : « فهذه قرية قلعة جندل فى وادى العجم نصفها من النصارى ، والنصف الآخر من الدروز ، وكانوا فى وفاق تام ، وأتذكر أنى ذهبت الى تلك الناحية منذ نحو ٢٠ سنة لتعهد مزرعة لى تبعد عن دمشق بضع ساعات ، فجاء أهالى القرى المجاورة : (حينا وعين الشعرا وقلعة جندل وعرنة والريمة) الخ ، وسلّموا علىّ ، وأبوا الا أن أزور قراهم ، وكانت الوفود علىّ مختلفة أيضا من الفريقين ، فلم أجد بدا من اجابة دعوتهم » .

وفى حديثه هذا يقرر أن قوة الأخوة والرابطة بين المتحدين فى العقيدة أمر طبيعى ، ولكن هذا لا يمنع أبدا من التآخى فىالوطنية بين المسلمين وغير المسلمين ، فيقول: «وان كان بينالمسلمين أثر من الجامعة الاسلامية فليس من عجب فى ذلك لسببين : أحدهما أن التضامن بين الضعفاء أمر بديهى لا يحتاج الى برهان ، حتى ولو لم ينتموا الى عقيدة واحدة ، فكيف اذا اتحدوا فى عقيدة ؟ ...

.. الثانى أن المسلمين من حيث المجموع يعتقدون بقرآنهم وشريعتهم ، ويرون فيهما سعادتهم وراحة وجداناتهم ، وفى القرآن الكريم : (انما المؤمنون اخوة) فالمسلم يجد اخاءه للمسلم فرضا محتما عليه ، ومؤازرته من باب الشرع الذى من ترك شيئا منه فهو آثم .

ولا يؤخذ من ذلك أن هذه الأخوة بين المسلمين حاجزة دون الاخاء مع غير المسلمين ، كما يتوهم بعضهم ، أو كما يفترى آخرون ، كلا ، بل يرتبط المسلمون مع غير المسلمين برابطة

الانسانية ، فالنبى صلى الله عليه وسلم قال : (الناس عيال الله ، وأحب الناس الى الله أنفعهم لعياله) . ولم يقل : المسلمون عيال الله » [1] .

ولذلك لا يرى شكيب فى قيام الجامعة الاسلامية خطرا على العرب ، ويستشهد لذلك بقضية فلسطين ، اذ أن كثيرين من المسلمين يؤيدونها ويدافعون عنها برابطة الاسلام ، فيقول شكيب : « ان الجامعة الاسلامية ليست بخطر على غير المسلمين من العرب ، بل هى عضد للشعب العربى بأسره ، فلماذا يعطف مثلا مسلمو الهند والجاوى والفرس والترك والبشناق والأرناؤوط على فلسطين ؟ الجواب : لأنها مسلمة ، لا لأنها عربية . واستشهدنا بقول المسيو بريان للمسيو هريو فى البرلمان الفرنسى : لا نقدر أن نقطع علاقاتنا بالفاتيكان ، لأن استعطاف الكثلكة من أهم المصالح لفرنسة . أفلا ترى أن ٢٥ مليون كاثوليكى فى الولايات المتحدة الأمريكية أجمعوا على مطالبة حكومتهم بترك ديونها على فرنسة » [2] .

ورب سائل يسأل : أكانت سياسة شكيب دينية أم انسانية ؟.. وبعض الناس قد وصفوا سياسة شكيب بأنها « دينية » ، وأرادوا بذلك تشويه جهوده ، وأنها تتعارض مع الروح القومية والروح الانسانية ، وقد فند شكيب هذا الزعم ، حتى كتب مقالا عن « لورانس » وصلته بثورة أفغانستان ، وفيه يقول :

---

(١) الشورى ، ٢٦ نوفمبر ١٩٢٥ .

(٢) كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٥٨٤ .

« تاسعا : ذكرت أنى لا أعرف الكولونل لورانس لا بالوجه ولا بالمكاتبة ، ولكنه فيما يظهر يعرف عنى كثيرا ، ومرة أرسل لى أخ لى أنه وقعت له محادثة مع لورانس ، فعرف منه أنه خبير بكل ترجمة حالى ، ولم يقل الا خيرا ، ولكنه لاحظ أن سياستى « دينية » بزعمه .

فجاوبت الذى كتب لى هذه الجملة : قل للكولونل لورانس ان سياستى فى الحقيقة مبنية على الانسانية لا غير . وعندى أن الانسانية هى رأس السياسة ، وأن الذى يأخذ بسياستها لا يعثر ، وأنه ان عثر مرة تسددت خطواته مرارا ، وان وافقت الانسانية الدين فالدين ، وان وافقت الدنيـا فالدنيا . هذا هو مشربى الحقيقى .

وانما يرانى النـاس مؤيدا للدين لأنى أرى الدين ركنا للانسانية ، ولست أعتقد مجىء الأديان الا خدمة للانسانية وتقديسا لها ، والا فان الله غنى عن العالمين » .

ثم يذكر شكيب مظاهر لاحترام انجلترة الدين ، ويقول : « .. وأحترم سائر الأمم التى تنحو هذا النحو ، ولا أراه ضارا بالرقى المـادى ، بل أراه بالعكس نافعا وضروريا ، وأرى ان الاجتماع محتاج فى تكامله الى الموازنة بين المادة والمعنى ، وبين القول بالحس والقول بالغيب .

ولن يفلح المسلمون الا اذا اتبعوا هذه السبيل ، وهى بناء ثقافتهم على الجمع بين العقيدة الاسلامية والعلوم الطبيعية ، وكما

اتسق هذا الجمع لغيرهم يتسق لهم ، ولا خوف عليهم عند ذلك ولا هم يحزنون » [١] .

وهو يطالب بالتربية الدينية فى أثناء النهضة القومية ، حتى لا تفشو جراثيم الالحاد والشهوات ، فيعظم الضرر ويقل الخير ، ولذلك يقول : « يقول بعض الناس : ما لنا وللرجوع الى القرآن فى ابتعاث همم المسلمين الى التعليم ، فان النهضة لا ينبغى أن تكون دينية ، بل وطنية قومية كما هى نهضة أهل أوربة ؟ . ونجيبهم بأن المقصود هو النهضة سواء كانت وطنية أم دينية ، على شرط أن تتوطن بها النفوس على الخب فى حلبة العلم .

ولكننا نخشى ان جردناها من دعوة القرآن أن تفضى الى الالحاد والاباحة وعبادة الأبدان واتباع الشهوات ، مما ضرره يفوت نفعه ، فلابد لنا من تربية علمية سائرة جنبا الى جنب مع تربية دينية ، وهل يظن الناس عندنا فى الشرق أن نهضة من نهضات أوربة جرت بدون تربية دينية » ؟ [٢] .

وشكيب يطيل التحذير من نشر الالحاد باسم الوطنية أو القومية ، ولذلك يكتب فى سنة ١٩٣٠ مقالا بعنوان « الوطنية الالحادية الفاسدة » ينتقد فيه فريقا من أبناء أندونيسية الذين يريدون الاقتداء بتركية فى احياء الوطنية الأندونيسية « من طريق الالحاد وفى ضمن محاربة الاسلام » .

ويقرر أن تركية لم تتحرر من اليونان الا بحمية الاسلام

---

(١) الشورى ، ١٠ ابريل ١٩٢٩ .
(٢) الفتح ، ١٧ رمضان ١٣٤٩ هـ .

وتحت لواء الاسلام ، وأن كاظم باشا قرة بكير منقـذ تركية الحقيقى قرر هذا فى خطبة بدار الفنون سنة ١٩٢٣ بعد خلاص تركية وعقد معاهدة لوزان . ويقول : « فالقومية الأندونيسية لا تؤلف خطرا أكيـدا على هولاندة الا اذا كانت راجعة الى الجامعة الاسلامية » . ثم يقول : « اذا ارتفعت العقيدة الاسلامية من الوسط فأية قوة معنوية بقيت للوطنية الأندونيسية ؟ وأى مرجح لمدنية الجاوى على مدنية هولاندة » ؟ .

ويعود شكيب ليعقد فصلا بعنوان : « الدسيسـة الأجنبية على الجامعة الاسلامية باسم الوطنية المجردة » . وفيه يذكر أن الدول الاستعمارية تحارب الجامعة الاسلامية والرابطة الوطنية معا ، ولكنها تخاف من الجامعة الاسلامية أكثر ، وذلك لأن الجامعة الاسلامية تقول ان من « يخرج عن الرابطة الوطنية يعد فى نظر قومه خائنا وكافرا معا . فلا يكون آثما أمام الناس وحسب ، بل يكون آثما أمام الله أيضا . وغير خاف أن رابطتين أشـد من رابطة واحدة ، وأن رابطة يعتقد صاحبها أنها مناط ثواب أو عقاب فى الآخرة هى أمتن من رابطة لا ثواب ولا عقاب فيها ، وانما هى دنيوية محضة » .

ثم يمضى قائلا : « فالدعـوة الوطنية المجـردة من الدين الاسلامى لا تخلق فى قلب الوطنى أدنى اعتقاد بأنه هو أعلى من الأوربى ، وكيف تخلقه وهى مجردة من العقيدة القرآنية ، معتمدة على المادة المحسوسة لا غير » ؟ .

وبعد أن يفيض شكيب فى تفضيل الوطنية المتدينة المؤمنة على

الوطنية المجردة الملحدة ، يلخص براهينه على رأيه فيما يلى :

أولا — الوطنية المجردة الملحدة لا تمنع الذوبان فى الأجانب كما تمنعه العقيدة الاسلامية ، فان الأولى تمنعه من الجهة الدنيوية فقط ، وأما الثانية فتمنعه من الجهة الدنيوية والأخروية معا .

ثانيا — الوطنية المجردة عن الاسلام معرضة لما ليست تتعرض له الجامعة الاسلامية من خطر انحلال الأخلاق التى هى دعائم الأمم .

ثالثا — العقيدة الوطنية المجردة لا تبعث من الآمال فى حسن المآل ما تبعثه العقيدة الاسلامية المبنية على المواعيد الصريحة بالقرآن لمن عمل به .

رابعا — العقيدة الوطنية المجردة لا تزرع فى صدر الشرقيين عزة النفس والاعتقاد بالكرامة الشخصية كما تزرعه العقيدة الاسلامية فى صدور المؤمنين الذين يقول لهم قرآنهم . ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

خامسا — العقيدة الوطنية المجردة تفك ما بين المسلمين من عرى الارتباط ، مما يفقدهم بذلك قوة لا عوض لهم عنها [1] .

* * *

ولكن ينبغى أن نلاحظ هنا ما يقع فيه شكيب من تناقض فى الرأى أحيانا وهو يعرض جوانب هذا الموضوع ، فبينما رأيناه

---

(١) المرجع السابق ٨ شوال ١٣٤٩ هـ .

فيما مضى يعطى العقيدة الدينية أهمية كبرى فى توثيق الروابط بين المواطنين ، وفى ايجاد قومية مؤمنة لهم ، ويعتبر الدين مقوما أساسيا من مقومات القومية ، نجده فى مكان آخر يخالف رأيه هذا ، وذلك حينما يتحدث عن اهمال الحكومات الاسلامية للأوقاف ، ثم يقول :

« وقد فشت هذه العادة الذميمة فى الحكومات الاسلامية بفشو الاستخفاف بالدين ، وبحمل الواجبات الدينية على المبادىء القومية . والحال أن الدين لا علاقة له بالقومية ، وكل منهما له حدود غير موقوفة على حدود الآخر ، ونحن نجد أن الفاتيكان مرجع دينى لأربعمائة مليون كاثوليكى ، وهم من أجناس لا يحصى عديدها ، ونجد أن خزانة البابا كخزانة دولة من الدول ، ولم يمنع كاثوليك الدنيا أن يرفعوا اليه اعاناتهم وصدقاتهم كونه طليانيا ، وكون الفاتيكان فى ايطالية » [1] .

وقد يمكن الاعتذار عن شكيب فى هذا بأنه يريد أن يقول ان المتدين بدين يستطيع أن يؤدى واجبات هذا الدين دون أن يتعارض ذلك مع واجباته نحو وطنه ، وأن المسلم مثلا يستطيع أن يعاون اخوته فى الاسلام خارج دولته ، ولا يمنعه من ذلك أنهم ليسوا متجنسين بجنسية هذه الدولة التى ينتمى سياسيا اليها .

ولكننا نحس من عبارة أخرى لشكيب أنه لا يجعل الاتفاق فى العقيدة الدينية عاملا أساسيا فى الارتباط والتعاون ، فهو

---

(١) الارتسامات اللطاف ، ص ٨٩ .

يقول : « رأينا الزنوج الأفريقيين اذا تنصرت منهم أقوام — وقد تنصر منهم نحو ثمانية ملايين — لا تتغير احساساتهم من جهة الأوربيين ، بل يبقى كره الزنجي المتنصر للأوربي كما كان لما كان وثنيا ، أو كما هو عند الزنجي المسلم . ولقد قرأنا فى كتب المبشرين أخبار الكنيسة الوطنية الأفريقية التى شعارها : « نحن مسيحيون كما الأوربيون مسيحيون ، ولسنا بمحتاجين اليهم حتى نعرف المسيح ، فليرحلوا عنا »[1] .

ولعل الاعتذار عن شكيب هنا هو أن يقال انه يريد أن الاتفاق فى العقيدة لا يصير مسوغا لاستبداد الأقوياء بالضعفاء ، أو ليحتل دخلاء معتقدون لهذه العقيدة أرض غيرهم بحجة أنهم متفقون معهم فى هذه العقيدة .

وقد يزكى هذا الفهم أن شكيب يقول فى موطن آخر بعد تحدثه عن تنكر حكام تركية للروابط الشرقية والاسلامية : « ثم على فرض أن تركية رجعت الى العمل بالرابطة الاسلامية ، فلن يوجب ذلك قبول العرب استيلاء الترك عليهم ، فالعرب عرب والترك ترك ، وكل من الفريقين يجب أن يكون سيدا فى أرضه ، ويتمنى لجاره الخير دون أن يتدخل فى شئونه ، وبالاختصار يرفض العرب قاطبة استيلاء الترك عليهم ، أو على شيء من بلادهم »[2] .

---

(١) الفتح ، ١٠ المحرم ١٣٥٠ هـ .

(٢) عروة الاتحاد ، ص ١٧٢ من مقال تاريخه ٤ آب ١٩٤٠ .

نموذج لكتابة شكيب القومية

لقد أمضى شكيب أرسلان نحو ستين عاما وهو يكتب ويؤلف ويراسل ، حتى حبّر آلاف الصفحات والرسائل ، ونريد هنا أن نضع بين أيدى القراء نموذجا واحدا متكاملا لكتابة شكيب ، وقد اخترنا مقالا له بعنوان : « العروبة جامعة كلية » ، وفيه تظهر روح شكيب العربية الحريصة على وحدة الأمة العربية ، ومناصرة القومية العربية ، وهو مقال لم يطلع عليه جمهور قرائنا فى وادينا . وقد علقتُ عليه بتفاسير لطائفة من المفردات ، كما أصلحت الأخطاء التى كانت موجودة فى الآيات القرآنية .

وقد نختلف مع شكيب فى بعض الرأى هنا أو هناك ، ولكن هذا الاختلاف لا يمنع من الحكم بأن المقالة تدل على رغبة قوية فى التوفيق بين أبناء الوطن الواحد ، ولذلك وضع شكيب تحت عنوان المقال هذه الجملة التصديرية :

« ان بين المسلمين والمسيحيين فى الشرق جامعات كثيرة : ارتباط المسلم والمسيحى بالعضوية الدموية ، وبالجامعة اللغوية ، وبالرابطة العربية ، والمنافع المادية المشتركة » .

ومما ينبغى ملاحظته أن هـذا المقـال مكتوب فى سبتمبر سنة ١٩٤٠ ، أى منذ قرابة ثلاثة وعشرين عاما ، واذا كان مرور السنين والأعوام قد جعل بعض المقال « محل نظر » فان هدفه العام — وهو التوفيق بين أبناء الوطن الواحد — ما زال مبدأ تؤمن به الأمة العربية وتدعو اليه .

واذا كان شكيب قد وضع أمام عينيه أول ما وضع حالة سورية حين كتب المقال ، فان سورية جـزء من الوطن العربى الكبير ، وما يلزم لها يلزم لبقية الأجزاء . وفوق هذا لم يهمل شكيب ناحية الربط بين سورية وشقيقاتها الأقطار العربية .

وفيما يلى نص هذا المقال الذى يحسن أن يطلع عليه جمهور القراء ، وأن يتدبروا ما فيه :

العروبة جامعة كلية

سبق لنا فى مقالتنا التى عنوانها : « لابد أن تزغرد الحزينة ولو فى عرس جارتها » اشارة الى الخطة العوجاء التى يسير عليها مع الأسف جانب غير قليل من اخواننا المسيحيين فى الشرق ، من مناوأة السياسة العربية ، واعتبارهم كل ما يؤيدها ويعود عليها بالنجاح مضرا بهم ، وتفضيلهم الافرنجى أيا كان وبأية صورة احتل البلاد على ابن وطنهم ، وأحيانا على ابن جلدتهم المشارك لهم فى السراء والضراء ، بحجة كونهم مختلفين مع ابن وطنهم فى الدين .

وقد أوضحنا عقم هذه السياسة وسقمها ، ومخالفتها للعقل وللكرامة وللمصلحة ، ولكننا لم نخض فى الموضوع خوضا شافيا للغليل ، بما كنا فيه من موضوع آخر هو بسبيل من عنوان تلك المقالة . فأردنا الآن أن نشرح ما فى هذه الخطة من الحيد عن طريق العقل ، ومن تغلب الشهوة على المصلحة الراهنة المادية وعلى الكرامة القومية المعنوية ، وعليه نقول :

ان العرب سواء كانوا مسلمين أو نصارى هم عرب ، لا يقدرون أن يتبرأوا من أصلهم ، ولا أن ينسلخوا عن أرومتهم [1] العربية . ولا نزاع أن رابطة الدم كانت ولا تزال من أقوى الروابط الجامعة

---

[1] الأرومة : الأصل .

بين الشعوب . ولا نزاع أيضا فى أن رابطة العقيدة الدينية هى ذات تأثير عميق فى اجتماع الشعوب وافتراقها ، ولكنها لا تنفى رابطة الدم ، ولا تمحوها من الوجود ، لا سيما اذا كانت رابطة الدم معززة برابطة الجوار ومقتضيات المصلحة المادية المشتركة .

ولقد أثبتت التجربة أن رابطة الدين على أهميتها لم تكن هى كل شيء ، وأن رابطة اللغة ورابطة الدم كان لهما فى جانبها مكان من البال لا يقل عنها . وفى بعض الأحيان جاءت رابطة الجوار مع رابطة المصالح المادية ، فنسختا الروابط الأولى كلها ، أو تغلبتا عليها ، فبقى أثرها فى المجتمع صوريا أكثر منه فعلا .

ولذلك وجدنا من الأمم من يأوون الى مملكة واحدة ، وهم من أجناس شتى ولغات متفرقة ، وذلك بسبب الجوار والمصالح المشتركة ، حتى ان الفيلسوف « رينان » الافرنسي ذهب الى أن أقوى جامعة بين الشعوب هى « جامعة الارادة » فى الاجتماع ، وقال ان هذه الجامعة قد تكون راجعة الى غير رابطة الدين ، والى غير رابطة اللغة ، والى غير وحدة الأصل ، وتعلو عليها كلها بأسباب ومقتضيات مادية تحلها المحل الأول .

ونحن أولاء نجد بين المسلمين والمسيحيين فى الشرق لا جامعة واحدة بل جامعات كثيرة كلية ، منها وحدة الأصل ، وليس ذلك بالأمر الذى لا تبالى به الشعوب ، وقد رأينا كيف أن هتلر زعيم ألمانية جعل الرابطة الدموية واللحمة النسبية الجرمانية فوق كل شيء .

وزد على هذه وحدة المصلحة الراهنة المشتركة فى الحيـاة

الدنيا ، وهى لا تقل شأنا عن الوحدتين السابقتين . فان المصلحة المادية لا يمكن أن تشمل المسلم فى الوطن العربى ، وأن تعدو المسيحى بحال من الأحوال ، كما أن المفسدة أو المصيبة الواقعة على ذلك الوطن لا يمكن أن تصيب أحدهما وتعفو عن الآخر . فان لم يكن بينهما تكافل غير هذا لكفى . فكيف يعقل أن أحد هذين — وهما شريكان فى مقومات كثيرة — ينفرد عن الآخر ، فيرجح عليه الأجنبى بسبب اشتراكه مع هذا الأجنبى فى العقيدة الدينية ؟ .

وها نحن أولاء نجد الكاثوليك من الألمان ألمانا مثل البروتستانت ، وأضدادا لكاثوليك فرنسة مثل البروتستانت تماما . كما أننا نجد بروتستانت فرنسة أعداء للألمان نظير كاثوليك فرنسة بلا فرق . وهذا شاهد نورده بخاصة نظرا لما بين الفريقين الافرنسى والجرمانى من العداوة المزمنة ، والا فالشواهد فى هذا الباب لا تعد ولا تحصى .

من المعلوم أن اخواننا الايرانيين هم مسلمون على مذهب الشيعة ، وأن الدولة الايرانية الى يومنا هذا تعد نفسها دولة شيعية ، أفاذا — لا سمح الله — وقعت عداوة بين دولتى ايران والعراق — أى بين العجم والعرب — أيكون هوى شيعة العراق مع الايرانيين ضد اخوانهم أهل السنة من العرب ، أم مع اخوانهم أهل السنة من العرب على اخوانهم الشيعة من العجم ؟ .

اذن ثبت من هنا أن رابطة النسب ورابطة اللغة لا تتغلب عليهما رابطة ، الا اذا كانت هناك فئة باغية وفئة مبغى عليها ،

فلا شك أن صاحب الحق مهما كان أصله تجب له النصرة ، لأن الحق لا يقف فى وجهه شيء ، والروابط كلها تتضاءل أمامه .

فاذا كان الحق هو الذى يجب أن يتخذ معيارا للميل وعلة للضم ، فأى حق أعظم من ارتباط المسيحى بالمسلم فى البلاد العربية بالعصوبة الدموية الدينية ؟ فان لم تكن فبالجامعة اللغوية ، فان لم تكن فبالرابطة الوطنية والمنافع المادية المشتركة . أيغلب على هذه الأسباب كلها كون فرنسة أو دولة أخرى أوروبية تدين بالدين الذى يدين به أخونا المسيحى فى الشرق ؟ . ينسى أخونا هذا أن الافرنجي ولو تظاهر له بالقربى يحتقره فى ذات نفسه كما يحتقر المسلم ، ويعده كما يعد المسلم غريبا عنه فى النسب والسكن واللغة والمشرب .

لقد كنا فى الآستانة ونحن فى مجلس نواب الأمة العثمانية مؤلفين من عرب وترك وأرناؤوط وأكراد وأروام وأرمن ويهود وغير ذلك ، فكنا نحن نواب العرب اذا كنا مجتمعين فى مكان ، ومنا المسلمون ومنا المسيحيون ، نتحدث فيما بيننا كأننا عائلة واحدة . فاذا دخل علينا تركى عددناه غريبا عنا ، وأمسكنا أمامه عن الكلام الذى يكون عادة بين الاخوان المرفوعة بينهم التكاليف ، مع أن هذا التركى هو مسلم نظير أكثرنا ، وبيننا وبينه رابطة الاسلام ، وناهيك بها من رابطة مقدسة . وكذلك لو دخل علينا رومى أو أرمنى لعددناه غريبا عنا ، لا يجمعنا معه الا أننا واياه من سكان مملكة واحدة ، والحال ان هذا الرومى أو الأرمنى يدين بدين أناس منا ، أى يدين بدين نواب المسيحيين من العرب ، فكما

أن المسلم العربى لم يكن يسترسل الى المسلم التركى ، ويعده غريبا عنه برغم رابطة الاســلام ، كذلك المسيحى العربى كان لا يأنس بالرومى والأرمنى بالرغم من رابطة النصرانية . فهذا هو سر الوطنية والقومية وسر المثل القائل : « جارك القريب ولا أخوك البعيد » .

ولينظر اخواننا الجالية العربية فى المهجر ، فان منهم المسيحيين والمسلمين ، وقد تقع بينهم العداوة والبغضاء ، وقد تقع بين المسلمين بعضهم مــع بعض ، وقد تقع بين المسيحيين بعضهم مع بعض ، ولكنهم اذا اعتدى على أحدهم من ليس من الجالية العربية كانوا كلهم عليه لبدا [١] ، وتركوا ما بينهم من الفروق المذهبية . وكذلك اذا كانــوا مجتمعين ، ودخــل عليهم غريب عن اللسان العربى لم يأنس المسيحى منهم الى ذلك الغريب ولو كان مسيحيا ، كما هو يأنس الى المسلم العربى ، ولو لم يكن مشتركا معه فى العقيدة الدينية .

انى أورد هذه الشواهد لأجل تمثيل قوة رابطة الدم وجامعة اللغة ووحدة الوطن .

ولعل قائلا يقول : ان المسيحيين الذين فى الشرق ليسوا عربا فى الأصل ، حتى تدمجهم مع العرب المسلمين ، وان كان منهم

---

(١) متراكمين فى ازدحامهم عليه .

عرب فى النسب فليس هؤلاء الا نزرا [1] ، وانما غلبت علـى نصارى الشرق اللغة العربية بطول الزمن ، وبنشر الدولة العربية لثقافتها بين الشعوب التى استولت عليها . ونجيب عن ذلك بكلمة مختصرة ، لأن هذا المبحث طويل متشعب الأطراف كما لا يخفى ، فنقول :

العرب قبل الاسلام كان أكثرهم مشركين ، وكان منهم جماعة من النصارى مثل بنى غسان وبنى تغلب ، وكان منهم نزر دانوا باليهودية ، ولكنهم كانوا كلهم عربا . وفى يوم « ذى قار » [2] عندما وقعت المعركة الكبرى بين العرب والعجم كان العرب بازاء العجم صفا واحدا ، وكان النصارى من جملتهم . وكذلك عندما استولى الأحابيش على اليمن وجدوا العرب بازائهم أمة واحدة .

ثم ظهر الاسلام فأسلم أكثر العرب ، ولكن بقى من بنى غسان ومن بنى تغلب ومن لخم وجذام ومن تنوخ كثيرون أبوا أن يدخلوا فى الاسلام .

ولما كان الاســلام لا يجبر أهل الكتاب — أى النصارى واليهود — على ترك أديانهم وكانت قاعدته : (لا اكراه فى الدين) وقع الخلفاء الراشدون فى مشكل من جهة الضرائب المفروضة على نصارى العرب ، فانه كان لابد للرعية من دفع الضرائب ، وكان

---

(١) أى قليلا .

(٢) يوم ذى قار : كان من أعظم أيام العـرب ، وأبلغها فى توهين أمر الأعاجم ، وهو يوم لبنى شيبان ، وكان أبرويز أغزاهم جيشـا ، فظفرت بنو شيبان ، وهوأول يوم آنتصرت فيه العرب من العجم (مجمع الأمثال للميدانى) .

غـير المسلمين من الرعية يدفعون الجـزية ، وبذلك يكون لهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين ، فلما أراد الخليفة عمر بن الخطاب أخذ الجزية من بنى تغلب بحسب كونهم نصارى امتنعوا عن اعطائها باسم « جزية » ، وقالوا : نحن عرب ما نرضى أن نعامل معاملة الأعاجم .

وأجابهم عمر رضى الله عنه : ما دمتم نصارى فلابد لكم من تأدية الجزية . وجرى فى المسألة من الأخذ والرد ما هو معروف فى التاريخ . وقيل ان سيدنا عمر قال لهم : « هاتوها وسموها ما شئتم » . وقيل انه لما صمم على أخذها منهم باسم جزية انطلقوا هاربين ، فقال له النعمان بن زرعة : « أنشدك الله يا أمير المؤمنين فى بنى تغلب ، فانهم قوم من العرب يأنفون من الجزية ، وهم قوم شديدة نكايتهم ، فلا يستعن عدوك عليك بهم » . فأرسل عمر فى طلبهم فردهم ، وأضعف عليهم الصدقة ، ولكن لم يأخذها منهم كجزية . ورضوا هم أن يؤدوا ضعف ما كان يأخذه من المسلمين فى كل سائمة [1] وأرض ، وقالوا : أما اذ لم تكن جزية كجزية الأعلاج [2] فانا نرضى ونحفظ ديننا .

وفى كتب الفقه فصل خاص ببنى تغلب ، لأنهم من جهة كانو يأبون تسويتهم بنصارى الأعاجم ، ومن جهة أخرى لم يكن لهم مهرب من دفع الضرائب ، فانحلت المشكلة على هذا الوجه ؛ وذلك لأن الخلفاء يقيمون وزنا للعروبة كما لا يخفى .

---

(١) السائمة : الابل التى ترعى .

(٢) الأعلاج : جمع علج ، وهو الرجل من كفار العجم .

ونحن لا نقول ان جميع النصارى الذين يتكلمون اليـوم بالعربية هم من غسان أو من تغلب أو من تنوخ ، ولكننا نقول ان هؤلاء وسلائلهم أكثر جدا مما الناس يقدرون .

ثم ان سـائر من فى الشرق من المسيحيين الذين يتكلمون بالعربية ان لم يكن أصلهم من العرب الصراح [1] ، فانهم من سلائل الآراميين ، وهؤلاء هم أمة سامية شقيقة للأمة العربية بلا جدال ، يستدل على وحدة أصلهما من تشابه السريانى مع العربى تشابها أشد مما بين الافرنسى والطليانى .

ومن نصارى المشرق من يرجع أصلهم الى الفينيقيين ، وهو فخر لهم ، فان الفينيقيين كانوا من أعظم أمم الأرض ، وكانوا سادة البحار فى عصرهم ، وكانت لهم آثار على جميع سواحل البحر المتوسط ، بل قد تعدوه الى سواحل الأطلنطيق ، وكانت دولة الفينيقيين بأهميتها تجاذب الدولة الرومانية الحبل كما لا يخفى . ولكن من الفينيقيون يا ترى ؟ ..

الجواب معلوم ، وهو أن الفينيقيين هم من الكنعانيين الذين أصلهم من السواحل العربية الواقعة الى الغـرب من الخليج الفارسى [2] ، أى من الشجرة العربية ، ولغتهم مشابهة للعربية كسائر اللغات السامية .

فسواء كان اخواننا نصارى المشرق من العرب ، أو من سلائل

---

(١) الصراح : الخالص .

(٢) يقصد الخليج العربى .

الآراميين ، أو الفينيقيين ، فانهم راجعون الى الأرومة السامية التى أعظم فروعها الأمة العربية ، وبالتالى فهم والعرب المسلمون من عائلة واحدة .

واذا قيل انه لابد أن يكون فى سورية من بقايا الروم واللاتين والصليبيين ممن ليسوا بعرب ، فالجواب انه قد يكون ذلك ، ولكن هذه البقايا لا تعد شيئا مذكورا بالنسبة الى الســواد الأعظم المؤلف من العرب الصراح ، ومن أبناء عمومتهم الشعوب السامية .

ثم ان هذه البقايا الضئيلة قد اندمجت فى الأهالى الأصليين ، بحيث لم يبق أثر تقريبا فى الشرق الأدنى لشىء يقال له يونانى أو لاتينى .

* * *

وان كنا نريد البحث والتدقيق فأية أمة فى العالم تظهر أنها من أصل واحد اليوم لم تكن مركبة فى الأصل من عناصر شتى ؟ . أفيظن الناس ان الانكليز كلهم من أصل واحد ؟ لا لعمرى ، فان منهم الانكليز النورمانديين ، ومنهم السلتيين ، وغير ذلك ، ولكنهم أصبحوا بمرور الزمن أمة واحدة ، يقال لها الأمة الانكليزية ، مع علمهم بما بينهم من تباين الأصول .

أفيظن الناس أن الافرنسيين هم من أصل واحد ؟ الجواب لا لعمرى ، ان الافرنسيين منهم قسم يرجع الى العرق الغالى ، ومنهم من يرجع الى العرق الجرمانى ، واسم « فرنسة » نفسها مشتق من قبيلة جرمانية يقال لها : الفرنك ، ومنها جاءت لفظة

الفرنج أو الافرنج التى يستعملها العرب عنوانا للأوروبيين من قبيل التغليب .

ثم ان من الافرنسيين جانبا يرجع أصلهم الى السلتيين ، وأكثرهم يسكنون فى ولاية بريطانية الافرنسية ، ومنهم جانب يرجعون الى النورمنديين ؛ وفى الجنوب من فرنسة يوجد جيل يقال لهم « الباشكونس » والافرنسيون يقولون لهم : الباسك ، وأكثر هذا الجيل يسكنون فى شمالى أسبانية .

ثم ان فى جنوبى فرنسة بقايا من سلائل الرومانيين واليونانيين ، ويقال ان فى جنوبى فرنسة بقايا من الفينيقيين ، وان مرسيلية انما اختطها هؤلاء ، وهلم جرا .

وهل يظن الناس أن الألمانيين كلهم من أصل جرمانى ؟ لا لعمرى ، بل يقال ان أهل بافاريا أصلهم من آسية ، جاءوا منذ آلاف من السنين ، فاختلطوا بالألمان ، وتعلموا لغتهم ، وصاروا اليوم ألمانا أقحاحا [1] .

وكذلك أبناء السلالة السلافية كثيرون جدا فى شرقى ألمانية ، وهم اليوم ألمان كغيرهم من الألمان .

ومثل هذا لا تخلو منه أمة ، حتى ان العرب أنفسهم — وان كانوا جميعا ساميين — ليسوا من أصل واحد ، فمنهم العرب البائدة ، مثل عاد وثمود وطسم وجديس . ومنهم العرب العاربة ، وهم سلالة قحطان . ومنهم العرب المستعربة ، وهم سلالة ابراهيم

---

(١) الاقحاح : الخالصون .

الخليل عليه السلام . ومع ذلك فان العرب أمة واحدة ، لا يقدح في وحدة أصلها الا شانىء [1] أو حاسد أو مشاق معاند .

وكذلك الأمة الألمانية ، هي اليوم أمة واحدة ، وكل ألماني جرماني أو سلافي أو بافاري يدخل تحت قولهم : ألماني ، ويعد من الجنس الآري . ومثل ذلك الأمة الافرنسية ، لا نعلم فيها واحدا يطالب بالانفصال عن الجنس الافرنسي ، الا فريقا من البريطانيين الراجعين الى أصل سلتي يرجع اليه أيضا أهل ارلندة ، وقسم من أهل انكلترة .

ولا حاجة بنا الى الاستقصاء من الأمثال والشواهد التي لا يأخذها الاحصاء .

فان كان في الأمة العربية اليوم أقوام هم من أصـل آرامي أو كنعاني أو نبطي ، أو غير ذلك ، فهذا لا يقدح في كونهم من جملة الأمة العربية الكبيرة البالغة سبعين مليون نسمة ، اتحدوا في الأصل السامي ، ثم اتحدوا في اللغة العربية ، وحسبك باللغة العربية عنوانا على العروبة .

وليست اللغة العربية وحدها هي البوتقة [2] التي ذابت فيها قبائل شتى فصيرتها جسما واحدا وروحا واحدة ؛ بل كل لغة من اللغات الكبرى كالانكليزية والألمانيـة والافرنسـية والطليانية والروسية قد كانت بوتقة ذابت فيها عناصر مختلفة الأصـل ، فصارت عنصرا واحدا .

---

(١) الشانىء : المبغض .
(٢) البوتقة : ما يصهر فيها المعدن .

وقد يوجد فى الأمة الواحدة علماء وأدباء فى لغة تلك الأمة اذا بحثت عن أصولهم وجدتهم غرباء عنها ، ولكنهم بسبب تضلعهم فى لغة القوم الذين اندمجوا فيهم صاروا من أعظم دعاة القومية فى تلك الأمة . وقلما تضلع انسان فى لغة قوم الا أحب أولئك القوم . ولهذا نجد أكثر علماء العربية من النصارى — سواء كانت أصولهم عربية بحتة ، أم لم تكن — يحبون العرب ويفتخرون بالعروبة ، وقد كان من الفرس ومن الترك علماء بالعربية جعلهم اتقانهم للعربية من أنصار العروبة .

ونحن نعلم أنه لما ضعف التدريس العربى فى تركية ، وغلب على ناشئتها تعلم اللغات الأوروبية واهمال اللغة العربية التى كانت لغة العلم عندهم من قبل — ضعف ميل الأتراك الى العرب ، بل انقلب الى النفور ، وانتهى بالعداوة . وما نقوله عن الترك فى هذا الباب نقدر أن نقوله عن الايرانيين . ومن جهل شيئا عاداه .

ولينظر الانسان الى أهل لبنان الذين أكثرهم من المسيحيين ، وأكثرهم من مستعربة الآراميين ، ومنهم من لا يزال فى لغته العربية نغمة تشعر أنهم بقايا قوم كانوا يتكلمون بالسريانية . فهؤلاء مع اختلاف الدين بينهم وبين جمهرة العرب عندما يتبحرون فى العربية يتولد عندهم حب جم للعروبة ، نجد ذلك فى أدبائهم الكبار ، كاليازجيين ، والبستانيين ، وآل عواد ، والشدياق ، والشرتونى ، وغيرهم .

وفى عصرنا هذا لم أعلم — الا فيما ندر — مسيحيا أتقن اللغة العربية ونبغ فيها الا وهو ميال بكل قوته الى العروبة ، وعدو

لمن ناوأها ، وأحيانا يميل الى الاسلام نفسه بميله اليها . ولعمرى اذا نظرنا فى المسلمين الأقحاح الذين دافعوا عن شريعة محمد ، وعن تاريخ محمد وخلفائه فى الأرض ، لم نجد كثيرا منهم يضارع فى هذا الباب الشاعر الشهير الأستاذ رشيد سليم الخورى الذى خدم الاسلام ببراهينه الساطعة ، وحججه الدامغة أكثر مما خدمه مئات وألوف من المسلمين أنفسهم .

وكذلك غرام الطيب الذكر جورجى الحداد صاحب القلم الحديدى باللغة العربية وآدابها جعله فى وقته من أمضى سيوف العروبة وأصدق حماة الاسلام .

ومن هذا القبيل أمين الريحانى الذى فقدناه أخيرا مبكيا عليه فى جميع العالم العربى ، فقد كان — أكرم الله مثواه — من المجلين [1] فى هذا الميدان ، ولا شك فى أن مرجع غيرة الريحانى على العروبة هو تمام ثقافته العربية ، وقد انضاف اليها علو مداركه وعمق تفكيره .

ومن هؤلاء الشاعر العبقرى الأستاذ خليل المطران الذى جردت شاعريته الفائقة منه صمصاما [2] يفرى حده أعداء العروبة .

وقد اطلعت لأبى الفضل الوليد بن طعمة من أدباء اخواننا المسيحيين اللبنانيين على شعر كثير يفيض كله شعورا عربيا ، حتى أننى أودعت الجزء الثالث من كتابى « الحلل السندسية فى الأخبار

---

(١) المجلى : هو الذى يأتى أولا فى السباق .
(٢) الصمصام : السيف لا ينثنى .

والآثار الأندلسية » قصيدة عذراء قالها على الأندلس لا ينفث بمثلها الا من شغف بالعروبة ، وأداه شغفه بها الى المفاخرة بمآثر الاسلام الممتزج بالعروبة امتزاجا يتعذر معه الفصل بينهما .

ومن أنصار العروبة المحضة فى اخواننا المسيحيين الأستاذ الخطيب المفوه داود مجاعص الذى كنت أتمنى أن يكون فى مسلمى العرب كثير فى حميته وغيرته على العرب .

وليس مرادى الآن توزيع شهادات على أعلام العربية والعروبة من اخواننا المسيحيين فى لبنان وسورية ، فانهم لا يحتاجون الى تزكيتى ، وانما أتيت الآن بذكر نفر منهم على سبيل الاستشهاد بأن الجامعة العربية هى من القوة والمتانة بحيث لا يصدعها اختلاف الدين .

لا جرم ان الدين الاسلامى جعل العقيدة الاسلامية فوق كل شيء ، ونهى الذين آمنوا عن أن يتولوا الذين لم يؤمنوا ، ولو كان هؤلاء من ذوى قرباهم ، أو كانوا أصولهم أو فروعهم . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها [1] وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا [2] حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

---

(١) اقترفتموها : اكتسبتموها .
(٢) تربصوا : انتظروا .

وفى ذلك ما يقول به المعترض : اذا كانت الوحدة الاسلامية هى المقدمة على كل وحدة أخرى من النسب واللغة والجوار والمصالح المشتركة ، فأية فائدة اذن أن يتحد نصارى العرب مع المسلمين منهم ؟ . والجواب عن ذلك سهل الى الغاية ، وذلك من وجوه :

الأول : انه اذا كان القرآن جعل الرابطة الاسلامية فوق كل شيء فانه جعل الحق فى المعاملات فوق الرابطة الاسلامية حتى انه سوى فى الحق بين المسلمين وغير المسلمين ، ونهى عن أن تكون العداوة الدينية سببا لحرمان الأعداء من حقوقهم ، فقال تعالى فى سورة المائدة : « ولا يجرمنكم شنآن قوم [1] أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب » . وقال تعالى فى السورة نفسها : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » .

فاذا كان الشرع الاسلامى لا يبيح لمسلم أن يجور على مسيحى ، أو على أى كان من غير المسلمين ، ولو كان عدوا له وللاسلام عموما ، وكان يوجب أن يوفر لهذا العدو حقه غير منقوص ، فأى مكان بعد هذا للخوف من الاجتماع مع المسلم فى حكومة واحدة ؟ وأى محذور من جعل القرآن رابطة الدين فوق

---

(١) لا يجرمنكم : لا يحملنكم . وشنآن قوم : بغضكم لهم .

كل رابطة ، وهى لا تقدر أن تبطل حقا ، ولا أن تحق باطلا فى معاملات المسلمين مع غير المسلمين ؟ .

* * *

ثم ان هناك فرقا فى نظر الشرع الاسلامى بين المشركين وبين أهل الكتاب ، الذين منهم النصارى واليهود ، فان هؤلاء بالنظر الى عقيدتهم بالخالق تعالى ينظر اليهم الاسلام بغير النظر الذى ينظر به الى الملحدين والمعطلين والمشركين ، فيقول الله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فأنت ترى أنه قد سوّى تعالى بين المسلمين وبين هذه الأمم فى استحقاق الأجر عنده تعالى وعدم الخوف من العاقبة . وقد يعترض المعترض هنا بأن هذا الحكم خاص بالمسيحيين الذين لا يقولون بمقالة التثليث ، ويستنكفون عن القول بألوهية المسيح عليه الصلاة والسلام ، ولكن يرد على هذا أن الله جعل باب الرحمة مفتوحا لأهل الكتاب ، فانه يقول فى آخر سورة المائدة على لسان سيدنا عيسى :

« ما قلت لهم الا ما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد . ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » .

وعلى كل حال فان بونا [1] بعيدا هنا بين الذين ترجى لهم

---

(١) البون : مسافة ما بين الشيئين .

المغفرة بحسب القرآن الكريم ، وبين ما تقوله الكنيسة من أن كل خارج عنها مهما كان صالحا هالك ذاهب الى النـــار من دون استثناء .

فاذا كنا نريد أن نجعل اختلاف العقائد الدينية مانعا دائما وأبدا لاجتماع الكلمة القومية ، فهنا ما يدعو المسلمين أن يبتعدوا عن المسيحيين أكثر مما يدعو المسيحيين أن يبتعدوا عن المسلمين .

ونحن مع ذلك لا نرى فى اختلاف العقائد الدينية ســببا لاختلاف العقائد السياسية ، بما تقدم لنا من اثبات الروابط الأخرى التى لا يمحوها اختلاف الدين .

وهناك وجه ثالث لتقاوب المسيحيين مع المسلمين ، لا يتنبه له من لم يتأمل القرآن العظيم ، فانه وارد فيه قوله تعالى بالنص الصريح : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون . واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » .

فقــد جعل اليهــود والمشركين أعــداء للمسلمين من دون النصارى ، وكان ذلك عقيدة عند المسلمين جميعا فى صــدر الاسلام وما بعده .

وقد ثبت فى السيرة النبوية أنه فى الحرب التى وقعت فى زمن الرسول عليه السلام بين الروم والفرس كان هوى المسلمين مع

الروم ، وهوى المشركين من العرب مع العجم ، فكانت تقع المجادلة بين الفريقين بهذا السبب .

ونزل فى سورة الروم من القرآن العظيم قوله تعالى : « غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، وعد الله لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وقد حقق الله هذه الآيات بأسرها ، اذ لم تمض بضع سنين على المعركة الأولى بين الفرس والروم حتى نشبت الحرب ثانى مرة ، وانتصر بها الروم ، وفرح المسلمون بذلك ، وخذل المشركون .

أقول : ولم يكن شىء فى صدر الاسلام وما بعده مدة قرون متعددة من العداوة التى صارت فيما بعد بين المسلمين والمسيحيين شنشنة يعرفونها من أخزم .

وقد كان الخلفاء : بنو أمية وبنو العباس والفاطميون والملوك الأيوبيون وبنو بويه ودولة المماليك وغيرهم الى الدولة العثمانية يعاملون المسيحيين كما يعاملون المسلمين ويقربونهم ، ويعولون عليهم فى مصالح الدولة ، وقد يستوزرون منهم ، ويجرون عليهم الأرزاق الوافرة ، ويتخذون منهم خواص ، وكانت لهم لديهم حرمات عظيمة ، حتى قيل ان أحد أبناء بختيشوع أطباء دار الخلافة عندما مات أمر الخليفة باقامة جنازته بحسب شعائر النصارى فى وسط بيت الخلافة .

* * *

وقد نلم فى مقالة أخرى بهذا الموضوع ، ونذكر منه طرفا صالحا .

* * *

ولكن العداوة بين المسلمين والمسيحيين لم تبدأ فى الشرق الا بعد أن فكر الغرب فى الاستيلاء على الشرق ، وزحفت الأمم الأوروبية كلها على المشرق ، تريد القضاء على دولة الاسلام ، بحجة استنقاذ بيت المقدس ، وارتكبت فى تلك الحروب من الفظائع ما اذا نقلناه لا ننقل منه حرفا واحدا الا عن تواريخ الأوربيين أنفسهم ، وان كنا نعلم أن روايات مؤرخى العرب عن تلك الحروب كانت كلها مطابقة للواقع ، وكنا نعلم أن الصليبيين لما دخلوا الى بيت المقدس ذبحوا من المسلمين سبعين ألف نسمة فى المسجد الأقصى ، حتى غاصت الخيل فى الدماء ، ولم يعفوا عن الأولاد ولا عن النساء ، وأن صلاح الدين الأيوبى عندما استخلص القدس من الصليبيين ، ودارت عليهم الدائرة ، قال لهم : « لو شئت لفعلت بكم ما فعلتموه بالمسلمين ، ولكنى أنزه الاسلام عن مثل أعمالكم » .

ثم استحياهم جميعا ، واكتفى عن كل جمجمة منهم بفدية دينارين ، ثم لما لم يجد أناس منهم ما يفتدون به أنفسهم أعفاهم صلاح الدين رحمه الله من الفدية أيضا .

ثم لما لم يجد أناس منهم ما يأكلون فى طريقهم الى « صور » التى كانت لم تزل فى أيدى الافرنج أحسن اليهم بأموال لأجل قوتهم الضرورى ، وأنعم على أمرائهم وأميراتهم بما تمكنوا به من السفر .

وهكذا اعترف مؤرخو الافرنجة بأن عمل صلاح الدين هذا فى مقابلة عمل الصليبيين جاء لطخة عار على جبين أوروبة الى الأبد ، وبضدها تتبين الأشياء .

* * *

ولماذا نحن مجتهدون فى تبيين ما جرى علـى المسلمين فى الحروب الصليبية من قبل الفرنج من الوقائع الوحشية ، وها نحن أولاء نشاهد بأعيننا فى هذا العصر الذين يقولون له عصر النور والمدنية من أعمال الأوروبيين بعضهم ببعض ، وكلهم من جنس واحد ، ما لو لم نكن مشاهديه ومعاصريه لما كنا نصدقه ، فكيف تكون يا ليت شعرى أعمـال أجدادهم فى عصر الهمجية وجهل الجاهلية فى معاملة المسلمين الذين غلبوا عليهم ؟ .

وليس هنا مقام الكلام على الحروب الصليبية من حيث هى وقائع ومعارك ، ولكن كلامنا هذا عليها من حيث هى أسـباب ونتائج .

فنقول ان العروبة كانت جامعة قوية خفيت معها افتراقات المذاهب واختـلافات الأديان بما غلب على ذلك من النعرة [1] القومية والصارخة الدموية . ولم يشعر التاريخ بعداوة حقيقية بين النصارى والمسلمين من العرب فى البداية ، وانما كانت هناك عداوة بين الأعارب والأعاجم ، وكان العرب فى هذه العداوة صفا واحدا : المسلم منهم والمسيحى .

---

(١) النعرة : الخيلاء والكبر ، والعرق فار منه الدم . والصارخة: الاغاثة .

وربما قيل لى : كيف تقول ذلك وقد ذكرت التواريخ أن متنصرة العرب من بنى غسان وتنوخ وجذام وغيرهم قاتلوا فى صفوف الروم عندما نشبت وقعة « أجنادين » ومعركة «اليرموك» وغيرهما ؟ .

وأجيب عن ذلك : أولا : انه كما قاتل يومئذ كثير من نصارى العرب فى صفوف الروم قاتل منهم آخرون فى صفوف المسلمين .

ثانيا : لم يكن قتال نصارى العرب فى صفوف الروم تغليبا للنصرانية على العروبة ، وترجيحا للعقيدة على القومية . ولكن كانت الدولة الرومانية هى الدولة الحاكمة على البلاد الشامية ، وكان قسم من العرب رعايا لها ، وكان الغساسنة عمالا للقياصرة على حوران ، فكان لابد لهم من طاعة الدولة الرومانية التى كانوا تابعين لها . وهذا له أشباه اليوم فى تجنيد دول أوروبة مئات ألوف بل ملايين من المسلمين الذين ليسوا على دينهم ، وقد يقاتلون بهم أنفس المسلمين ، بل يمكن أن يقال ان أكثر فتوحات أوروبة فى بلاد الاسلام من آسية وأفريقية انما تمت على أيدى جنود من المسلمين ، بقيادة ضباط من الأوربيين ، وذلك لأن هؤلاء المسلمين قد غلبت عليهم الدول الأوروبية ، فساقتهم بعصا القهر ، حتى فى قتال أبناء دينهم ووطنهم ، مما هو نتيجة الضعف والجهل والعجز والذل والاستكانة وقبول الاهانة ، والا فان هؤلاء المسلمين الذين يقاتلون اخوانهم وأبناء ملتهم فى صفوف الجيوش الأوروبية هم فى أنفسهم لا يجهلون ما فى عملهم هذا من البشاعة والمهانة ، ولكنهم مسيرون لا مخيرون . ومنهم من غلبت عليهم الشقوة

فصاروا للأجانب عمالا ودعاة ، يواطئون على ملتهم ووطنهم ، ويبيعون مقدسات الاسلام بمطاعم وبيئة ومنافع خسيسة .

وعلى كل حال هذه الحالة هي موجودة لا سبيل الى المكابرة فيها ، وهم نعم العذر للمسيحيين من العرب عندما يحطبون فى حبال هؤلاء الأجانب ، ويخرجون من الجامعة العربية ، فانهم يقدرون أن يقولوا للاستقلاليين والأحرار من العرب : قبل أن تستنكروا انضمامنا الى الأوروبيين فى مقاومة الحركة العربية الاستقلالية يجب عليكم أن تمنعوا انضمام من هم أكثر منا عددا وأوفر مددا ، وهم من أبناء ملتكم المسلمين الذين يقاتلونكم تحت رايات الاستعمار الأوروبى . فان كان المسلم يستبيح لنفسه نصرة الأجنبى المتغلب على أخيه فى الدين والنسب ، فلا عجب بعد ذلك أن يستبيح العربى المسيحى نصرة الأجنبى على أخيه فى النسب فقط .

فقتال المتنصرة من العرب يوم فتوح الشام الىجانبالروم كان من قبيل قتال المسلمين اليوم فى جانب الدول الأوروبية عندما تزحف على الاستيلاء على بلاد المسلمين ناشئا عن الضعف والجهل والعجز والاستخذاء .

ولقد أوجد فتح المسلمين للشام فى زمن الخلفاء الراشدين وعصر بنى أمية عداوة بين العرب والروم الذين نزع العرب هذه البلاد من أيديهم ، فكان استردادها يعن دائما على بالهم ، وكان الروم يكرون من وقت الى آخر على سواحل الشام وسواحل مصر ، ويغزون المسلمين فيها ، ويسبون ويعيثون ، بحيث أن

الخلفاء كانوا يقابلونهم بالمثل ، ويغزون بلاد الروم ، ويعيثون فيها ، ويسبون ويأسرون .

وقد ألجأهم الأمر أن يقصدوا الى القسطنطينية نفسها ، ليأخذوا بمخنق الدولة الرومانية . وكان الروم يداخلون مردة [1] جبل لبنان وجراجمة جبل اللكام ، ويثيرونهم على خلفاء دمشق أملا باقلاق راحة العرب وأخذا بالثأر .

ولكن العداوة فى الحقيقة انما اشتدت بين المسلمين والمسيحيين فى الشرق عندما قامت أوربة بحملاتها الصليبية على بلاد الاسلام ، فكانت المصارعة بين الفريقين فى الشرق الأدنى من جهة ، وفى الأندلس من جهة أخرى .

ولم تزل أوروبة تنفخ فى هذا النفير من ذلك الوقت ، وكلما هدأت حركة العداء بين المسيحيين والمسلمين فى الشرق جاءت الدول الأوروبية فأشعلت نارها . وهكذا لم تزل الفتن بين العنصرين فى الروملى والأناضول الى أن انفصل كل من العنصرين عن الآخر فى أخريات هذه الأيام ، فخلت بلاد الروملى من المسلمين ، الا بقية فى أدرنة وجوارها ، وخلت بلاد الأناضول جميعها من النصارى .

وكان المسلمون فى جنوبى البلقان عدة ملايين ، وكان النصارى فى الأناضول عدة ملايين أيضا ، ففقد كل من الفريقين وطنه ، وانضوى هؤلاء الى بلاد اليونان ، وأولئك الى تركية . وكل هذا

---

(١) المردة : جمع مارد،وهو المرتفع ، والعاتى . والجراجمة : قوم من العجم بالجزيرة ، او نبط الشام .

منشأه أطماع الدول الأوربية التى كانت توقد النار بين المسلمين والمسيحيين فى الشرق ، على أمل كسر الدولة العثمانية وتقسيمها بينهن .

ولما انكسرت الدولة العثمانية كسرتها الأخيرة فى الحرب العامة ، وتقلص ظلها عن البلاد العربية ، جاءت الدول الأوربية التى كانت تقاتل الأتراك بحجة الانتصار للعرب ، فأخذت تقاتل أنفس العرب الذين كانت تزعم ارادة تحريرهم من سلطة الترك ، فاذا هى تريد نقلهم من عبودية كانت ناقصة ، وكانت مقرونة بشيء من المساواة الى عبودية تامة ، ليس فيها الا الخضوع للسلطان الأوربى القاهر ، وهى مع ذلك تزعم أنها انما جاءت لتحمى الأقلية المسيحية من تسلط المسلمين .

ولكن اخواننا المسيحيين أو العقلاء منهم يتذكرون أن حماية هذه الدول لنصارى الأناضول ، وكانوا لا يقلون عن سبعة ملايين نسمة ، قد أدت بهؤلاء الى خروجهم عن أوطانهم ، وفقدهم جميع أملاكهم والنعمة التى كانوا يتمتعون بها من أعصر متطاولة .

وقد حاول الانكليز قبل الحرب العامة أن يثيروا الأقباط على المسلمين فى مصر ، ليتخذوا من الأقباط أعوانا على استعمار انكلترة للديار المصرية . الا أن الأقباط بعد أن تذبذبوا بعض الشيء فى البداية رأوا الأصلح لهم الاتفاق مع المسلمين على صيانة استقلال مصر ، ومضوا فى هذه السبيل غير مترددين ، ولم تكن صفقتهم بذلك خاسرة ، اذ لا يوجد بلاد الاتفاق الوطنى بين أهلها أشد مما هو فى مصر ، مع أن المسلمين مستمسكون بدينهم ، والأقباط

مستمسكون بدينهم . ولكن الجامعة المصرية عامة للفريقين بدرجة واحدة . وترى المسلمين لا يفرقون أصلا بين قبطى ومسلم ، وانما ينظرون الى نافع وغير نافع ، وطالما انتخب المسلمون عن أنفسهم نائبا من الأقباط بسبب أهليته .

فكان ينبغى أن يكون مثل الأقباط والمسلمين نصب أعيننا جميعا ، فنحسن تطبيقه فى سورية ، ونخلص من أى أجنبى امتدت يده الى بلادنا ، ونجعل البلاد لأهلها ، ولا نذل لأى أجنبى يتغلب علينا بحجة أنه جاء يحمى فريقا من اعتداء فريق آخر ! وهو فى الواقع يقصد اذلال الفريقين واستغلال الفريقين .

فهل يا ترى خسر الأقباط فى مصر باتحادهم مع المسلمين ، وقيامهم بشأن الوطنية المصرية ، وعدم استماعهم لوساوس الانكليز أم ربحوا ؟ .

لا جرم أنهم ربحوا ربحا ماديا ومعنويا معا ، ولم يقع عليهم أى اجحاف ، ولا أى مساس بكرامتهم من حيث هم مسيحيون ، وانك لتجد القضية المصرية عزيزة على القبط عزتها على المسلمين ، من دون فرق ، فهل كان هذا الاتحاد أطبق على مصلحة الفريقين وأعود عليهما مادة ومعنى أم الافتراق والعمل بدواعى الشهوة والسير وراء الغرض ، بحجة أن القبط هم غير المسلمين ، وانه من حيث كان الانكليز نصارى مثل القبط وجب على هؤلاء أن يشايعوهم حتما فيما ساء وما سر ، وما نفع وما ضر ، ولو كان فى ذلك مضرة بالوطن المصرى عموما .

وهل يا ترى هذا الوئام الذى جمع شمل المصريين هو أحسن

لصالح المصلحة العامة ، أم ذلك الشقاق الذى فرق بين الأتراك والأرمن ، وبين الأتراك والأروام فى بلاد الرومللى والأناضول ، حيث لعبت الدسائس الأوروبية ألاعيبها ، فانفجرت الدماء أنهارا ، وجرت على الفريقين مصائب لا تحيط بوصفها الأقلام ، وانتهى الأمر بقرار من أنفس الدول الأوروبية اللائى كان لهن اليد الطولى فى هذا الشقاق البعيد والبلاء العظيم : أن قررن فى مؤتمر لوزان سنة ١٩٢٣ جلاء جميع المسيحيين عن الأناضول ، وجلاء جميع المسلمين عن الرومللى وجزائر الأرخبيل .

فخرج كل فريق من الفريقين يندب وطنه ، وينوح على مسقط رأسه ، ويلعن أولئك الذين صح فيهم قوله تعالى : « كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برىء منك انى أخاف الله رب العالمين » .

ثم ان الجامعة العربية الناظمة لشمل المسلمين والمسيحيين من العرب هى أشد قوة وأحصف مريرة بالنظر الى وحدة الدم واللغة والمصلحة من روابط سائر الأمم الدامجة بعضها مع بعض ، وعهدنا أن السوريين واللبنانيين والفلسطينيين يفوقون كل قبيل فى تقدير المصالح الراهنة ، والتبصر بعواقب الأمور ، بحيث يضرب بهم المثل فى الادراك ، وثقوب الفكر ، وصحة الحساب .

فاذا كانت سائر الأمم تجتمع على كلمة الوطن حفظا لمصالحها المادية وكرامتها الأدبية ، فمن أولى من السوريين واللبنانيين بذلك ؟ .

نعم ان عرب فلسطين سواء كانوا من المسيحيين أم من المسلمين قد استغنوا والحمد لله عن البحث على الوئام ، ولم تكن بهم حاجة الى مثل عظاتنا هذه ، وذلك بمصيبة اليهود التى حلت بهم ؛ وكانت ميثاقا وطيدا بين المسلم والمسيحى ، اذ كل منهما يعرف ترشيح الانكليز واليهود لفلسطين أن تكون فى المستقبل مملكة يهودية . فكفاهم هذا الخطر مؤونة الوعظ من أجل الاتفاق ، وان كانوا نكبوا من جهة أخرى ببلية امتاز فيها المسلمون على المسيحيين ، وهى أن أكثر الخونة الذين رضوا لأنفسهم بخدمة اليهود ، وسمسروا على الأراضى ، وتجسسوا للانكليز ، ومرقوا من العروبة والوطنية ، بل مرقوا من الانسانية ، وزوروا المكاتيب ، ووشوا على أبناء وطنهم الوشايات التى بها أزهقت أرواح المئات والألوف من المدافعين عن عروبة فلسطين هؤلاء كانوا من المسلمين — ان الله لا يستحيى من الحق — فأما سورية ولبنان فعسى أن لا تصابا بمجيء اليهود حتى تتفق فيهما كلمة المسلم والمسيحى .

ولنا الأمل فى أن تكون العروبة سواء كانت من جهة الدم أو من جهة اللغة هى الجامعة الكلية ، لا بين المسلم والمسيحى فقط ، بل بين أبناء الفرق الاسلامية من سنة وشيعة ودروز وعلويين واسماعيليين ، وبين الفرق المسيحية بعضها من بعض من أتباع الكنيسة الشرقية وأتباع الكنيسة الغربية .

وهكذا يرتفع شأن الأمة السورية ، وتصان منافعها ، وتتخلص من الذلة والمسكنة ، وتصير من أقوى أعضاء الأمة العربية ، وهذا

أولى من السير على قاعدة : « بى وبأعدائك يا رب » مما لا يقول به عاقل ولا رشيد ، فان المصالح لا تعمر ، والخيرات لا تدر ، والأوطان لا تصير عزيزة ، والأقوام لا تكون محترمة ، الا اذا بنيت الادارة على أساس العدل ، ودارت السياسة على محور العقل ؛ وفى هذا كفاية .

شكيب ارسلان

جنيف فى أيلول سنة ١٩٤٠

شكيب والإسلام

كان الكثيرون من أصدقاء شكيب وأصحاب المجلات التى يكتب فيها يطلقون عليه ألقابا كثيرة ، أشهرها لقب « أمير البيان » ، ولقب « كاتب الاسلام » ، ولقب « كاتب الشرق الأكبر » .

والواقع أن أمير البيان قد نصب من نفسه — منذ شبابه — حارسا لقضايا الاسلام والعروبة ، وظل يقوم بمهمة الديدبان حول هذه القضايا . فما يكاد يبلغه أن أمرا من أمور المسلمين أو العرب يحتاج الى دفاع أو تبيان أو نشر حتى يسارع الى ذلك بروح المسلم الغيور الذى آتاه الله يقظة فى الجنان وبراعة فى البيان .

ولقد سئل شكيب : « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم » ؟ . فسارع بالاجابة على ذلك ، وامتد نَفَسه فى الجواب حتى تكون منه كتاب عنوانه هو السؤال نفسه ، وصفحات هذا الكتاب المشهور تفيض بدلائل الغيرة الشكيبية على الاسلام والمسلمين ، وحسرته على ما أصاب أبناء هذا الدين العظيم من ضعف وعسف ، حين تباعدوا عن دينهم ففقدوا مكانتهم وعزتهم فى حياتهم .

ويقول السيد رشيد رضا فى تقديمه هذا الكتاب انه « آية من آيات بلاغته ، وحجة من حجج حكمته ، لعلها أنفع ما تفجر من ينبوع غيرته ، وانبجس من معين خبرته ، فسال من أنبوب براعته ، جزاء الله خير ما جزى المجاهدين الصادقين »[1] .

---

(١) لماذا تأخر المسلمون ، ص ٥ .

وعلى الرغم من أن أمير البيان قد كتب هذا الكتاب عام ١٩٢٩ وتأثر فى مواضع منه بالأحداث التى كانت قائمة حينئذ فى العالم الاسلامى ، نجد الكثير من آراء الكتاب وأفكاره ما زال جديرا بالاحتذاء والاقتداء .

ولقد كتب الشيخ سليمان الظاهر عضو المجمع العلمى العربى بدمشق عن « شكيب المسلم » فى مجلة « العرفان » اللبنانية ، فكان مما قاله : « الأمير شكيب المسلم المجاهد فى سبيل الاسلام واعلاء كلمة الاسلام ، لم يكن مسلما جغرافيا ليس له من الاسلام الا اسمه ، ومن معناه وفحواه الا رسمه ، بل كان المسلم الحقيقى الذى عرف أن الاسلام عقيدة وعمل ، وأنه دين انسانى عام ، لا دين شعوبية وقبلية وعصبية واقليمية ، ولا دين أجناس وألوان، بل هو ما تجده منطويا على منطوق هذه الآية الكريمة من كتاب الله العزيز : (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) » .

ويصور الشيخ الظروف والأسباب التى هيأت لشكيب أن يخرج الى الحياة بالروح الاسلامية القوية ، وبالرغبة الوطيدة الأكيدة للعمل من أجل الاسلام والمسلمين ، فيقول : « كان اسلام الأمير من هذا النوع الذى هو روح الاسلام ، وقد شاء الله تعالى أن يربّى تربية صالحة فى بيت عريق فى المجد والنبل والصلاح ، وأن يتاح له الى ذلك — وما طرّ شاربه ولا اخضر عارضاه ، وهو فى مرحلة التعليم — الاتصال بحكيم الاسلام الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده المصرى تلميذ فيلسوف الاسلام والشرق السيد

جمال الدين الأفغانى أو الأسد أبادى الايرانى ، ورفيقه وشريكه فى بعث النهضة الشرقية والاسلامية ، وقد ألقى رحله مضطرا لا مختارا فى بيروت مدينة العلم والثقافة ، وفوّض اليه تعليم العلوم الدينية والأدبية فى المدرسة السلطانية .

فمكن له ذكاؤه ، وتربيته البيتية الصالحة ، وهذا الاتصال بالأستاذ الحكيم الذى رافقه ناشئا وشابا وكهلا بأن يفهم الاسلام فهما صحيحا مجردا من كل ما ألصق فيه مما هو ليس منه ، لا فى خل ولا فى خمر » ! [1] .

ومن مظاهر النزعة الاسلامية عند شكيب أن يحرص على معارضة ما يقوله فريق من الباحثين من أن الدروز الذين يُنسب اليهم سياسيا غير مسلمين ، فيعنى بتأكيد أن أغلبيتهم من الشيعة ، وأن قلة منهم فى أصولها من أهل السنة ، وبعد أن يثبت عروبتهم يقرر أنهم مشتقون من « الشجرة الاسلامية المباركة » [2] .

ويعنى شكيب بتطبيق ما آمن به من وجوب توثيق الروابط بين العروبة والاسلام ، ويبذل فى ذلك من الجهود ما عرفنا أطرافا عنه فى مكان آخر ، ونراه فى بحث له مثلا يثبت أن مسلمى الحبشة من أقرب الناس الى الأمة العربية ، بل انهم ساميون ينتسبون الى

---

(١) مجلة العرفان ، جمادى الأولى ١٣٧٥ هـ .

(٢) عروة الاتحاد ، ص ٣٦ .

نفس السلالة التى ينتسب اليها العرب ، وهم فى موقعهم الجغرافى مصاقبون لجزيرة العرب[1] .

ومن مظاهر اهتمام شكيب بالاسلام والمسلمين أن يكتب الى الأستاذ على رشدى بالقدس رسالة اطلعت عليها وتاريخها ١٥ ربيع الأول ١٣٥٥ ، يحدثه فيها عن تنصر شاب من بنى عبد الجليل أحسن العائلات الاسلامية فى « فاس » بسبب خلل فى تفكيره ، وتربيته فى المدارس الأجنبية ، وينعى شكيب ذلك على المسلمين ، ويأسى له ، ويصور حزن المسلمين هناك لما حدث ، وفرح غيرهم به ، كما يبين تقصير العلماء لأنهم لم يزيلوا الشبهات عن هذا الشاب بالأدلة القوية .

ويطلب شكيب من الأستاذ رشدى أن يكتب اليه بيانا عن المتناقضات والأغلاط العلمية والروايات المستحيلة الموجودة فى الكتب الدينية لغير المسلمين ، حتى يطلع عليها عامة المسلمين .

وبلغ شكيب فى سنة ١٩٢٥ أن الانجليز فى العراق قد سرقوا محرابا أثريا من جامع فى بغداد يسمى جامع « الخزقى » أو « الخاصكى » فى شارع باب القرايا ببغداد ، وهذا المحراب يرجع عهده الى تاريخ تأسيس دار السلام : بغداد ، وهو قطعة كبيرة واحدة من الرخام ، أدخلت فى جدار الجامع ؛ ويعد آية من آيات الفن الاسلامى ، وشعارا تاريخيا للمدنية فى عهد العباسيين ،

---

(١) الفتح ، ٢٥ جمادى الآخرة ١٣٥٢ هـ.ومصاقبون: مواجهون.

ويغلب على الظن أنه محراب الجامع الكبير الذى بنـــاه الخليفة المنصور مؤسس بغداد حوالى سنة ٧٦٦ ميلادية .

بلغ شكيب خبر السرقة فثار ومار ، وكتب يســائل حكومة العراق : كيف يقع مثـــل هـــذا ؟ ومن اختلس هذا الأثر ؟ وأين ذهب به ؟ .

ثم يعقب بأن فرنسة — هى الأخرى — قد اختلست الكثير من آثار سورية ، وأنه قد احتج على ذلك لدى عصبة الأمم كما احتج السوريون . ثم يقول : « لا يجوز ترك هذه القضية ، وان لصوص الفن كسائر اللصوص وقطاع الطرق ، وشرف المسروق لا يسوغ السرقة » .

ويعلق أحمـــد زكى باشـــا على الموضوع منوها بأن جرائم الانجليز فى العراق أكبر وأضخم من سرقة المحراب قائلا :

« فيا سيدى الأمير شكيب : عجبت لك يا أمير البيان ، ويا رب المعجزات ، ويا ساحر العقول والألباب ، يأخذك العجب لما اغتصبه الانكليز فى هذا العهد الأخير من ذخائر بغداد ، أفهل نسيت أننا نندب حظ بغداد والعراق بما فرضوه عليهما لأنفسهم من حـــق الانتداب ؟ .

(ايش) [1] هو المحراب ، بجانب ما حواه المتحف البريطانى من الأسلاب ؟ . (ايش) هو المحراب بالنســـبة لابتلاعهم ما بين

---

(١) ايش : أى شىء .

الرافدين وما حول الرافدين باسم الانتداب ؟ . استغفر الله لى ولك، يا أميرى » ! .

وبعد قرابة شهر يبشر أحمد زكى صاحبه برجوع المحراب الى مسجد « الخاصكى » ، ويقول انه التقى بشبان عراقيين فى القدس فافهموه أن المحراب سرق أولا ، ووضعه سارقه فى مخزن وزارة الأوقاف ، حتى يرى ما يكون من أمر الرأى العام ، وبعد ذلك تتم سرقته ، ولكن الرأى العام ثار فرجع المحراب الى مكانه ، واطمأن شكيب [1] ! .

وبعد أن انتقل شكيب من سورية الى أوربة وقرر الاقامة بها زاد اشتغاله بالأمور الاسلامية ، فهو يكتب عنها ويجاهد لها ، وهو يرأس المؤتمر الاسلامى الأوربى لبحث ما يتعلق بالمسلمين فى أوربة، وهو يفتتح ومعه آخرون المعهد الاسلامى ببرلين يوم ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٧ ، وهو يتخذ من بيته المتواضع منتدى اسلاميا يجتمع فيه من يزور أوربة من مفكرى المسلمين ، كما يتلقى هذا البيت كل حين رسائل اسلامية من مختلف جهات العالم الاسلامى ، فيدرسها شكيب ، ويرد عليها .

وعلى الرغم من عناية شكيب الكبرى بالشئون الاسلامية والأمور الدينية ، نراه يتحرز من التعصب والطائفية ، وهو الذى يقول : « الله يعلم أننا لا نحث المسلمين على دعاية بين المسيحيين أو بين اليهود ، ولا يهمنا ان دخل فى الاسلام زيد أو عمرو ، ولا

---

(١) انظر اعداد الشورى بتاريخ ٤و ١٨ مارس و١٤ مايو١٩٢٦.

نفرح بأشياء من هذا القبيل ، وذلك لأننا نعتقد ان الاعتبار انما هو للكيفية لا للكمية ، وأن عدد المسلمين كاف ليتكون منهم أمم عظيمة راقية لو كانوا هم معتنين بأنفسهم ، فالذى يحتاجون اليه انما هو تعليم الجهلاء منهم ، وهم العدد الأكبر [1] » .

ويزكى الأستاذ أمين أبو عز الدين هذا المعنى عند شكيب حيث يقول : « وتحسن الاشارة هنا الى أن الأمير شكيب كان بعيدا عن فكرة التفريق بين الشعوب والملل ، ولم يقصد يوما أن ينال من أى دين آخر ، أو أن يحرك تعصب الاسلام على المسيحية كما فعل فريق من كتاب الغرب أمثال هناتو وكرومر وزوايمر فى تهجمهم على الاسلام وما بدا فى كتاباتهم من خطة العداء والتعصب والبغضاء .

فكان عنيفا ولا شك فى الرد عليهم ، مفندا مزاعمهم ، فاضحا خططهم بحجته العلمية الدامغة ، دون ما تبذل فى الجدل الدينى ، أو التعرض لمعتقدهم ، كما فعلوا فى تعرضهم للاسلام [2] » .

ومن حرص شكيب على اظهار نزوعه الى السماحة الدينية ، ونفوره من التعصب أنه يروى لنا وهو يتحدث عن الترك أن السلطان محمد الفاتح بعد أن انتهى من فتح العاصمة الرومانية أخضع بلاد اليونان بأجمعها ، ودخلت جيوشه بلاد الصرب وسبت خمسين ألف نسمة من رجال ونساء .

---

(١) الفتح ، ٢٢ اغسطس ١٩٢٩ .

(٢) مجلة الأديب ، عدد شباط ١٩٤٧ .

فأرسل (جان هوينياد) بطل المجر الى (برانكو ويتش) ملك الصرب يعرض عليه التحالف للزحف سويا لقتال العثمانيين ، فبعث اليه برانكو يقول : ماذا تصنع فيما اذا تغلبت أنت من جهة الكنيسة ؟ . فأجابه هوينياد : أقرر العقيدة الكاثوليكية . أى ويقاوم غيرها .

وكان سفراء برانكو ويتش قد سألوا السؤال نفسه للسلطان محمد الفاتح فقال : بجانب كل جامع أبنى كنيسة ، وكل من الفريقين يعبد ربه كما يشاء (١) ! .

ويبلغ شكيب قمة احترامه للحرية الدينية حين يقول : « والله لو علمت أن مسلمى نابلس أرادوا — وهو فرض محال — أن يعترضوا المائتى سامرى الذين عندهم ، والذين هم بقية كل من بقى من السمرة على وجه الأرض ، وذلك فى شىء عائد الى شعائرهم الدينية ، أو أرادوا مثلا أن يجبروهم على الصلاة بالعربى ، لكنت أول من اعترض وخاصم عن السمرة ، وأقمت القيامة من أجل حريتهم الدينية (٢) » .

ولكن ليس معنى هذا أن الفوضى تسود المجالات الدينية ، فتكون الحرية فيها حرية مطلقة بلا حدود أو قيود ، لأن أوربة نفسها — وهى التى يتخذها الكثيرون قدوة ومثلا — لا تفتح باب الحرية الدينية على اطلاقه وسعته ، وذلك لأن أوربة — كما

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ١٣٤ .

(٢) الفتح ، ١٣ ذى القعدة ١٣٥١ .

يقول شكيب — قارة فيها عقل ، والعقل يمنع الاطلاق التـام ، والاطلاق التام معناه عدم العقل ، وما العقل فى اللغة الا الربط ، وهو ضد الاطلاق كما لا يخفى ، ثم يتحدث شكيب عن القيود الموجودة فى سويسرة فيما يتعلق بالعقائد والمذاهب والنشر [1] .

وشكيب يؤمن بوثاقة العلاقة بين العقيدة والحكم ، أو بين الدين والدولة ، وهو يبدىء فى ذلك ويعيد ، ولا يكتفى ببيـان وجهة الاسلام فى الموضوع ، بل ينتقل الى تأييد أصله بشواهد يوردها من الغرب ومن تصرفات الدول الأوربية ، حتى يكون ذلك اقناعا للذين لا يقتنعون الا اذا جاءهم الدليل ، وقد كتب عليه : « صنع فى الخارج » ! .. مع أن هناك فرقا جـوهريا بين منهج الاسلام ومنهج غيره فى هذا الباب .

وهناك مقالات كثيرة كتبها شكيب فى مجلة « الفتح » حول هذا الموضوع ، وخاصة فيما بين السنتين الثالثة والسـابعة من سنوات المجلة ، وهو يتحدث فيها عن اعتزاز الدول الأوربيـة بالدين ، ويشنع على الشرقيين الذين يقولون ان التقدم لا يكون الا بالالحاد ، وبفصل الدين عن الدولة ، ولو أننا جمعنا هـذه المقالات لتهيأ منها كتاب كبير فى هذا الموضوع .

وها هو ذا شكيب فى سنة ١٩٢٩ يذكر لنا المعاهدة التى عقدت بين الكرسى البابوى والدولة الايطالية ، وهى المعاهدة التى نال فيها البابا والفاتيكان حقوقا كثيرة أوردها ، ثم يشير الى قـول

---

(١) المرجع السابق ، ٣٠ صفر ١٣٥٠ هـ .

جريدة الطان : « ان روح هذا الاتفاق معناه أن الحكومة الايطالية الفاشستية تعتد الدين الكاثوليكى هو دين الدولة » .

ويعلق شكيب بقوله :

« فهذا هو — أيها الملحدون باسم التجدد ، وأيها المجددون ولا غرض لهم سوى الالحاد — ما قرَّ عليه رأى الدولة الايطالية الجديدة التى تبغى أن تكون رجعية نحو الدين ، جامدة على تعاليم الكنيسة التى مضى عليها قراب ألفى سنة ، ولم يضر ذلك برقيها شيئا ، ولا بسيرها فى طريق المادة سيرا مدهشا .

وهذا — أيها الشرقيون الذين يسفسط عليكم بعض رجالكم بكيفية فصل الدين عن السياسة — نوع من أنواع هذا الفصل .. بيناه لكم وأعطيناكم خلاصته لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذنٌ واعيــة »[1] .

وهناك كثيرون يزعمون أن الدين لا يتفق مع الرقى والتقدم ، لذلك لا تحرص على الدين الا الشــعوب المتخلفــة والأمــم الضعيفة ، ولكن شكيب يرى فى سنة ١٩٢٨ أن حكومة بلجيكة قد قررت مساعدة المبشرين المسيحيين لنشر النصرانية بين أهالى الكونغو ، وبلجيكة دولة مدنية متمدنة راقية مثقفة ، فكان من حقه أن يهتف :

« اذن المدنية تجتمع مع الدين ، اذن الحكومة تتصل بالكنيسة ، اذن اللادينية ليست شرطا من شروط الحضــارة الأوربية ، اذن

---

(١) الفتح ، ٧ مارس ١٩٢٩ .

بلجيكة أمة مسيحية ، ولا تزال مسيحية ، وحكومتها تتقرب اليها باعلان نشر الدين المسيحى ، اذن هذه الدعاية الدينية لن تضير رقى بلجيكة شيئا » ثم ينتقل الى استخلاص العبرة التى يحرص عليها ويسعى نحوها ، فيهتف :

« اذن الحكومات الشرقية التى تزعم أنها انما تقطع صلتها بالدين الاسلامى اقتداء بحكومات أوربة التى بزعمها قطعت صلتها بالدين المسيحى انما هى حكومات تضلل أفكار السذج من رعيتها، وتموه عليهم ، وتقصد حربا وتورّى بغيرها . اذن هذه الحكومات كاذبة فيما تزعم ، واذن ناشرو دعايتها فى مصر والبلاد العربية كاذبون أيضا . اذن على الأمة المصرية وعلى الأمة العربية جمعاء أن ينتبهوا للحقائق »[1] .

ولعل السبب فى هذه الحملات — كما يقول بعض الباحثين — هو أن الوسائل الاستعمارية استطاعت أن تمكر مكرها ، وتلعب لعبتها ، بعد أن أدركت تأثير العقيدة الدينية فى النفوس ، فعمدت الى فصل السلطة المدنية عن العقيدة الدينية ، فلم يصبح للوازع الدينى سلطانه ، وأخذت الأحكام تجرى فى تيار التقليد التام لنظم الغرب وأوضاعه ، فثار شكيب ، وأخذ ينبه الى العلاقة التى يجب أن تتوثق بين المجتمع والدين ، وبين الحاكم والعقيدة ، ولازم هذا التنبيه فى كثير من نقداته السياسية وبحوثه التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية .

---

(١) الفتح ، ٩ فبراير ١٩٢٨ .

ويذكر شكيب فى سنة ١٩٣١ أن ألمانية قد أصدرت أمرا يقضى بسجن كل من يكتب أو ينشر كتابا يهاجم الديانة ، ثم يقول : « انى آليت على نفسى أن لا أحاكم ملاحدة العالم الاسلامى الا الى أوربة ومآخذها ومتاركها . انى لا أقول لهم (قال الله تعالى) ولا (قال رسوله صلى الله عليه وسلم) لأنهم لا يعتقدون بالله ولا بالرسول ، ولا أقول لهم (قال جمال الدين الأفغانى) أو (قال محمد عبده) فانهم لا يأخذون بأقوالهما ، بل يحتقرونهما فى أنفسهم ، ويحتقرون كل شرقى .

ولا أقول لهم (قال أرسطو) أو (قال أفلاطون) أو (قال ابن سينا) أو (قال الفارابى) لأن هؤلاء قدماء ، وهم يحتقرون كل قديم ، ولا يأخذون بقول رجل قديم ، ولو قال : الاثنان والاثنان أربعة ! .

بل أقول لهم : قال المسيو فلان ، والمستر فلان ، والهر فلان ، والسنيور فلان ، وهؤلاء هم أئمة الأمم التى أنتم تدعون الى الاقتداء بها » . يقصد فرنسة وانجلترة وألمانية وايطالية على التوالى . ثم يضرب أمثلة على تمسك الدول الأوربية بالدين ، ثم يعرّض بدعاة الالحاد فى الشرق ، ويلوم بعض الحكومات الاسلامية التى تتذبذب فى هذه الأمور ، ولا تظهر فيها حزما [1] .

وشكيب يرى أن الدين ضرورى للبشر ، وما ثورات الالحاد الا غمرات ثم تنجلى ، أو فورات ثم تخمد ، وأن النزغات الالحادية

---

(١) الفتح ، ٢٧ المحرم ١٣٥١ .

التى تعرض للمجتمع الانسانى فى بعض الأوقات ليست الا عوارض مؤقتة ، لاتستطيع أن تكسب شكلا عاما ، ولا أن تستقر وتدوم ، ولا أن تقوم مقام العقائد الضرورية للبشر .

ويقرر شكيب أن التاريخ ينبئنا بأن أماثيل لهـذه النزغات وقعت ، حيث عصفت ريح الالحاد فى بعض الحقب ، ثم زالت واستقر الايمان ، وعاد الأمر كما بدا [1] .

* * *

وهناك من أعداء الدين من يحاربه باسم العلم ، ويزعم أن الدين يتعارض مع العلم ويقاوم الثقافة ، وهذه فرية شوهاء : فان الاشتغال بالدين وحده مع اهمال العلم هو — كما يفهم شكيب ويفهم معه كل مؤمن عاقل — سلبية تؤدى الى خراب العالم ، والدين الاسلامى لا يأمر بهذا ، ولا يرضى عنه ، بل هو يدعو الى أن يعمل الانسان لدنياه كأنه يعيش أبدا ، كما يعمل لأخراه كأنه يموت غدا ، والدين لا يكون دينا اذا كان عدوا للعلم .

ولكن الاشتغال بالعلم الدنيوى وحده مع هجر الدين يؤدى الى عبادة المادة ، والانقياد لشهوات البدن ، وضياع المثل العليا التى لا تتكون فى الأذهان ، ولا تصير هدفا للقرائح ومرمى للعزائم الا عند المؤمنين بدين الله تبارك وتعالى .

ولهذا يعنى شكيب بتبيان ما امتاز به سلف هـذه الأمـة الاسلامية العربية من الثقافة ، وما حملوه من العلم ، وما وسعوه من الثقافة ، وما بثوه من أشعة الحكمة فى الأرض ، حتى صاروا

---

(١) الارتسامات اللطاف ، ص ٨٤ .

فى العلم « أمة وسطا » بين اليونان القدماء والافرنج المعاصرين ، فوصلوا بين السابق واللاحق ، واتصلت باجتهادهم سلسلة العلوم والمعارف ، وامتدت بجهودهم أسانيد الحكمة ، ويقول شكيب :

« مدنية الاسلام قضية لا تقبل المماحكة ، اذ ليس من أمة فى أوربة — سواء الألمان أو الفرنسيس أو الانكليز أو الطليان ، الخ — الا وعندهم تآليف لا تحصى فى (مدنية الاسلام) . فلو لم تكن للاسلام مدنية حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعه ، مبنية على كتابه وسنته ، ما كان علماء أوربة — حتى الذين عُرفوا منهم بالتحامل على الاسلام — يكثرون من ذكر المدنية الاسلامية ومن سرد تواريخها ، ومن المقابلة بينها وبين غيرها من المدنيات ، ومن تبيين الخصائص التى انفردت هى بها .

فالمدنية الاسلامية هى من المدنيات الشهيرة التى يزدان بها التاريخ العام ، والتى تغص سجلاته الخالدة بآثارها الباهرة » .

وضرب شكيب بعد ذلك الأمثال على مدنية الاسلام ، ورد على الذين يقولون انها مدنية ناقلة لا مبتكرة ، وذكر أن الكثيرين يثبتون لها ابتكارها وسبقها ؛ ويرى أن كل المدنيات تشترك وتتمازج .

وحق لشكيب أن يقول هذا وأكثر منه ، فقد أقبل الاسلام على التربة العربية فى أول الأمر ، ثم على التربة الانسانية كلها بعد ذلك ، فأحيى مواتها ، ورد عليها حياتها ، وجدد لها اهابها ، وبعث فيها شبابها ؛ وتنزل القرآن الكريم من لدن الحق تبارك وتعالى على عباده المؤمنين به ، يحمل من أصول العلم والتشريع والثقافة

والمبادىء ، ومن قواعد المعتقدات والعبادات والمعاملات وتنظيم العلاقات ، ما كان أقوى حافز على تفجير طاقات البحث والادراك والكشف فى عقول الناس وقلوبهم .

وبدأ المسلمون يتخذون من هذا الهدى الالهى القرآنى العلمى الروحى رائدا على الطريق ، فمهدوه ومضوا فيه ، وأدخلوا الناس بالحكمة والموعظة الحسنة فى نور ربهم الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، ثم استطاع المسلمون أن يحسنوا اقتباس كل مفيد وكل نافع ، بعد أن هيأتهم الأقدار ليقوموا فى موطن التوجيه والقيادة للمجموعة البشرية .

ولم يكونوا فى هذا مقلدين ولا ناقلين ، ولا متـأثرين تأثر الضعفاء بالأقوياء ، ولا محاكين محاكاة الأقران للأقران ، بل أخذوا شيئا من هنا وشيئا من هناك وشيئا من هنالك ، وصهروه فى بوتقة عقيدتهم ومبادئهم ومثلهم ، وهضموا كل هذا الزاد ، ومزجوه بما لديهم من أزواد ، وكيّفوا كل هذا التراث تكييفا فيه التنظيم والتقويم ، وفيه التعديل والتحليل ، وفيه الزيادة والريادة ، وفيه الاصالة والجلالة .

وتمكن العرب المسلمون بهذا كله من مقاليد العلم والثقافة ، وبثوا أضواء هذه المدنية العربية الاسلامية فى المشرق والمغرب ، بينما كانت أوربة تغط فى نومها العميق ، ولم تستيقظ الا على أصوات العرب وهى تجأر فى ربوع فرنسة وايطالية وسويسرة ، بعد أن انفسح مجال السلطان العربى الفاتح بالعلم والنور ، قبل أن يفتح بالسلاح والقوة .

ومن هذه المدنية الاسلامية قبست أوربة ، وعلى هديها سارت، وبقوتها اعتزت وسادت .

والمدنيات ثلاثة أنواع ، فهناك مدنية روحية صرفة ، كمدنية الهند والصين فى القديم ، وهى مدنية يغلب عليها السلبية والانعزال والفرار من وجه الحياة ؛ وهناك مدنية مادية صرفة كمدنية أوربة وأمريكة على عهدنا ، وهى مدنية تقدس المادة ، وتكاد تعبد الشهوة ، وتستخف بالقيم ، وتستهين بالمثل والمبادىء ؛ وثمة مدنية ثالثة ، مدنية رشيدة مجيدة ، مدنية بصيرة معتدلة ، مدنية فاضلة واعية ، هى المدنية الوسط ، التى تعرف للروح قدرها ومكانها ، وللمادة قيمتها ووزنها ، فتأخذ من هذه بنصيب ومن تلك بنصيب ، وتمزج بين النصيبين بحكمة وبراعة ، فتخرج منهما مزاجا طيبا ، يشفى صدور قوم مؤمنين ، ويقضى حق الدنيا كما يعلى كلمة الدين.

تلك هى مدنية الاسلام التى فيها عزة الحياة وسعادة الأحياء .

ولهذه المدنية كان يدعو شكيب وأمثاله من حكماء الاسلام وأعلامه ، ومن أجل هذه المدنية كان يذكّر بقيمة العلوم الأدبية الى جوار العلوم المادية فيقول : « ان الغربى وان بذ الشرقى فى العلوم المادية فلم يبذه فى العلوم الأدبية أو العقلية ، وان المحققين من الغربيين معترفون بمزية الشرقيين فى الفلسفة والمنطق ، مقرون بأن الشرق هو منشأ الحكمة ومهد المدنية »[1] .

ولكن ليس معنى هذا أن تغلق الحكمة الشرقية والمبادىء

---

(١) النقد التحليلى ، المقدمة ، ص (هـ) .

الاسلامية بابها أبدا فى وجه العلـوم العصرية ، بل لها وعليها أن تأخذ من هذه العلوم ما يقويها ويعليها ، وأن تتذكر وهى تأخذ ذلك أنها لا تسرق ولا تغتصب ، بل هى تسترد فى حاضرها بعض ما قدمته الى البشرية فى ماضيها ، وهى على أقل تقدير تشارك فى زاد انسانى مشترك ، لا تستطيع أمة أن تزعم أنها انفردت بخلقه وابداعه من البداية الى النهاية .

ولذلك يقول شكيب : « ولا يجب القول عن العلوم العصرية بأنها علوم غربية ، بل هى علوم لا شرقية ولا غربية ، وهى علوم بشرية امتلأت حياضها من قطرات قرائح البشر منـذ تأسست الحضارة ، وصادف العصر الحالى تألق أنوار العرفان ، وارتقاء درجات المدنية فى الغرب ، كما صادف الأعصر السالفة ازدهار مصابيح العلم فى الشرق ، مما تنبئنا بعظمته الأخبار والآثار » (١) .

وشكيب لا يهدأ ولا يسكت اذا رأى من ينقد هذه المدنية أو يفترى عليها ، ولقد حدث أن جريدة « الديلى تلغـراف » الانجليزية الاستعمارية زعمت أن الاسلام أصاب شمالى أفريقية بالخراب والدمار ، فغضب غضبة مضرية ، وكتب فى صدر «الشورى» بتاريخ ١٨ يونيه ١٩٢٦ يؤدب الجريدة ويحاسبها ، ويفصل حديث مدنية الاسلام فى شمال افريقية ، فهى مدنية لا تقل عن مدنيته فى الأندلس ، وهناك كتاب جمع فيه مؤلفه الألمانى مجموعة رسوم رائعة لأنفس مبانى العرب فى بلدان شمال أفريقية ، وعلق عليها بالألمانية والفرنسية .

(١) الكتاب الذهبى ليوبيل المقتطف الخمسينى ، ص ١٢٥ .

وود شكيب لو أن أحدا من ذوى الحمية العربية اشترى نسخة من الكتاب ، وثمنه جنيه ونصف جنيه انجليزى ، وأهداه الى تلك الجريدة ، وكتب عليه عبارة اهداء يقول فيها : « هذا شاهد بكذبك » ! .

ولم يكتف شكيب بالرد ، بل استنفر للدفاع عن مدنية الاسلام « قاموس الآثار العربية واسقطس الخطط الشرقية أحمد زكى باشا » وكذلك « الأسد الرابض للافادة العلامة العام عبد العزيز الثعالبى » ! .

ولقد تمر على شكيب مواطن تستدعى المقارنة بين مبادىء الاسلام وغيرها من النظم والمبادىء ، فلا يترك شكيب الفرصة تمر دون أن يبين فضل الاسلام وامتيازه ، فهو مثلا يلتقى فى سنة ١٩٢٧ وهو يزور موسكو « بمدام كولونتاى » الروسية التى يسميها الروس « أم البلاشفة » والتى كان لها اليد الطولى فى الثورة التى أطاحت بعرش القيصر ، وأقامت الحكم البلشفى ، فيتحدث عن جمالها وتأثيرها ورقتها المتناهية ، ولكنها تحاوره حول الشيوعية ، فيجاهر بأن البلاد العربية ليست بحاجة الى الشيوعية ، لأن المبادىء الاسلامية فيها ما هو خير من الشيوعية ، ويشرح لها هذه المبادىء فتعجب بها ، ثم يسرد شكيب كل هذا فى مقال له بالشورى عدد ١٥ ديسمبر ١٩٢٧ .

وفى موطن آخر يؤكد عدالة الدين ورحمته بالناس اذ يقول : « الشرائع السماوية أقرب الى المساواة ، وأرفق بالضعف ، وأحدب على الفقر من القوانين البشرية ، بل لو نظرت الى الأنبياء فى

معايشهم الخاصة لوجدتهم اشتراكيين ، وأى اشتراكى عندك أكثر من السيد المسيح صلوات الله عليه ؟ . وأى مخفف من عناء الفقر ، وكافل لضرورات الفقراء مثل شرع الزكاة فى الاسلام ، مما لو قام به المسلمون على حقه لم يبق فيهم معدم واحد »[1] .

وفى حديثه مع « مدام كولوتناى » يتحدث عن فنون الأوقاف الاسلامية فى البلاد الاسلامية ، وهو يقصد أن يعدد وجـوه المساعدات الاجتماعية التى أوحت بها الروح الاسلامية ، فيذكر أن الزكاة ليست هى كل ما ينفق فى وجوه الخير ، فهى الفرض المحتوم الذى لا مناص منه أولا ، ثم هناك فى المجتمع الاسلامى بعد هذا مؤسسات خيرية تسمى الأوقاف ، تبلغ نحو الثلث من أملاك المسلمين ، وجميعها محبوسة العين ، أى لا يجـوز بيعها ولا التصرف فيها ، وهى مرصودة الريع على وجوه البر وأنواع الاعانة لبنى الانسان .

فمنها مدارس ومستشفيات ودور كتب ، ودور لعلاج المجانين، ودور لعلاج المجاذيم ، ودور ضيافة ، ومنها ما يوزع الخبز يوميا ، ومنها ما يوزع الحساء (المرق) ، ومنها مؤسسات لأشياء لا تخطر على بال الأوربيين .

ومن أمثلة ذلك أن فى دمشق وقفا اسمه « وقف الزبادى » فمن كان فى يده من الأطفال أو الخدم طبق صينى وانكسر ذهب الى ذلك المكان ، ووضع قطع طبقه المكسور ، وأخذ بدلا عنه طبقا سليما .

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ٤ ص ٥٣٥ .

و فىمدينة « فاس » وقف للثياب ، فمن كان مارا فى شارع وتمزق ثوبه ، أو أصابه شىء لوثه ، بحيث أصبح متعذرا عليه لبسه ، له أن يذهب الى ذلك الوقف ليأخذ ثوبا جديدا .

وفى تونس وقف ، من كان يريد دخول الحمام ، وليس فى يده مايدفع منه أجرة الاستحمام يذهب الى ذلك الوقف ، فيأخذ صرة صغيرة فيها الأجرة المذكورة .

وفى مراكش وقف كبير للنساء اللواتى يقع خلاف بينهن وبين أزواجهن ، فانهن يذهبن الى هذا الوقف ، ويقمن فيه ما شئن ، ويعشن دون منة من أحد ، الى أن ينتهى الخلاف بين المرأة وزوجها ، اما بالوفاق أو بالفراق .

وفى فاس وقف اسمه « مؤنس العليل » ، يؤخذ منه اعانة للمؤذنين ذوى الأصوات الشجية ، حتى يبكروا فى الصعود الى المئذنة ، ويترنموا بالتسابيح الالهية التى اذا سمعها العليل الذى يكون قضى ليله ساهرا يتململ على فراش الألم والأرق استأنست بذلك نفسه ، وخفت وحشته .

وهذه أعمال خيرية لم يلحظ مثلها أحد من الأوربيين مع المستوى الذى وصلوا اليه من العمران .

وكم عندنا من وقف لتزويج البنات الفقيرات ، وكم عندنا من وقف لاطعام الحيوانات ، وفى مدخل دمشق مرجة كبيرة موقوفة على الخيل المسنة ترعى فيها ، وغير ذلك كثير ، مما يدل على أننا عملنا كل ما قدرنا عليه لأجل القيام بحقوق الانسانية ، ورفقنا أيضا بالحيوانات كغيرنا وأكثر من غيرنا .

واذا كان قسم من هذه الأوقاف قد درس ومحيت رسومه بطول الأيام ، فان منها ما لا يزال ريعه دارا والفقراء يستفيدون منه [1] .

ولقد عقب شكيب على محاضرة ألقاها « هنرى ماسى » فى برلين سنة ١٩٢٩ ، فعاد الى ذكر ما فى العالم الاسلامى من الأوقاف الكثيرة التى لا تحصى ، لا سيما فى العواصم كدمشق والقاهرة وتونس وفاس ومراكش الخ ، ومنها أوقاف لرعاية المقعدين ، وأوقاف لرعاية المكفوفين ، مثل الملجأ الموجود فى مراكش ، الذى ذكر جيروم وجاك تارو من أشهر كتاب الفرنسيس أن به ستة آلاف مكفوف .

وهناك أوقاف لتزويج البنات البائسات ، وأوقاف لفداء الأسرى ، وأوقاف لتمهيد الطرق ، ولرصف الشوارع ، ولسقاية العطاش جلابا [2] مثلوجا فى أيام القيظ ، ومنها ما هو لاطعام الكلاب ، ومنها ما هو لشراء مكافآت للسابقين من صبية الكتاتيب؛ وغير ذلك من المشروعات التى لا يتنبه لها ولا يرصد لها الأرزاق الكافية الا الأمم التى بلغت الشأو البعيد فى الانسانية .

وقد كرر شكيب فوق هذا ذكر أصناف الأوقاف التى تحدث عنها مع مدام كولوتتاى التى يسمونها « أم البلاشفة »[3] .

ويعرض شكيب صفحة من صفحات العدالة فى الاسلام ،

---

(١) الشورى ، ١٥ ديسمبر ١٩٢٧ .
(٢) الجلاب (بضم الجيم وتشديد اللام) : ماء الورد .
(٣) الشورى ، ٢٩ مايو ١٩٢٩ .

فيتحدث عن مظالم الاستعمار ومآسيه ، ثم يقرر أن الديانة الاسلامية لم تأمر بسوء المعاملة من المسلم لغير المسلم ، واذا كان بعض المنتسبين الى الاسلام قد فعل هذا فليس فعله بحجة على الاسلام ، بل هو تعصب قبيح غير مندوب ولا مستحب ، والشريعة لم تأمر بشيء من هذا .

ومعنى قوله تعالى : « وليجدوا فيكم غلظة » هو أنه يجب قتال المشركين الأعداء بشدة ، ويجب الاغلاظ عليهم فى الحرب ، وليس معناه احتقار غير المسلمين فى المعاملات الشخصية ، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قام لعدى بن حاتم وهو نصرانى وأجلسه على وسادته .

ويتمنى شكيب أن يوجه المسلمون كل استنكارهم لأنواع الاحتقار التى ترتكبها الدول الاستعمارية فى حق أمة الاسلام [1] .

وشكيب قد أصاب كبد الحقيقة فيما ذهب اليه ، فان القرآن الكريم هو الذى يقول فى سورة الممتحنة : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ، أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

ومن الأمثلة التى تدل على سماحة الاسلام وعدالته ما جاء فى كتاب شكيب « تاريخ غزوات العرب » من أن اليهود كانوا

---

(١) المصدر السابق ، ٧ يناير ١٩٢٥ .

مضطهدين مستضعفين فى أسبانية ، وكانوا يلاقون من العذاب ألوانا ، حتى بلغوا مرتبة العبيد ، ولما دخل المسلمون أسبانية كان اليهود هناك فى أشد حالات العذاب ، فحررهم المسلمون من الرق ، وتركوا لهم الحرية التامة فى ممارسة شعائرهم الدينية ، وبذلك أحسوا بكرامتهم ، واستنشقوا نسيم الفرح [1] .

* * *

ومن شواهد عناية شكيب بالاسلام وغيرته عليه حرصه على تصحيح الأوهام التى ينسبها الأعداء أو الجهلاء اليه ، فهذا أحد المستشرقين يقف فى برلين سنة ١٩٢٥ ليتحدث عن صخرة بيت المقدس فيذكر أن المسلمين يعتقدون أنها لحقت بالنبى طائرة ، فيغضب شكيب ويقول : ان هذا حديث خرافة ، اذ ليس فى قرآن المسلمين ولا فى دينهم ما يدل على ذلك ، وانما الصخرة كانت مذبحا لبنى اسرائيل ، وأن هذه الخرافة لا يرددها الا بعض السذج من العامة ، وهى لا يقرها شرع المسلمين ولا كتبهم ولا علماؤهم .

ويعود المستشرق المذكور الى القول بأن « الجمل » دليل على التأخر . فيغضب شكيب ويرد عليه بأن الصحارى الرملية والآكام والجبال التى يقطعها الجمل لم يكن فى امكان السيارات أن تقطعها فى سهولة ونفقة قليلة ، والبعير كان يقطع ما بين بغداد ودمشق فى ثلاثة أيام ، وهى المدة المقررة لرحلة السيارات بين البلدين ، الا أن الجمل لا يحوج الى مصاريف باهظة أو أدوات توقفها الذرة وتعطلها الهفوة ، والجمل يصبر سبعة أيام دون ماء أو طعام وهو

(١) تاريخ غزوات العرب ، ص ٣٢ .

يقطع هذه المسافات ، بخلاف السيارات التى لا تستغنى عن « البنزين » ، فالجمل اذن أفضل عند أهل الصحارى مع فقرهم من السيارات والسكك الحديدية ، والجمل قد خلق لمثل هذه الصحارى وأهلها فقط ، ولكل بيئة أسلوبها وطريقتها .

ويكتب مقالا يفند فيه الأوهام الغربية التى تقول ان قبر النبى محمد صلى الله عليه وسلم معلق فى الجو وساكن فى الفضاء ، وان محمدا عندما دعا الجبل ولم يأت اليه قال : لنذهب اليه ؛ ويشير الى كثرة أوهام الغربيين بشأن الشرق والاسلام ، ويحرض على تصحيحها ، ويدعو الى انشاء مكاتب استخبارات ، واصدار جرائد بمختلف اللغات للدفاع عن العروبة والاسلام ، ويحض الأغنياء على التبرع لذلك (١) .

* * *

ومن أسطع الشواهد على نزعة شكيب الاسلامية اتجاهه منذ نعومة أظفاره الى مناصرة الخلافة الاسلامية ، على اعتبار أنها المظهر السياسى الأعلى للجامعة الاسلامية ، وقد تكون هناك أسباب أخرى لهذا الاتجاه عند شكيب ، كالتى يذكرها الأستاذ المكى الناصرى وهى أن لبنان موطن شكيب هو معقل النصرانية ، ومركز البعثات التبشيرية الأجنبية ، وكانت الأقليات الاسلامية فى لبنان تحس بضعفها أمام الأكثرية النصرانية التى تؤيدها دول الغرب ، والتى تمدها أوربة بقوات أدبية ومادية لا نظير لها .

فكان من الطبيعى أن تلتفت تلك الأقلية الاسلامية العربية الى

---

(١) الشورى ، ٢٨ يناير ١٩٢٩ .

أقوى دولة من دول الاسلام فى الأرض ، وأن تجعل وجهتها دولة الخلافة العظمى ، فتخلص لها الطاعة ، وكان من الطبيعى أن يكون بيت الامارة الاسلامية الأرسلانية فى لبنان فى طليعة البيوت التى تتجه الى تلك الدولة ، وأن يصبح مركز الاتصال بين الخلافة والعرب المسلمين ، ولذلك كان شكيب الأمير الاسلامى عربيا مخلصا فى معاونة العثمانية مناصرا لدولة الخلافة منذ نشأته الأولى [1] .

ومع أن شكيب قد أدار ظهره لحكام تركية بعد أن قطعوا روابطهم بالعرب والمسلمين ، وأخذ يجاهد مستقلا من أجل وحدة العرب وأخوة المسلمين ، فقد ظل يظهر حزنه على الغاء الخلافة ، لأنها كانت فى نظره أحسن علاقة جامعة بين المسلمين ، وكان أربعمائة مليون مسلم يوالون دولة الخلافة ، فجاء مصطفى كمال — كما يعبر شكيب — وقطع هذه العلاقة بين تركية والعالم الاسلامى ، وزعم أنه لا يلوى على علاقة غير علاقة الترك خاصة ، وأن سائر المسلمين والأجانب فى نظره سواء ، وهذا أمر مخالف للحقيقة والمصلحة ، ولذلك يروى عن القائد العثمانى أنور قوله : ان الأتراك الذين فى روسية لا يعطفون علينا بسبب أننا ترك ، بل بسبب أننا مسلمون ، وهؤلاء (الياقوت) الذين هم فى سيبريا هم ترك فى المحتد مثلنا ، ولكن نظرا لكونهم وثنيين لا يعطفون علينا ولا نعطف عليهم ، ولا يعرفوننا ولا نعرفهم [2] .

---

(١) الفتح ، ٩ ربيع الآخر ١٣٥٠ .
(٢) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٢١٤ .

ولقد ظلت رواسب الاعتزاز بالخلافة ودولتها فى نفس شكيب الى وقت متأخر ، فنراه فى كتابه عن شوقى الذى ألفه سنة ١٩٣٥ يدافع عن الخليفة العثمانى « وحيد الدين » ، وقد ألغيت الخلافة، ويسوغ صلته بالانجليز ، وعدم انضمامه الى رجال الحركة الوطنية فى الأناضول ، وفى هذا الدفاع نشتم روحه العثمانية ونزعته الاسلامية ، فهو يذكر الخلافة وعاصمتها المنقطعة النظير ، ويتخوف من خروجها من يد الاسلام ، ويتحدث عن تمسك الشعب التركى حتى ذلك الحين بآل عثمان ، ويتحدث عن مخادعة رجال الحركة المذكورة للشعب التركى .. الخ [1] .

وفى سنة ١٣٤٩ هـ يذكر أن الدولة العثمانية التى كانت مضطلعة بالخلافة الاسلامية فى القرون الأخيرة قد انقرضت ، وحل محلها من يريدون هدم الاسلام من قواعده ، وأن الدول الاسلامية الباقية يحيط بها من المشكلات ما يمنع تأثيرها لو تدخلت فى الأمر [2] .

وقد نخالف شكيب فى اتجاهه ، ولكننا نلتمس له عذرا ، فليست المسألة فى نظره مسألة تركية أو آل عثمان ، ولكنها مسألة الخلافة وهى مظهر الدولة الاسلامية التى يعتز بها ، ولذلك هو يعطى الخلافة أهمية فى عصورها السابقة ، فيتحدث مثلا عن مجد المسلمين فى الأندلس ، وعن سقوط الخلافة فى قرطبة ، وذلة العرب والمسلمين بعد ذلك .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٢١ ــ ١٢٤ .

(٢) الفتح ، ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٤٩ .

ويقول انه لما سقطت الخلافة وانصدعت الوحدة ساءت الحال وتفرق الشمل ، وزالت الهيبة وذل العرب ، وبعد أن كان الناس لهم خدما صار العرب خدما للناس . ثم يقول : « هذه هى الخلافة التى يقول بعض الناس اليوم (كتب ذلك سنة ١٩٣٠) انها لم تفد الاسلام بشىء ، بل يقولون انها كانت وبالا على المسلمين ، وما كان وبالا على المسلمين الا ابتلاؤهم بالشقاق والتقاطع ، ولا سيما العرب الذين هم كما قال النعمان بن المنذر لكسرى : تراهم كلهم ملوكا . وكل أمة يريد جميع أفرادها أن يكونوا ملوكا ينتهى أمرها بأن يملك أمرها الأجانب ، ولا يبقى لها ملوك »[1] .

ومن شواهد شغفه بموضوع الخلافة أنه يكتب عن حكمها وشروطها ، فيذكر أن المسلمين اتفقوا — الا الخوارج والمعتزلة — على وجوب نصب الامام لحراسة الدين والدنيا . فكان هذا المنصب جامعا بين السلطة الروحية — لكن بدون العصمة التى يقول بها الكاثوليكيون فى البابا — وبين السلطة الدنيوية ، وهى ما يسميه النصارى بالسلطة الزمنية — لكن بدون الامتيازات التى تسجلها القوانين الأوربية للملوك — ولا نبالى بما يتشدق به بعض الطاعنين فى الاسلام من أنه جمع بين السلطتين ، فكان فى ذلك عائقا للمجتمع عن الترقى . فهو قول عريض فى التحامل ، مخالف لسنة الله فى خلقه ، اذ أن الدين متصل بالدنيا فى كل مجتمع

---

(١) الشورى ، ١٣ أغسطس ١٩٣٠ .

بشرى ، والدنيا ممتزجة بالدين بدون فكاك ، ولا يتصور وجود أحدهما دون الآخر [1] .

وشكيب لا يقر اشتراط كون الخليفة من قريش ، ويستأنس لذلك بأن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يعهدون الى ذوى الكفاية من الأمة دون أولادهم ، وأن روح الاسلام الحقيقى هى مراعاة الكفاية والأهلية ، دون أى اعتبار آخر ، وهو يتذكر أن اشتراط القرشية فى الخلافة هو رأى الجمهور من الفقهاء ، ومع هذا يخالفه ، بحجة أن حصر الامامة فى أسرة أو عائلة أو عشيرة لا ينطبق على هدى الخلفاء الراشدين الذين كان يمكن كلا منهم أن يعهد بالخلافة لولده ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك .

فاذا وقف فى وجه شكيب الحديث المعروف : « الأئمة فى قريش » رد بأن هذا كان فى زمن كانت الرئاسة فيه لقريش ، فكانت أولى بهذا الأمر من غيرها ، وكانت العرب فى صدر الاسلام تطيعها أكثر من سواها ، ولا يستلزم هذا أن يكون الأمر أبدا سرمدا فى يد قريش ، مهما تقلبت الأحوال وتبدلت الأطوار ، وما دامت تطلع الشمس ، وما بلّ بحرٌ صوفة ! .

ثم يذكر أن هناك رواية للحديث تقول : « الأئمة فى قريش ما أقاموا الدين » ، وهذه الرواية جاءت فى صحيح مسلم ، وهو أحد المسانيد المعول عليها ، ويرى أن التعليق على هذا الشرط قد

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ٢٣ .

حل الاشكال [١] ، ويكون معنى هذا هو الحكم من شكيب على سلالة قريش بأنها لا تقيم الدين ! .

ويقول شكيب مؤيدا اتجاهه : « ولعمرى ان الذين يجزمون بأن الخلافة لابد أن تكون فى قريش ، ويذهبون الى أن كل خلافة ادعاها غير قريشى فهى غير صحيحة ، مهما كان من فضله وكفايته ، قد يجدون فى قول عمر [٢] : (لو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لوليته ، أو لاستخلفته) ما لا ينطبق عليه جزمهم ، وما جعلهم يتفكرون [٣] » .

أنستطيع أن نقول ان شكيب كان فى أثناء هذا الاتجاه متأثرا بنزعته العثمـانية ، لأن العثمانيين كانوا خلفـاء ، ولم يكونوا قرشيين ؟!! ..

ومهما يكن من أمر فقد كان شكيب واضح المعاداة لما صارت اليه تركية من نزعة لا دينية بعد الغاء الخلافة ، ولذلك شرع يعرض بمصطفى كمال (أتاتورك) ، ويحمل عليه ، فهو تارة يذكرنا بما أقدم عليه مصطفى كمال فى أول الأمر من استعانة بالقوة الدينية فى معركة تحرير تركية حينما أبرق الى السـيد أحمـد الشريف السنوسى ، وهو فى (ماردين) يقول له : « ابتدأت المعركة ، أدركونا بقراءة صحيح البخارى » [٤] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٦ و ٢٧ .

(٢) يشير الى قول عمر بن الخطاب وهو طعين على فراش الموت.

(٣) حاضر العالم الاسلامى . ج ١ ص ٢٤٩ . الطبعة الثانية .

(٤) الفتح ، ١٧ ابريل ١٩٣٠ .

وتارة يذكر أن مصطفى كمال كان فى أول أمره يشهد الجُمَع، ويحضر قراءة الموالد ، ويجعل شعاره الاسلام ، ويتحدث عن اخوانه المسلمين ، وعن استرجاعه القدس قائلا : « ان شاء الله » لأنه مسلم ! .

ولكن لما انعقدت معاهدة لوزان ، وتم الصلح مع تركية ، وظن مصطفى كمال الغازى أنه قد أمن المستقبل ، قلب ظهر المجن، ونسي ما كان يقوله ، وجاهر بعكس ما كان يجاهر به من قبل [1] ! .

ولذلك يعتبر شكيب معاهدة لوزان بدء تنكر الحكام الأتراك للاسلام ، فيصفهم بأنهم أولئك المسلمون الجغرافيون الذين تواطأوا مع الأجانب فى لوزان على الغاء الشريعة الاسلامية من بلادهم ، أملا بالحظوة عند الأوربيين ، وطمعا فى الاندماج فيهم ، ثم لبسوا بعد ذلك القبعة تأكيدا لاندماجهم فى الأمم الأفرنجية [2].

وقد سمعت من الأستاذ ساطع الحصرى أن شكيب تحول عن تركية تماما بعد لوزان .

وشكيب — وقد غاظه انصراف حكام الأتراك عن الدين — يعرض بهم فى كل مناسبة ملائمة ، ومن أمثلة ذلك أنه يتحدث عن « القداسات » التى أقيمت على روح الماريشال فوش ، ومنه قداس فى كنيسة السفارة الفرنسية ، وعن وصف فوش بالكثكلة

---

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٢١٥ .

(٢) الفتح ، ٥ سبتمبر ١٩٢٩ . من مقال بتوقيع « الامضاء محفوظ » وقالت الفتح في صدره : «بقلم كاتب من أعاظم كتاب العربية » ومن أسلوبه وطريقته يظهر بوضوح أنه لشكيب .

والتقوى ، ويخلص من هذا الى قوله ساخرا : « اذن قصة أن أوربة أصبحت بلا دين ، وأن حكوماتها قد أنكرت المسيحية ، وأن علينا نحن من أجل (الرقى) أن نقطع علاقتنا بالاسلام هذه معلومات لم تصل الا أنقرة فقط » !![1] .

وحينما حوّل حكام تركية الزواج من دينى الى مدنى سخر من ذلك شكيب ، وحمل على النظام الكمالى الذى يحارب الشريعة الاسلامية ويهاجمها ، ثم فند مزاعم لكاتب سويسرى عن الزواج فى الاسلام وتعدد الزوجات والطلاق ، وبيّن أسرار التشريع الاسلامى فى هذه الأمور ، مما يدل على مطالعات فقهية وثقافة شرقية ، ويقول : « الاسلام ليس فيه زواج دينى تقدر أنقرة أن تلغيه ، بل الزواج فى الاسلام عقد يتم بشاهدين من ذوى العدالة: شاهداك زوجاك ، كما لا يخفى على أحد »[2] .

ويتحدث شكيب عن الثورة الأفغانية التى قامت ضد بعض التصرفات الحكومية هناك التى لا تتفق والتقاليد الاسلامية السائدة حينئذ ، ويسارع بربط هذه التصرفات بما حدث فى تركية، ويقرر أن حكام أفغانستان تأثروا فى هذا بتركية ، وأن الشعب فيها قد ثار من أجل استعمال القبعة والبنطلون وترك النساء يختلطن بالرجال على نحو ما جرى فى تركية ؛ كما يقرر أن ملك الأفغان أمان الله خان يتابع مصطفى كمال فى كل شىء ، ويقلده فى كل أمر ،

---

(١) الشورى ، ٨ مايو ١٩٢٩ .

(٢) الشورى ، ٢٥ نوفمبر ١٩٢٦ .

ثم يثنى شكيب على شعب أفغانستان وجرأته وتدينه [1] .

وكأنما يعتذر الينا شكيب عن ثورته على تركية بعد أن كان مواليا لها ، فيذكر لنا أن هذا ليس صنيعه وحده ، فهناك أعلام شاركوه هذه الثورة ، فيقول : « لم يكن فى الاسلام أشد انتصارا للترك من الأستاذ الشيخ شاكر ، والمرحومين الشيخ شاويش وأمين الرافعى ، فلما ظهر من أنقرة ما ظهر كانوا أشد المسلمين عليها » [2] .

ولنلاحظ أنه يكثر من ذكر اسم « أنقرة » حينما يريد أن ينقد تركية ، و « أنقرة » هى العاصمة التى اتخذها مصطفى كمال مقرا لحكومته ، وكأن شكيب يريد بذلك أن يحمّل مصطفى كمال وحكومته تبعة هذا الاعراض عن المسلمين والتنكر للاسلام ، ولذلك نراه يحفظ تقديره للأمة التركية ، ويكتب مقالا تحت عنوان : « لا نرضى أن تقال كلمة سوء بحق الأتراك » ويشير فيه الى مهاجمته الحكومة الكمالية ، ثم يقول : « الا أنى لم أرض ولا فى وقت من الأوقات أن تقال كلمة سوء واحدة بحق الأمـة التركية نفسها التى لا يجوّز العدل أن يؤاخذها المؤاخذ بأعمال حكومتها الحاضرة ، وهى تنكر من هذه الأعمال ما ينكره العرب، وأشد مما ينكره العرب » .

ويمضى شكيب فى التنويه بماضى الأمة التركية وجهودها فى نشر الاسلام وخدمته ، ويذكر عظماء الأتراك المسلمين فى التاريخ،

---

(١) الفتح ، ٢٤ يناير ١٩٢٩ .
(٢) السيد رشيد رضا ، ص ٤٣٧ .

ويذكر جهود الأتراك فى انشاء المساجد والمدارس وغيرها [1] .

وكان شكيب رجلا بعيد النظر ، خبيرا بأمراض الأمة الاسلامية وأسباب عللها ، وكان يرى أن تألب أوربة ضد الاسلام هو أكبر خطر على المسلمين ، ولذلك يسمى هذا التألب « الحملة اللاتينية ضد الاسلام » . ويذكر أن الدول الأوربية تختلف فى كل شيء الا فى عداوة الاسلام ، فالاسلام عندهم هو العدو العام .

وأن أسبانية وفرنسة تتعاونان على قهر المغرب مع ما بينهما من أحقاد وخلافات ، والانجليز يرون أن الاسلام أخطر عليهم من البلشفية ، وفرنسة وايطالية وأسبانية متمالئات على الاسلام بهتضمنه من كل ناحية على الرغم مما بينهن من خلاف ؛ واذن فالدول اللاتينية الثلاث حاملة على الاسلام كدين ، بعد أن حملت عليه كدنيا .

وشكيب يعلن ويكرر أن من لم تكن له دنيا لم يكن له دين ، وأن من لم يكن له سلطان فليس له قرآن ! [2] . وكأن شكيب فى هذا الرأى ينظر من بعيد الى الأثر الاسلامى الذى يقول : « ان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

ومن بعد نظره فى الشئون الاسلامية أنه يرى أن الاسلام لم ينتشر الا بالقرآن وعمارة الصدور به ، الى أن بلغ قراؤه المهتدون به من القوة المعنوية الدرجة القصوى التى مكنتهم من قيادة الأمم،

---

(١) الفتح ، ١٥ ذى الحجة ١٣٥٠ .

(٢) المصدر السابق ، ١٠ رمضان ١٣٤٩ .

وهذه القوة المعنوية هي الأصل ، وهي التي بدونها لا تنهض أمة .

وما القوة المادية مهما دقت أو غلظت الا تبع للقوة المعنوية ، وهي بالنسبة لها كالبدن بالنسبة الى الروح ، وكل ما يقال من أن سبب الفتوحات الاسلامية الباهرة هو مراس العرب للقتال أو حبهم للغزو ، أو ملل الأمم المجاورة من حكامها ، كل هذا تضييع للمعنى الحقيقي ، وزيغ عن شاكلة الصواب .

وانما أمكنت هذه الفتوحات الخارقة للعادة بكلام منزل من عند الله خارق للعادة ، وبقوة معنوية أحدثها في النفوس خارقة للعادة ! [1] .

وشكيب يدرك أن الله هيأ للمسلمين بالقرآن الكريم كتابا ما فرط فيه من شيء ، وأمرهم أن يتدبروه وأن يعملوا به ، وبهذا التدبر وهذا العمل حقق المسلمون في صدر الاسلام ما حققوه من فتح ومجد وقوة ، ولكنهم حينما أهملوه ولم يعملوا به ، وجعلوه لمجرد الترنم فقط ، كما صنعوا في القرون الأخيرة لم يصبح أمامهم الا العذاب الأليم والأغلال في أعناقهم [2] .

ولم يقتصر اعراض المسلمين عن القرآن الكريم على الناحية العملية ، بل أعرضوا عنه حتى في حفظه وتحفيظه ، ويلاحظ شكيب ملاحظة لها وقعها ولها ايجاعها في نفسه ، وهي أن « الكتاب المقدس » طبع بستمائة واثنتين وعشرين لغة ، ولكن المسلمين بعد أن كانوا يعنون بالقرآن حفظا وفهما وعملا ، صاروا يرون من

(١) حاضر العالم الاسلامي ، ج ١ ص ٢٨ .
(٢) عروة الاتحاد ، ص ١٢٩ .

لوازم « الرقى » أن يهملوه ويقصروا فى نشره وتحفيظه للناشئة والأحداث .

والتوراة قد أعجبت الأوربيين بفصاحتها وبلاغتها ، والقرآن — وهو الكتاب المعجز الباهر — أصبح لا تعجب المسلمين فصاحته ولا بلاغته ولا آدابه ولا مواعظه ولا عزائمه ، لأنهم صاروا من ذوى الرقى !! [1] .

ثم يصرخ شكيب : « فأين المبشرون بالاسلام ، الدعاة الى القرآن ، الذين يبذلون الأموال ، ويجوبون الصحارى ، ويتسلقون الجبال ، ويركبون البحار لأجل نشر كلمة التوحيد ، وأين الجمعيات المؤلفة لهذا الغرض الحميد » ؟ [2] .

ويحاول شكيب تشخيص العلة فى جسم الأمة الاسلامية على عهده ، كما يحاول أن يطب لها ، وأن يرسم طريق شفائها ، فيقرر أن الأزمة الحقيقية الحاضرة فى أمة الاسلام هى أزمة التعليم ، واذا كان هناك من يقول ان من أسباب تكالب الغرب على العالم الاسلامى الحرص على الاستعمار ، أو الاستمرار فى الحملات الصليبية ، أو نشر الثقافة الغربية ، أو الحرص على منافذ التجارة ، فهذه كلها عند شكيب أقل خطرا وأخف ضررا من طريقة التعليم التى جرت عليها الحكومات الاسلامية والمسلمون فى عصره ، وهى الطريقة التى ستكون نتيجتها أشد ويلا على المسلمين من الاستعمار

---

(١) الفتح ، ١٢ شوال ١٣٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، ٧ رجب ١٣٤٩ .

ومن الحروب الصليبية ، ومن الغارات الاقتصـادية ، ومن كل مصيبة وداهية .

وهذه الطريقة هي أن ينشأ الفتى المسلم دون عقيدة من الصغر تنقش فى لوح صدره ، وأن لا يكون له نصيب من حفظ القرآن الكريم ، ولا من قواعد العربية ، فكيف نطلب منه بعد ذلك أن يكون مسلما ؟ .

ثم يشدد شكيب حملته على أولئك الذين يرسلون أولادهم الى أوربة للتعلم فيها ، دون تزود من الدين والعقيدة . ويرى أن فوضى التعليم خطر عظيم ، وأن عدم تجانسه سيؤدى فى العالم الاسلامى الى فتن وشدائد بين أبنائه أنفسهم أشد خطرا من غارات الافرنج واحتلالاتهم التى لابد أن يتقلص ظلها بالصبر والثبات واغتنام الأوقات .

ولن تنجح ولن تفلح الا اذا أخذنا العبرة والعظة من أمم أوربة الناهضة ، فهى مع تبحرها فى العلوم الطبيعية والمادية لا تزال تبنى ثقافتها على أساس ديانة مضى عليها أكثر من تسعة عشر قرنا ، وعلى لغات وآداب مضى عليها أكثر من ثلاثين قرنا ، وهى مع ولوعها بالجديد ، لم تنس الاحتفاظ بذلك القديم [١] .

ويلاحظ شكيب عيبا آخر فى المسلمين ، وهو أنهم كلما حزبتهم قضية أو أساءوا الادارة فى مجال أخذوا يتخلصون من التبعة ، ويقولون : هذه دسائس الأجانب [٢] . وكلما أرادوا

---

(١) المصدر السابق ، ١٧ ابريل ١٩٣٠ .
(٢) المصدر السابق ، ١٠ ابريل ١٩٣٠ .

الاعتذار عن انحراف أو نزق أو طيش فيهم حولوا التبعة الى الأجانب ، وجعلوا البلية كلها منهم ، مع أن هؤلاء الأجانب يستغلون حماقتنا فى كثير من الأحيان ، ويستغلون سوء ادارتنا [1]

* * *

وشكيب فى الأمور الدينية يعنى بالحقيقة والجوهر لا بالشكل والصورة ، ولذلك يقرر أن المسلم الذى يظن أنه يكفى فى الصلاة أن يتوضأ ويقوم وينحنى ويركع ويسجد ، ويعود فيقعد ، ويتلفظ بكلمات دون أن يمتلىء بمعناها ، ولا يفكر فيما يرتبط بها من واجبات وعزائم أمور ، ولا يلاحظ أن الحركات التى يأتيها فى الصلاة رموز لمعان سامية ترمى الى أن يتحقق بالرجولية التامة ويتصف بالانسانية العليا كما أرادها الله .. اذا ظن المسلم هذا طال عليه الظلام ، وبعد عند نور الصباح ! [2] .

وهو يرى فى الحديث عن الطرق الصوفية أن الرجل قد يكون شاذليا ، ثم يأخذ طريقة قادرية ، أو رفاعية ، أو نقشبندية ، أو غير ذلك ، ولا ينفى بعضُ ذلك بعضا ، ولكن المهم أن تكون جميعها ضمن دائرة الشريعة ، تؤدى الى مرام واحد ، والى مرمى واحد ، وهو الاخلاص لله ! [3] .

وهو لا يقنع من المسلمين للقضاء على بغى أعدائهم بالسباب يرددونه أو الشتائم يكيلونها لهؤلاء الأعداء ، بل الأهم من ذلك أن يكون المسلمون عمليين ، وأن يستخدموا سلاح المقاطعة ، فانهم

(١) المصدر السابق ، ٢٢ اغسطس ١٩٢٩ .
(٢) الشورى ، ٢ يناير ١٩٢٩ .
(٣) المقتطف ، عدد يونيه ١٩٠١ ، ص ٤٨٩ .

ان فعلوا نجحوا ، وانتقل المستعمرون من المخاشنة الى المحاسنة[1].

* * *

وهو يرى أن انفاق جانب من الزكاة فى الدعاية للاسلام — سواء بين الوثنيين أو بين الجاهلين من المسلمين ، الذين لم يبق لهم من الاسلام سوى اسمه — عمل جليل لا ينبغى أن تفتر الألسنة والأقلام عن الدعوة اليه ، ويجب أن تنهض اليه بنوع خاص جمعيات الشبان المسلمين [2] .

وشكيب كان يعلق أملا كبيرا على جمعيات الشبان المسلمين، ويرى أن المسلمين نهضوا نهضة مذكورة بعد الحرب العالمية الأولى، ونفضوا غبار الخمول عن نفوسهم ، ومن أحسن ما قاموا به انشاء جمعيات الشبان المسلمين فى مصر وفلسطين وسورية والعراق [3] .

وهو يرى وضع « معلمة اسلامية » وافية ضافية ، وأنه لا يجوز أن يغيب هذا الأمر عن نظر الحكومات الاسلامية التى تبغى الفلاح ، وتنشد الرقى والطيران الى النجاح بجناح ! . ثم يشير الى طائفة من الكتب الضخمة فى تاريخ الاسلام ، ولكنها لا تكفى لتكوين الموعظة ، ثم يقول : « فهذا الذى ينبغى للمسلمين أن يهتموا بازاحة علته وسد حاجته » [4] .

كذلك يلح شكيب منذ وقت مبكر على الحكومات الاسلامية أن يقوموا بانشاء « مكاتب استخبارات » فى عواصم أوربة ،

(١) الفتح ، ١٧ المحرم ١٣٥٠ .
(٢) المصدر السابق ، ١٠ يناير ١٩٢٩ .
(٣) المصدر السابق ، ٢٢ رمضان ١٣٥١ .
(٤) حاضر العالم الاسلامى ، ج ١ ص (د ، هـ) .

ليشرحوا عن طريقها الكوارث التى تقع عليهم ، ويجلوا الحقائق عن أحوالهم ؛ ويجب أن يفهموا أن هذه القضية حيوية لا يجوز اهمالها ، فعليها يتعلق تصحيح أوهام كثيرة عن الاسلام والمسلمين فى أوربة .

ويرى شكيب أن فى اتمام هذا العمل من الأجر والثواب أكثر مما فى بناء المساجد ، اذ المساجد أكثر من أن تحصى ، ولكن ليس فى أوربة مكتب دعاية واحد ينشر أخبار العالم الاسلامى على وجهها [1] .

* * *

وكان شكيب مؤمنا بمستقبل الاسلام ، وهو القائل عام ١٩٢٥ :

« ان رأينا الذى نعول عليه أولا وآخرا ، ونرجع اليه باطنا وظاهرا ، أن الشرق أجمع سيتنبه من رقدته ، وينهض من كبوته ، وأنه كما شهد القرن التاسع عشر استقلال أمريكة بأسرها ، فسوف تشهد بقية القرن العشرين استقلال آسية بعروتها وزرها ، وأنه لا تمضى الثمانون سنة الباقية لتمام هذا القرن حتى يلى الاسلام بلاده ، ويبلغ من نعمة الاستقلال مراده .

ليس هناك كهانة ولا عرافة ، ولا هى مقاصد تدرك بالرقى أو العيافة ، ولكن يعرف المستقبل من الحاضر ، ويدل الأول على الآخر » [2] .

ولكن الضمان لمستقبل الاسلام يحتاج فى نظر شكيب الى

---

(١) الفتح ، ٢٤ مايو ١٩٢٨ .
(٢) حاضر العالم الاسلامى ، ج ١ ص (ك) .

محافظة الأمة الاسلامية على عاداتها وتقاليدها حتى لا تضيع أو تنماع فى غيرها من الأمم ، ويحتـاج الى اقبالها على قرآنهـا ، وتمسكها بدينها ، ومقاطعتها لأعدائها ، وتجميعها لقواها ، وحسن جمعها بين الدين والدنيا ، وبين المادة والروح .

ويحتاج أيضا الى علماء يكونون بحق وصدق هداة الأنام ومصابيح الظلام ، يضربون الأمثلة فى حفظ الكرامة والجهر بكلمة الحق ، ويكونون على صلة بالحياة ودراية بالمجتمع ، حتى يقدموا اليه من زادهم وعلمهم ما يصلحه ويتفاعل معه .

ولقد قدم الشيخ ابراهيم التادلى من كبار علماء المغرب الى بيروت على عهد شكيب بها ، وكان الشيخ محمد عبـده فيها ، فذهب شكيب مع الامام ، لسماع درس من الشيخ التادلى فى الجامع العمرى الكبير ، وتجمعت الجموع لسماعه ، وتوقع شكيب أن يسمع منه شيئا جديدا ، أو بحثا فى أمراض العالم الاسلامى الحاضر وطرق علاجها .

ولكن الشيخ لم يفعل ، بل قصر درسه على تفسير البسملة وما تضمنته من العلوم والمعارف والفنون ، مما هو موجود بكثرة فى كتب العلماء ، وعلى الرغم من أن الشيخ أتقن الحـديث فى موضوعه ، فانه — فى رأى شكيب — دل بهذا على أنه غير مطلع على أحوال زمانه ولا مكانه ، ولا عارف بما يوجبه الدين والعلم على العالم المسلم فى مثل هذه الأحوال (١) .

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام ، ج ١ ص ٤١٢ .

وشكيب يحمل حملة قاسية على أدعياء الدين ، وعلى المنتسبين زورا الى علماء المسلمين ، وعلى فريق من المعممين لهم « عمائم مكورة ، وطيالس محررة مجررة ، ورقاب غليظة ، وبطون عظيمة »، ولكنهم لا يحفظون حرمة الدين والوطن ، بل اتخذوا الدين مصيدة للدنيا ، وتزلفوا الى أهل الجاه السياسى والجاه المادى ، فهم « باعة ضمائر ، ورواد سفاسف ، وطلاب وظائف » ثم يستمطر شكيب عليهم اللعنات [1] .

وشكيب مع هذا يحترم الأجلاء من العلماء ، ويثنى على الذين يقومون بحق الدين والعلم فى كثير من المناسبات .

* * *

وينبغى قبل أن ننهى الحديث فى هذا المجـال أن نذكر بأن شكيب قد طرق أمورا كثيرة وموضوعات جمة تتعلق بالاسـلام والمسلمين ، فى الماضى والحاضر ، فى تعليقاته الضخمة الفياضة على كتاب « حاضر العالم الاسلامى » المكون من أربعة أجزاء كبيرة ، فلمن أراد أن يتوسع فى التعرف الى شكيب « كاتب الاسلام » أن يرجع الى هذا الكتاب ، مع غيره من المراجع والكتب والصحف التى صال فيها قلم شكيب وجال متحدثا عن الاسلام والمسلمين .

كما يحسن أن نشير الى أن شكيب كان يعد فى نظر الكثيرين أعظم رجل فى العالم الاسلامى على عهده ، ومن الأدلة على ذلك أن مجلة « الضياء » الهندية التى كانت تصدرها ندوة العلماء فى

---

(١) انظر حاضر العالم الاسلامى ، ج ٤ ص ٤٤ . ولمـاذا تأخر المسلمون ، ص ٤٢ .

« لكنوه » بالهند نشرت خبرا مطولا عن مجمع انعقد سنة ١٩٣٥ ، ليبحث أى الرجال من المسلمين يستحق أن يوصف بأنه أعظم رجل فى العالم الاسلامى اليوم .

وحضر الاجتماع عدد كبير من العلماء والأدباء والخطباء ، وخطب كل واحد منهم بما يؤيد رأيه فيمن هو اليوم أرجح ميزانا بين رجال الاسلام ، وترددت أسماء : محمد اقبال ، وشكيب أرسلان ، والسيد رشيد رضا ، ورضا شاه البهلوى ، وأبو الكلام الدهلوى ، وسليمان الندوى ، وعبد الكريم الخطابى ، والسيد أحمد الشريف السنوسى ، ومولانا محمد على ، وحسين أحمد المهتدى ، وسيف الرحمن، وعبيد الله السندى ، ومصطفى كمال[1] .

ولكن الأمير شكيب أرسلان فاز بأكثرية الأصوات فى هذا الاجتماع ، واطلع السيد رشيد رضا على هذا الموضوع فى مجلة « الضياء » ، وكتب عنه الى صديقه شكيب فى أوربة ، وتحدث شكيب عنه فى كتابه عن رشيد ، وبعد أن سرد تفاصيل للاجتماع عاد الى شنشنته من ايراد حديث التواضع بعد طول العرض للموضوع الموحى بالاعتزاز بالنفس والتقدير للذات ، فنراه يقول :

---

(١) قال الأستاذ تقى الدين الهلالى فى هذا الاجتماع : « أما مصطفى كمال فانى أشك فى اسلامه » . وقال محمود خير الدين الدمشقى : «لاشك فى أن مصطفى كمال رجلٌ عظيم ، لكن قد أتى على الاسلام من قواعده » . وقال أبو الحسن الندوى : « ان من مصطفى كمال فى قلوبنا جروحا دامية » .. الخ . انظر كتاب السيد رشيد رضا ، ص ٧٩٤ و ٧٩٥ .

« وأنا لم أشر الى هذه القصة اغترارا بنفسي ، أو اعتقادا أني على شيء مما تفضل به بحقي هؤلاء الأعلام ، بل اني لا أراني أهلا لمجرد الذكر مع واحد من هؤلاء أجمع ، فضلا عن أن أكون في مقدمتهم ، أعوذ بالله من الغرور ، ومن أن أظن في نفسي عشر معشار هذه المكانة التي نحلوني فضلها تكرما منهم ، وتركوني من ذلك في خجل وأي خجل أمام النـــاس ، وأمام نفسي التي هي أعلم بقصورها من كل أحد .

وما ذكرت هذه الحكاية على وجه التلخيص ، وحذفت منها ما حذفت مما يتسلق بي الا لندورها وطرافتها ، واثبات علو نفس هذا الغطريف السيد رشيد رضا الذي كان يسر لأخيه بأكثر مما يسر لنفسه ، والحال أنه أعظم رجال العالم الاسلامي من جهة القلم، وأن محمد بن عبد الكريم كان أعظم رجل فيه من جهة السيف ، وأن السيد أحمد الشريف السنوسي كان أعظم مجاهد مسلم في هذا العصر ، وأن سعد زغلول كان أكبر زعيم وطني في الشرق

وعلى كل حال فهذه طبقة لسنا منها في مقدمة ولا ساقة ، لقد آتى الله هذه الطبقة العليا ما لم يؤت أمثالنا (ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما) » [1] .

رحم الله أمير البيان ، لقد طالت حيرته بين عرفانه قدر نفسه العالية وبين تواضعه ! .

---

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٧٩٦ .

أخلاق شكيب وصفاته

من الأمور المعتادة أن الرجل العظيم يختلف فى أمره الناس ، فبعضهم يرفعه ، وقد يغلو فى رفعه ، وبعضهم يخفضه ، وقد يفترى فى خفضه ، وما من رجل يشتغل بالمسائل العامة ، ويتصل بالجماهير عن طريق الفكر أو البيان أو السياسة أو الاجتماع ، ويخوض معارك متوالية ، أو مختلفة ، الا ويجد له مادحين وقادحين ، ومؤيداين ومفندين ، تلك سنة البشر ، ومن العسير — ان لم يكن من المستحيل — أن تجد لها تبديلا .

وشكيب رجل مشهور وعظيم ، ما فى ذلك ريب ، وقد اشتغل بالشعر والنثر والتأليف والسياسة والدين والاجتماع ، وغير ذلك من الشئون ، فلا غرابة اذا رأينا له أعداء يسرفون فى الحكم عليه والنيل منه ، حتى تكاد مجلات وصحف تتفرغ حينا أو أحيانا فى نقده والتربص له ؛ بينما نجد كاتبا كالأستاذ عارف النكدى يقول عن شكيب :

« وأما أخلاقه فأخلاق الأنبياء والمرسلين : صفاء قلب ، ونقاء ضمير ، لا ضغينة معهما ولا حسد ، أساء اليه كثيرون ، واجتهدوا فى الاضرار به ، فعفا عنهم عفو الكريم المقتدر أحياء ، ورثاهم رثاء الواله المتفجع أمواتا ، بل هو قد قابل اساءة كثير منهم بالاحسان اليهم » [1] .

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، مجلد ٢٢ ص ٩٥ .

ونحب فى مقامنا هذا أن نأخذ بالعدل والقسط ، فنعرف ما لشكيب ، ونعرف ما عليه .

وقد يكون من المناسب أن نلاحظ فى مطلع هذا الحديث أن لصاحبنا طهارة قلب وصفاء نفس ، فهو لا يحمل الأحقاد ، ولا يستبقى الضغائن ، ولا يجتر الاحن ، ولقد جرت مناقشة لغوية بينه وبين ابراهيم اليازجى فى سنة ١٨٩٨ بسبب نقد اليازجى لأمير الشعراء أحمد شوقى ، وعلى الرغم من أن شكيب كان فى ذلك الوقت شاباً فتيا ، وكان اليازجى شيخا محنكا ، سار شكيب فى نقاشه هادئا مؤدبا [1] ، بينما كان اليازجى عنيفا قاسيا ، اذ كان لا يحتمل أن يخطئه أحد ، أو يعارضه فى اللغة انسان .

واستطرد اليازجى فى رده على شكيب الى أمور شخصية لا علاقة لها بالبحث ، مثل قوله عن شكيب انه « لم يدس عتبة التحقيق فى علم من العلوم » ، وان قصارى أمر شكيب أن يترجم مقالة فتأتى « عربية الحروف كردية الألفاظ » [2] .

ومع ذلك نجد أنه عندما مات اليازجى سارع شكيب الى رثائه بطيب قلب وصفاء نفس ، وكان مما قاله :

لو أنصف اليازجى دمع لكان له
كعلمه بحر دمع غير منحصر

---

(١) انظر كتاب شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٥٨ ــ ٧٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٧ .

أو لو درت نار ابراهيـم مصرعـه
لأصبحت من جـوى لفاحة الشرر
أودى الردى حـين أودى بمهجته
بأكتب الوقت من بدو ومن حضر (١)

وشكيب ينفى عن نفسه خلق الحسد أكثر من مرة ، كأن يقول فى كتابه عن شوقى :

« ومن نعم الله علىّ أنه عافانى من داء الحسد الذى قد يبتلى به الكثيرون ، لا سيما من رجال الأدب الذين لا يزال الواحـد منهم يتعقب ويترقب حتى يجد لأخيه غلطة يبرد غلته بتكرارها وتنبيه الأفكار اليها ، وأنا لم أكن حاسدا لشوقى ، ولا كافيا اياه حسدى ونفاستى وغصتى برفيع مقامه فحسب ، بل كنت مفتخرا به ، فرحا بنبوغه ، سعيدا بعبقريته ، أجده من حسنات هـذا الزمان الكبرى ، ولا تتاح لى الفرصة للاتيان بذكره أو للاستشهاد بشعره الا توردتها » (٢) .

وقد يقال ان خبر المرء عن نفسه يحتمل الصدق والكذب ؛ فيجاب القائل بأن هنـاك شواهد تدل على ابتعاد الحسد عن شكيب ، فهو يقدر أصدقاءه وينوه بهم ، ويكتب فى ذكرى أخيه رشـيد رضا كتابا ضـخما ، وفى ذكرى شوقى كتـابا ضخما ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٧٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤ .

ويستشهد بشعر البارودى وهو فى منفاه بسرنديب ، ويقول من قصيدته فى تكريم شوقى سنة ١٩٢٧ :

أتلو قصائده فتمـــلأ مهجتى فرحا يزيل همومـها وعنـاءها
وأظل مفتخرا بهـا ، فكأن لى دون الأنام ثناءها وسناءها (١)

وهو رجل يتناسى الأحقاد ، ففى مقال له سنة ١٩٢٥ عنوانه : « أزفت ساعة الاتحاد أيها العرب » يقول عن نفسه : « ولما كنت طول حياتى أكره الوقيعة فيمن تدور عليه الدائرة ، مهما كان من سابق ، وكنت لا أجهل مكانة الملك حسين فى العرب ، وامكان استفادتهم منه ، حتى بعد الدائرة التى دارت ، فقد تناسيت كل ما كانت تلذعنى به جريدة (القبلة) (٢) ، لا بل نسيت ما هو أقدم عهدا من ذلك ، وهو الكتابة الرسمية فى الطعن بى الى الباب العالى يوم ذهبت الى المدينة المنورة قبل الحرب » .

ثم يقول : « فليس الآن وقت الشماتة ، ولا أوان التشفى ، لا بل هذا وقت تضميد الجروح وتسكين الأحقاد » (٣) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٨٥ .

(٢) جريدة كانت يصدرها الشريف حسين فى مكـة ، وكانت تحمل على شكيب بشدة .

(٣) الشورى ، ٢٧ أغسطس ١٩٢٥ ، ولشوقى فى هذا المعنى :

محا الموت أسباب العداوة بيننـــا فلا الثأر ملحاح ، ولا الحقـد ثائر
وما أحدثت عند الكرام شـماتـة صروف المنايا والجـدود العواثر

ولعل هذه الصفة الحميدة عند شكيب هى التى جعلته يكره الهجاء ، فلا نرى فى شعره للهجاء نصيبا كأنصبة الأغراض الأخرى التى طرقها ، ولا نراه يسب أو يشتم فى نثره ، ولا يذكر عيوبا شخصية لغيره ، ولا يورد من ذلك الا ما تعلق بموضوعات وطنية أو دينية ، أو ما جرّت اليه حماسة تثيرها عقيدة أو ايمان ، وهو القائل عن الهجاء :

« من أقبح ما قبح سمعة الشعراء ، وجعل الخلق ينظرون اليهم بشىء من الريبة ، أن كثيرا منهم رتعوا فى لحوم الناس ، وسيّروا المثالب التى قد تكون بلا أصل ، أو يكون لها أصل ضعيف ، ولكن الناس حفظوها وتدارسوها لبداعة قوالبها خلفا عن سلف ، حتى انتهى الأمر بأن صدقوا فحواها ، وصارت فى نظرهم وقائع تاريخية » [1] .

ومن أخلاق شكيب وفاؤه فى صحبته ، وثباته فى صداقته ، وان عنوانين لكتابين من كتب شكيب ليبرزان هذا ، أولهما : « شوقى أو صداقة أربعين سنة » . وثانيهما : « السيد رشيد رضا أو اخاء أربعين سنة » . فهذا رجل يطول عهده بصداقة الصديق عشرات من السنين ، لا شهورا ولا أعواما قليلة ، فاذا رحل الصديق عن الدنيا ظل شكيب على الوفاء له .

ولقد كان شكيب مخلصا لأستاذه الشيخ عبد الله البستانى ،

---

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٢٧ .

وظل يكاتبه طوال حياته ، ورثاه يوم توفى بقصيدة مشهورة [1] .
وكذلك فعل فى علاقته مع أستاذه الامام الشيخ محمد عبده .

ومن مظاهر وفائه أنه لما مرض الشيخ صالح التونسى فى بلدة « دافوس » فى سويسرة ، وأشار عليه الأطباء بالنزول من دافوس المرتفعة الى ساحل بحيرة ليمان ، اختار شكيب والأصدقاء له بلدة « مونتريه » ، وجاء شكيب ولازم الشيخ شهرا ونصف شهر حتى فاضت روحه[2] .

وكتب شكيب مقالا عن المرحوم « محمد الباشهانبه التونسى » الذى عرفه شكيب فى برلين ، وكان عضـوا فى النادى الشرقى الذى يرأسه شكيب ، ولما مات دفنوه فى مقبرة المسلمين ببرلين ، وكان شكيب رئيس لجنتها ، وقد أضاف اليها ألفا وخمسمائة متر ، وبنى بها مسجدا وبيتا لحارسها بمساعدة اللجنة .

وكان شكيب يزور ضريح هذا الصديق ويتعاهده ، ويقرأ الفاتحة ويدعو له ؛ ولكنه فارق برلين ، وبلغه بعد ذلك أن قبر هذا الصديق قد تشعث من الأمطار والثلوج ، فكتب فى مجلته العربية الهدف الفرنسية اللغة « لا ناسيونال آراب » يستنهض الهمم لترميمه ، ويعـد بالاسهام فى النفقة مـع زميله احسان الجابرى [3] .

وكان شكيب لوفائه يحزن لموت أصدقائه حزنا بليغا ، ولقد

---

(١) الأهرام ، ١١ ديسمبر ١٩٤٦ .
(٢) السيد رشيد رضا ، ص ١٥٠ .
(٣) الفتح ، ١٥ ذى الحجة ١٣٥٠ هـ .

كتب يقول عن نجيب شقير فى رسالة خاصة : « ان خبر موت نجيب بك قد أحزننى بما لا مزيد عليه ، وفقده خسارة كبيرة ، وأمثاله فى الشرقيين قليلون جدا ، وسأكتب عنه وعن الأمير عز الدين الجزائرى الذى فاتنى تأبينه »[1] .

ولو رجعنا الى ديوان شكيب لوجدناه قد رثى شعرا أحمد فارس الشدياق ، ومحمود ابراهيم فخرى ، ووالدة نعوم باشا متصرف جبل لبنان — وكان صديقا لشكيب — ، وعبد الله فكرى ، وأمين فكرى ، وابراهيم اليازجى ، ومحمود سامى البارودى ، ومحمد فريد ، وملحم توفيق أرسلان ، وعبد القادر عباس حلمى ، وأحمد مختار بيهم ، وعبد العزيز جاويش ، وكامل الأسعد ، ونسيب أرسلان ، وأحمد تيمور ، وعبد القادر الشيبى ، وأحمد شوقى ، وعبد السلام بنونة ، والشيخ رشيد رضا[2] .

وقد رثى كثيرين نثرا ، منهم رشيد الطلع ، وعادل نكد ، وأحمد المريود ، وفؤاد سليم[3] .

* * *

وتلوح « النزعة الأخلاقية » فى شخصية شكيب ، فهو لا يرتضى التحلل أو التفسخ ، ولا يقر النزعة البَشّارية القائلة : « وفاز باللذة الجسور » ، بل يقف فى وجه من يخرج على الأخلاق ومألوف العادات والتقاليد .

يقول جان جاك بروسون عن أناتول فرانس : « يرى الفضيلة

---

(١) الشورى ، ٨ سبتمبر ١٩٢٧ .
(٢) ديوان الأمير ، ص ٤٨ — ٨٩ . وص ٢٠٢ .
(٣) الشورى ، ١٤ أكتوبر و ٣٠ يوليه و ٢٨ نوفمبر ١٩٢٦ .

عجزا ، والطهارة نقصا فى الخلقة » فيعلق شكيب على ذلك بقوله :
« وهذا أيضا من المزاح ، اذ يستحيل كون رجل فى عبقرية أناتول فرانس يجهل كون العجز انما هو فى استرسال الأنفس الى الشهوات ، لا فى فطامها عنها ، وما كان أناتول فرانس فى هذه الأقاويل الا على مذهب بعض الأدباء الذين يقدمون النكتة على كل شىء ، ويرسلونها على علاتها » (١) .

ولكن أناتول فرانس يمضى فى موطن آخر الى غير ما يريد شكيب ، والى غير ما يظنه فى أناتول ، فيتحدث عن حسناء رآها بمقربة من كنيسة فيقول : « وكانت الأجراس تقرع كأنها تقرع من أجلها ، ولا شك أنه كان فيها من الالهى أكثر مما فى الكنيسة» .

ويعلق شكيب على ذلك بقوله : « هذه مجانة لا تليق بمثل أناتول فرانس ، وربما لم يقل ذلك الا على وجه الاحماض ، ولم يكن يعلم أنه سيؤثر عنه » (٢) .

ونلاحظ أن تعليق شكيب هنا غير حازم ! .

* * *

وشكيب يتذرع فى كثير من الأحيان بالهدوء فى النقاش والرزانة فى الحوار ، ومن الأدلة على ذلك أنه لما غادر الجنرال فيفان أرض سورية سنة ١٩٢٤ — وكان مندوب فرنسة هناك — أقيمت له حفلات وداع كالمعتاد ، وبحكم أن فرنسة محتلة لسورية ومسيطرة عليها ، وزعمت صحف فرنسة أن هذا دليل على رضى

(١) أناتول فرانس فى مباذله ، ص ١٧٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩٦ . والاحماض : يقصد منه التفكه بشىء غير معتاد .

السوريين عن فرنسة ، كتب شكيب الى صديق له من رجال البرلمان الفرنسى رسالة حول هذا الموضوع يقول فيها :

« صديقى العزيز والنائب النبيل

ان جرائد الاستعمار الفرنسى تفيض شرحا ووصفا لأبهة الوداع الذى جرى للجنرال فيفان عند مفارقته سورية ، محاولة بذلك الوصول الى نتيجة كون الأهالى راضين بحالتهم الحاضرة .

فأنا ليس عندى أدنى انتقاد أوجهه الى الجنرال فيفان الذى كان ينفذ سياسة دولته ، وربما كان ينفذها بصورة أمهر من الصورة التى نفذها بها الجنرال غورو .

ولكننى أقول : ليعفنا هؤلاء الناس من ذكر الاحتفالات والوداعات والاستقبالات ، فانه مهما كان عمل هذا النوع للجنرال فيفان فلا يبلغ ما عمل لجمال باشا الذى يلقب الآن (بجمال السفاح) .

وأين الاحتفالات التى صنعت للجنرال فيفان من الاحتفالات التى صنعت لأنور عند زيارته لسورية ؟ . ففيفان وغورو وفيصل وجمال وأنور ، وهكذا رجوعا الى الوراء حتى نصل الى مدحت باشا أبى الدستور العثمانى ، عملت لكل منهم هذه المظاهر الفخمة ، ولن يبلغ فيفان فى هذا الأمر درجة أولياء الأمور الأتراك الذين يقال عنهم (برابرة) اليوم .

وأخشى أن يظن فى فرنسة أن هذه المراسم المعتادة لممثلى كل دولة حاكمة فى سورية تدل على كون الأهالى راضين بحالتهم الحاضرة ، والحقيقة أن البلاد لا ترضى ولن ترضى حتى تحصل

على حريتها واستقلالها ، وبدون ذلك لا ترجى منها صداقة لفرنسة . هذه هى الحقيقة » [1] .

فأنت ترى أن الخطاب هنا يتلطف فى أسلوبه وعبارته ، وهذا هو المناسب فى الحديث عن تصرفات فرنسية مع رجل فرنسى صديق لشكيب ، ويريد شكيب أن يكسب تأييده لقضية سورية .

ولكن ليس معنى هذا آن شكيب كان هادئا فى كل حوار ، فآحيانا يعنف ويشتد ، ولقد شكا اليه هذه الحدة آخوه رشيد رضا ، اذ يقول له فى رسالة : « فان كلامك مؤثر ، يجرح قلب من يرد عليه ويفنده فيجعله خصما أو عدوا ، والواجب أن تكون فى جهادك فوق ذلك . انك لأنت كاتب هذه الأمة وأمير السياسة الديموقراطى لها ، فينبغى أن تكون للأحزاب والجماعات كلها ، ان لم أقل فوقها » .

ويعود رشيد الى ملاحظة هذه الحدة أحيانا ، فيكتب الى شكيب قائلا : « انى لأعجب لحدتك فى كل ما تعتقد أن فيه المصلحة مع كل أحد فى سن الحكمة والأناة ، وأنا لا أنكر مثل هذا من نفسى ، ولكن بدون شدتك فى الغالب »[2] .

والسيد رشيد يتوسع هنا فى التعبير حين يستعمل عبارتى : « كل ما تعتقد » و « كل أحد » ، لأننا نجد نماذج كثيرة من نقاش شكيب لا تعدم الحكمة والأناة والهدوء ! .

وشكيب معذور اذا ضاق أحيانا فثار ، اذ يبدو من ملاحقتنا

---

(١) الشورى ، ١٤ يناير ١٩٢٥ .
(٢) السيد رشيد رضا ، ص ٦٥١ و ٧٧٤ .

له فى أحداث أيامه أنه كان مبتلى بكثير من النكبات والضوائق ، وأنه كان يتعرض لما يذهب معه حلم الحليم ، وقد ترجم هو بقلمه عن لحظات الضيق التى تعرض له ترجمة بليغة مؤثرة حين كتب فى مايو سنة ١٩٣٠ رثاءه لأحمد تيمور بعنوان : « بين الآلام رحم ماسة » وفيه يقول :

« ما كنت فى حياتى أشد استيحاشا من الدنيا وتبرما بتكور الليل على النهار ، وتكور النهار على الليل ، مما أنا فيه هـذه الأيام الأخيرة . وقد يشعر الانسان بحالات نفسية لا يعلم لها أسبابا ، ويتألم من مواجيد فى قلبه لا يدرك لها مصدرا ولا يملك لها ردا ولا علاجا .

ولعلها انفعالات متراكمة وغموم متحاشدة هنا وهنـاك ، تحدث مجموعة تكره الى المرء الحياة الدنيا ، فيكاد يقول لها : وداعا ، لولا أن يعد ذلك جبنا وهلعا ، ويحسب فرارا من المعركة ، فان الحياة معركة لابن آدم منذ يولد الى أن يلحد ، والشجاع الشجاع من يخوض معامعها ، ولا ينكص عن اقتحام لظاها ، وخوف عار الجبن أهم عامل فى تحمل أذاها .

وكيف لا تتراكم الهموم وتتجمع الكرائه ونحن كل يوم أمام مظلمة تثور لها كل نفس أبية ، وعرضة لخسف لا يرضى به الا الأذلان عَيْر الحى والوتد »[1] .

وشكيب ممن يؤمنون بوجوب أمانة النقل ، ولذلك نراه فى

---

(١) الفتح ، ٢٢ مايو ١٩٣٠ .

كتاباته المتعلقة بالتاريخ أو المعتمدة على النصوص يعنى بالتدقيق فى النقل ، وقد يورد أكثر من نص ليقابل بين هذا وذاك ، ولقد أرسل من برلين بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٩٢٤ برقية الى الصحف تتعلق بالقضية السورية ، وكان فى البرقية العبارة التالية : « وقالت جريدة جورنال دو جنيف المشهورة بنزعتها الفرنسية » والعبارة التالية : « شكوى السوريين من الانتداب الفرنسى » .

فنشرت جريدة « ألف باء » التى تصدر فى دمشق البرقية بعد أن حذفت منها العبارتين السابقتين ، فغضب شكيب من ذلك ، وكتب مقالا بعنوان : « أين أمانة النقل » ، عتب فيه على الجريدة ، وآخذها ، ثم افترض لها عذرا هو أنها تصدر فى سورية المحتلة بفرنسة ، ولكنه يعود فيعلق بقوله : « فأين حرية المطبوعات اذن ؟ وأين العدل والحق ؟ وأين ادعاء أن السوريين راضون بالحالة التى هم فيها » ؟ [١] .

والمبدأ عند شكيب فوق الصلة الشخصية وفوق الصداقة ، ففلان صديقه ، والحق صديقه ، ولكن الحق أعز عليه من فلان ، ولقد حدث فى أكتوبر ١٩٢٤ أن ابن نقيب الأشراف كان يشتغل مترجما فى جريدة « السياسة » ، وكان بينها وبين شكيب صداقة وأواصر مودة ، ولكن ابن الأشراف نشر فى الجريدة كلاما يضعف همة العاملين من أجل القضية السورية ، وعلق على الكلام بتعليق موهم أنه من تحرير الجريدة جاء فيه : « وبعد فان العمل المنفرد

---

(١) الشورى ، ٣ ديسمبر ١٩٢٤ .

لا يجدى فتيلا ، والأحرى بالمصلحين فى سورية الاتفاق مع الحكومة المنتدبة على أحسن وسائل الاصلاح ، والاتحاد مع بقية الطوائف وبقية الأحزاب ، فذلك خير وأبقى » .

وبلغ الخبر شكيب وهو فى جنيف ، فغضب على جريدة « السياسة » وشرع يلومها ويؤاخذها .

وشكيب يعتمد فى حكمه على الأعمال لا على العواطف ، وهذا يؤدى به الى الاعتدال فى الرأى فى كثير من الأحيان ، كما أنه يأخذ بهذه الطريقة فى مجال السياسة ، ومن شواهد ذلك قوله سنة ١٩٣٤ : « اننا لا نحب ايطالية ولا نكره ايطالية ، انما نحب عملا جيدا تسديه ايطالية للمسلمين ، ونكره عملا سيئا يتحقق لنا صدوره عن ايطالية بحق المسلمين »[١] .

وقد يغلو شكيب نوعا ما فى تصوير هذا الاعتماد ، كأن يقول : « نحن لا نعرف غير النتيجة ، وليس لنا أن نبحث عن أسباب العمل النافع لنا ، ولا أن نقول ان العوامل التى ساقت الدولة الفلانية الى أن تحسن فى عملها هذا هو كذا وكذا ، ينبغى ألا نجهل أسباب العمل ، ولكنه اذا كان هذا العمل مفيدا بحقنا فينبغى أن نحمده ، لأن الحسن حسن فى نفسه ، وهو يستحق الثناء ، كما أن القبيح قبيح فى نفسه وهو يستحق الهجاء »[٢] .

ان الدعوة الى ترك البحث فى الأسباب والدوافع لا تخلو من غلو .

---

(١) المصدر السابق ، ٢٢ أكتوبر ١٩٢٤ .
(٢) الفتح ، ٢٧ رمضان ، و ١٠ ذى القعدة ١٣٥٣ .

وشكيب رجل حر غيور ؛ انه يكره الظلم والبغى ، يكرههما لقومه ومن قومه ، ويكرههما من الصديق والعدو ، ويكرههما للصديق والعدو ، ولقد قضى حياته وقلمه مُشْرَعٌ فى يده يدافع به عن المظلومين والمهضومين أينما كانوا وكيفما كانوا ..

دافع فى طليعة دفاعه عن أمته العربية وعن أمته الاسلامية وعن اخــوته الشرقيين ، ودافع عن الانســانية كلها ممثلة فى أفرادها البائسين من جهة ، وفى قيمها الرفيعة ومثلها العليا من جهة أخرى ، ونازل المظالم بكل سلاح يتيسر له ، وهو يعبر عن كراهيته للظلم تعبيرا رائعا بليغا فيه انفعال انسانى واضح ، وفيه شعور كريم نحو كل مظلوم من البشر ، فيقول :

« انى أغضب لظلم يقع على عابد الصنم ، وتفيض دموعى لأى غدر يقع ولو على زنجى من قبيلة نيام نيام ، ويحترق فؤادى لمجرد تصور رضيع يقتل ، أو امرأة يصرعها السيف من أية أمة كانوا .

وأعتقد أن كل من ليس فيه هذا الشعور فليس له نصيب من الانسانية ، بل هو الى الوحوش أقرب ، وما أتباهى من أقوال السلف الصالح بشىء مثل قول أبى بكر رضى الله عنه لأحد آمراء جيشه وهو سائر الى الحرب : « ولا تغل ولا تغدر ولا تقتل ولدا ولا امرأة ولا مدبرا ، ولا تجهز على جريح » .

نعم فبمثل هــذه الوصايا ينبغى أن يفخر الاســلام ، فاذا كان هــذا شعورى نحو المظلوم والمقهور والمذبوح من غــير

المسلمين ، فكم يكون طبيعيا أن يكون نحو المظلومين والمذبوحين من المسلمين »[1] .

وهو يحرص على الحق ، ويحث على الاستمساك به والخدمة تحت لوائه ، ويقرر أنه فى كتاباته وأحكامه لا يريد أن يلحق بأحد أدنى وصمة لا يستحقها ، ولا أن يصيب أحدا بجهالة ، ويؤمن بأن الحق يعلو ولا يعلى عليه ، ثم يورد كتيبة من الكلمات القرآنية المجيدة المزكية للحق الداعية الى تأييده : « الحق من ربك — والوزن يومئذ الحق — ولا تغلو فى دينكم غير الحق — والله لا يستحى من الحق — ويريد الله أن يحق الحق — ويحق الحق بكلماته — والله يقول الحق وهو يهدى السبيل »[2] .

وما دام الحق يسيطر على شكيب فانه يصبح جريئا فى الجهر به والتعبير عنه ، ويصبح شجاعا فى مهاجمة من يستحق المهاجمة ، ونحن نستعرض كتابات شكيب فنجد فيها كثيرا من شواهد جرأته وشجاعته ، فقد نقد ملوكا وأمــراء وحكاما وأغنياء ، وأقرباء وبعداء ، ودافع عن قيم ومبادىء كان يتنكر لها أناس فى أيديهم أسباب الايذاء كما أن فى أيديهم وسائل النعماء ؛ ومن أمثــلة عباراته الجريئة قوله :

« ومن أكبر عوامل تقهقر المسلمين فساد أخلاق أمرائهم بنوع خاص ، وظن هؤلاء — الا من رحم ربك — أن الأمة خلقت لهم ،

---

(١) الشورى ، ٩ يناير ١٩٢٩ .

(٢) الفتح ، ١٥ ذى الحجة ١٣٥٠ .

وأن لهم أن يفعلوا بها ما يشاءون ، وقد رسخ فيهم هذا الفكر ، حتى اذا حاول محاول أن يقيمهم على الجادة بطشوا به عبرة لغيره .

وجاء العلماء المتزلفون لأولئك الأمراء ، المتقلبون فى نعمائهم ، الضاربون بالملاعق فى حلوائهم ، وأفتوا لهم بجواز قتل ذلك الناصح ، بحجة أنه شق عصا الطاعة ، وخرج على الجماعة » [1] .

ولنتذكر أن هذا الكلام قد صدر عن شكيب سنة ١٩٢٩ ، أى فى وقت كان سلطان الأمراء فيه مطلقا ، وحرية الرأى معدومة أو مهضومة ، ولرجال الدين سلطانهم ورهبتهم ! .

ويعود فى سنة ١٩٣٥ ليعبر عن جراءته وشجاعته وجهره بالحق دون خوف أو ضعف ، فيقول : « نحن لا نحابى أحدا ، ولا نخشى أحدا ، وما جرت لنا العادة فى كل حياتنا أن نتوقف عن ابراز أفكارنا خشية أن يغتاظ منها زيد أو عمرو ، فلهذا قلنا أمس ، ونقول اليوم ، وسنقول غدا : لا نرضى باستعمار دولة غربية لدولة شرقية ، بل لا نرضى بتسلط أى شعب على أى شعب ، هذا مبدأ مقدس لا نحيد عنه » [2] .

ولقد يعتز شكيب بذاته وقوته — ويغالى فى هذا الاعتزاز — حتى يصور نفسه فى صورة العنيد الأبى الشكيمة العسير المقاد ، حتى يطوع له قلمه أن يخط هذه العبارة : « ان جميع الناس ومن

---

(١) لماذا تأخر المسلمون ، ص ٤٣ .

(٢) الفتح ، ٦ صفر ١٣٥٤ .

جملتهم أعدائى يعترفون بأننى لا أطأطىء رأسى لخصم ، ولا أدنو منه الا اذا دنا منى طالبا التفاهم ، وفى كثير من الأحيان اذا كنت قاطعا الأمل من استصلاح الخصم لا أرضى بمواجهته ، ولو التمس ذلك منى » [1] .

وربما فهم فاهم من هذه العبارة أن شكيب ممن يركبون رءوسهم ، فلا يعرفون ما قد تدعو اليه الظروف من اعتدال وتفاهم ومصانعة ؛ مع أن شكيب نفسه يخبرنا بغير ذلك ؛ فهو يصف بالجهل من يظن من العرب أننا نستطيع أن نعادى الدول بأسرها ، ونوسعها طعنا وقذفا ، وان لم يكن هذا الظان جاهلا فهو — عند شكيب — مراء يعرف الحق ويتظاهر بجهله [2] .

وهو أحيانا يصانع فى مجال السياسة ، فهو فيها يحاور ويداور ، وهو يستر هذا الأمر ، ويلف حول هذا الموضـوع ، ويعتبر الصراحة الدائمة عيبا فى السياسى ، لأنها تدخله فى مآزق وتفوت عليه مقاصد ، فليس كل ما يعلم يقال ، وليست كل المجالات متماثلة حتى يقال فى كل موطن ما يقال فى سواه . يقول :

« فهل يجوز لعاقل فيه ذرة من الادراك أن يعلن جميع مقاصده ومراميه مهما كان مركزه ضعيفا ؟ .. أفلم يرد فى الأمثال : ما كل ما يعلم يقال ؟ أفما قال الشاعر العربى :

ومن لم يصانع فى أمـور كثيرة
يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسـم

---

(١) الشباب ، عدد ٢٤ مارس ١٩٣٧ .
(٢) السيد رشيد رضا ، ص ٧٧١ .

أفلم يكن النبى صلى الله عليه وسلم اذا أراد حربا وَرَّى بغيرها ؟ أفليس هتلر زعيم ألمانية نمسويا ، وقد أعلن مرارا وجوب استلحاق ألمانية للنمسة ، ثم عاد بعد ذلك تحت قواضى السياسة فاضطر الى التعاهد مع موسولينى على ترك هــذا المشروع ، ولو كان فى نفسه غير متزحزح عنه ؟ .

ان المحاضرات العلمية يقول فيها الانســان كل ما يعــلم ، ويستقصى ما يشاء ، ولكن المحاضرات السياسية لا يجوز أن يقول فيها الانسان غير ما تسمح به المصلحة ، وكثيرا ما يلتزم السياسى اختيارا لأهون الشرين أن يسكت على حقائق واضحة كالشمس ، وهذه أمور واقعة كل يوم فى جميع المجالس الدولية » (١) .

ومن مبــادىء شكيب قوله — وهو حكمة مأثورة — :

« اذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون » (٢) .

* * *

وشكيب رجل يكره المناصب ولا يحرص على الوظائف ، ولقد أشاع عنه بعض أعدائه فى سنة ١٩٢٧ أنه قد تقرر تعيينه سفيرا لسورية فى باريس ، وكانت فرنسة ما زالت محتلة لســورية ، فكذّب شكيب هذا ، وذكر أنه لا يقبل منصبا ولو استقلت سورية تمام الاستقلال ، فكيف يقبله وهى على هذه الحال ؟ . ثم قال :

« للمناصب أناس مولعون بها ، ولست منهم والحمد لله » (٣) .

وقد مرت السنوات بعد السنوات وشكيب يعمل ويجاهد

(١) الشباب ، عدد ٢٢ ديسمبر ١٩٣٧ .
(٢) المصدر السابق ، ٥ يناير ١٩٣٨ .
(٣) الشورى ، ١١ أغسطس ١٩٢٧ .

حتى قارب الثمانين ، دون أن يتقبل على الوظيفة أو المنصب ، ولقد أشاع عنه أعداؤه أن صلته بعبد العزيز بن سعود رشحته لمنصب سفير للحجاز فى احدى الدول فنفى ذلك ، بينما ذكر ابن سعود أنه يرحب بقبول شكيب مثل هذا المنصب .

ولشكيب نظرة وفراسة صادقة ، وطالما تنبأ عن أمور قبل وقوعها فجاءت كما حدث ، لا لأنه أوتى علم الغيب — فالغيب يعلمه الله — ولكن لأنه يحسن التدبر للأمور ، ويحسن التطلع الى العواقب .

لقد تنبأ مثلا أن ايطالية ستنسحب فى الحرب العالمية الأولى الى صف الحلفاء ، وكذلك كان . وتنبأ بأن انجلترة ستنكث وعودها التى أعطتها للعرب ابان تلك الحرب ، وكذلك كان . وقال ان الملك حسين ملك الحجاز سيندم وسيخلع من ملكه وكذلك كان . وتنبأ بأن نفيه سيكون الى جزيرة ، وكذلك كان .

ولما قيل له : ولماذا اخترت جزيرة ؟ . أجاب : لأن انجلترة لها جزائر كثيرة ؛ وقد نفى الملك حسين بعد ذلك الى قبرص .

وكتب شكيب قبل هذه الحرب مقالا بعنوان « نار أوربة من شرارة البلقان » وتنبأ فيه بأمور كثيرة وقعت ! .

يقول الدكتور زكى على فى هذا المقام : « الأمير شكيب كثيرا ما تكهن فى الأمور السياسية الخطيرة قبل وقوعها ، حتى اذا انحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل جاءت الحوادث مصداقا لتكهنه ، ودليلا على صواب حكمه ، ولاغرو أن هذا يعزى الى سلامة فطرته وأصالة رأيه وغلو معدن ذكائه ، وما وهبه الله من قوة فراسة

فوق ما امتاز به من الخبرة وبعد النظر والتجربة خلال عشرات السنين من حياته السياسية » [1] .

وشكيب يلحظ من نفسه هـذه الصفة ، ويعللها بالتفكير والتأمل ، وكثرة المطالعة ، فيقول : « لست من الكهان ، ولا من العرافين ولله الحمد ، ولا أنا بعجزى وضعفى من الأولياء الذين يكاشفون بكثير مما وراء حجب الغيب ، ولكنى أفكر وأتأمل ، وأكثر مطالعة الكتب والصحف ، لا سيما ما تعلق منها بالتـاريخ والسياسة ، ولذلك تصح أقوالى عن كثير من الحوادث قبـل وقوعها » .

ويذكر من قبيل ذلك أنه تكهن بنشوب الحرب العالمية الأولى قبل بدئها بنحو سنة وأربعة أشهر ، ونشر ذلك فى جريدة «الشعب» المصرية فى ٢١ مارس سنة ١٩١٣ ، وأعاد نشره حرفيا فى مجلة الفتح عدد ٥ صفر ١٣٥١ هـ (١٩٣٢ م) .

ويشير الى أمور تتعلق بالبيان ويقول : « وكأننى بدون أن أكون فى طوكيو قد عرفت الحالة هناك كما هى بمجرد القرائن ، ومعاركة الزمن ، وطول الخبرة » [2] .

* * *

وشكيب رجل منصف ، فهو برغم عداوته لدول الاستعمار والاحتلال فى أوربة لا يهضمهم حقهم عند التقدير ، ولا يفترى عليهم عند التصوير ، فهو مثلا يتحدث عن أسباب تأخر المسلمين ،

---

(١) الشباب ، ١٥ ديسمبر ١٩٣٧ .
(٢) الفتح ٢٧ رمضان ١٣٥٣ هـ .

وأسباب تقدم غيرهم ، فيذكر أن المسلمين فقدروا الحماسة التى كانت عند آبائهم ، « وانما تخلق بها أعداء الاسلام الذين لم يوصهم كتابهم بها ، فتجد أجنادهم تتوارد على حياض المنايا سباقا ، وتتلقى الأسنة والحرب عناقا ، ولقد كان مبلغ مفاداتهم بالنفائس وتضحيتهم للنفوس فى الحرب العامة فوق تصور عقول البشر ، كما يعلم ذلك كل أحد » .

ثم يحصى شكيب الضحايا التى فقدتها هذه الأمم فى الحرب ، ثم يخلص الى تقريع مسلمى عصره على تقاعسهم وبخلهم : « فليقل لى قائل : أية أمة مسلمة تقدم على ما أقدم عليه هؤلاء النصارى من بيع النفوس وانفاق الأموال بدون حساب فى سبيل أوطانهم ودولهم حتى نعجب نحن لماذا آتاهم الله هذه النعمة والعظمة والثروة وحرم المسلمين اليوم أقل جزء منها » ! .

ويشيد بتضامن الانجليز — مع أنهم من طليعة أعدائه — فيجيب من يتساءل عن السر فى سيادة انجلترة بقوله : « انها سادت بالأخلاق والمبادىء الوطنية العالية » . ويذكر عن رجل ثقة أن انجليزيا ذا منصب فى الشرق كان يأمر خادمه بأن يشترى الحوائج اللازمة لبيته يوميا من دكان رجل انجليزى فى البلدة التى هم فيها . فجاءه الخادم مرة بقائمة الحساب وفيها وفر قدره عشرون جنيها فى مدة شهر ، فسأله الانجليزى عن السر فى هذا الوفر . فقال له : لقد تركنا دكان الانجليزى ، وصرنا نشترى من دكان أحد العرب . فقال له الانجليزى : ارجع الى دكان الانجليزى الذى كنا

نشترى منه ! . فقال الخادم : ولو كان ذلك يؤدى الى زيادة عشرين جنيها ؟ . فأجاب : ولو كان ذلك كذلك ! .

كما يذكر أن كثيرين من الانجليز خارج انجلترة لا يشترون الأشياء ذات القيمة الا من انجلترة ، اذ يرسلون فى طلبها حتى لا يذهب مالهم خارج بلادهم ! [1] .

* * *

وشكيب — على الرغم من تواضعه ودماثة خلقه — يعرف قدر نفسه ، ويدرك قيمة الجهود التى يبذلها ويعتز بها ، ولا يجد حرجا فى أن يقرر أنه قد تهيأ له ولطبقته مالم يتهيأ لغيرهم ، من التبكير فى النبوغ ، والنضج قبل الأوان ، والمسارعة بالسبق ، فهو يقول لصديقه شيخ العروبة أحمد زكى : « الحقيقة أننا قوم أدركنا قبل الأوان ، ونضجنا قبل الأتراب والاخوان ، فالطبقة التى عاصرنا لم تكن بطبقتنا ، وانما أدركناها بقوة السبق ، فكأننا عددنا فى طبقتين ، وعشنا فى حقبتين ، وكأننا غلط فى التاريخ ، أو تقديم وتأخير فى التقويم ، وما أظنك فى هذه المسألة الا مؤيدا لرأى أخيك هذا » [2] .

ويصور مكانته فى العالم الاسلامى كما يراها بقوله : « لقد عود العالم الاسلامى هذا الفقير كاتب هذه السطور أن يسمع نداءه ، ويعتقد صحة روايته ، وهذا من فضل الله على ، ومما يسلينى فى غربتى المتمطية بصلبها .

---

(١) لماذا تأخر المسلمون ، ص ١٦ و ٢٠ .

(٢) الشورى ، ٢٠ اغسطس ١٩٢٥ .

ولى على استماع هذه الأمة لندائى أماثيل عدة لا حاجة الى التذكير بها ، وكأن المسلمين رأوا رجلا مضى علــى قلمه سبعة وأربعون عاما كريتا [1] وهو يجرى على الطروس فى خدمتهم بدون انقطاع ، وحرم عليه قلمه أن يطأ بقدمه قطرا من أقطار الشرق الا النادر ، وكل ذلك من أجل خدمتهم .

فلهذا أصبح اذا ناداهم يلتفتون ، واذا حدثهم يصدقون ، واذا استنهضهم يهبُّون ، واذا استندى أكفَّهم للخير يهبون » [2] .

ويخبرنا عن نفسه فى موطن ثالث وهو يشير الى كثرة كتابات السيد رشيد رضا وتآليفه بأنه — أى شكيب — لا يضيع دقيقة واحدة من وقته ، وأنه يتلقى أكثر من ألفى رسالة فى السنة ، ويرد عليها جميعها ، ويكتب زيادة عليها مائتين الى مائتين وخمسين مقالة فى السنة ، وينشر من التآليف بضعة آلاف من الصفحات ، ثم يقول : « فلست اذن لأغبط أحدا من الخلق على شــأو بعيد فى الجد ، ولا على محصول غزير من ثمرات الأقلام [3] » .

وهو فى موطن رابع يذكر أنه ليس المحرك الوحيد للحركات الوطنية فى شمال أفريقية ، ثم يستدرك بأن أهل تونس أعجبوا بمجلته (لا ناســـيون آراب) وهاموا بها ، وكاتبوه ، ونقلوا مقالاته ، ويضيف أن الحبيب أبو رقيبة أصـــدر عددا من مجلته « أبو رقيبة » خاصا بشكيب « ضمنه ترجمة حياة هذا الفقير اليه

---

(١) كريتا : كاملة .

(٢) الفتح ، ٢٢ رمضان ١٣٥١ .

(٣) السيد رشيد رضا ، ص ١٦٢ .

تعالى ، وذكر من الجملة قول السيد جمال الدين الأفغانى لى يوم لقيته فى الآستانة ، وأنا اذ ذاك فى سن الثامنة والعشرين ، وهو تلك الجملة الشهيرة التى لم يرد رحمه الله بها الحقيقة ، ولكنه أراد مجرد التكريم والتلطف .

وهى : (انى أهنىء أرض الاسلام التى أنبتتك) هكذا بالحرف ، فالتونسيون لم يحتاجوا فى يوم من الأيام الى هذا العاجز فى القيام بحركتهم الوطنية ، وانما كانوا يستظهرون بشواهد من كلامى » (1) .

ويقول شكيب عن نفسه : « شكيب أرسلان جاهد فى سبيل طرابلس المغرب أربعا وعشرين سنة ، وله فى هذا الجهاد ما لو جُلّد كتبا لبلغ عدة أجلاد ، وله فى (حاضر العالم الاسلامى) على طرابلس ستون أو سبعون صفحة ، من قرأها علم أنه لم يُكتب فى بابها مثلها » (2) .

ويقول : « وبديهى أنى أنا كنت من أعظم المشجعين للمغاربة على مقاومة دسيسة فرنسة هذه الرامية الى تنصير البربر ، وكتبت فى ذلك الوقت الى جمعية الشبان المسلمين فى مصر ، أنبهها الى هذا الخطر العظيم الذى حل باسلام المغرب ، والذى يشبه ما جرى من قبل باسلام الأندلس .

وبناء على كتابتى رفعت جمعية الشبان المسلمين بفروعها جميعا

---

(1) عروة الاتحاد ، ص ١٤٧ .

(2) الفتح ، ١٥ المحرم ١٣٥٤ .

أصوات الاحتجاج على فرنسة ، وصدر نداء عام فى مصر عليه تواقيع مئة وعشرين شخصا من أعيان الأمة المصرية » [1] .

ويقول مصورا مكانته اللغوية من خطاب له الى باحث جادله فى أمر لغوى ، « ومن حيث انك حملت الكلام محمل الجد ، فخذ من الجد ما يأتى : اننى مع قلة بضاعتى من الأصل ، ومع بعدى عن مكتبتى كما قلت ، كنت مستغنيا عن بحثك فى الكلمات التى تلفظ بالسين والصاد ، والكلمات التى تنقلب فيها التاء الى الطاء ، فقد أعلم منها بظهر الغيب أطول جدا مما ذكرت » [2] .

والواقع أن شكيب كثير التحدث عن نفسه ، وكثير الحديث عن التواضع بعد الحديث عن نفسه ، والحديث عن التواضع بعد ذكر الأمـور الشخصية يعده البعض تأكيـدا لذلك الحديث الشخصى ، وهذا الحديث الشخصى يعده البعض اعتزازا بالذات وعرفانا لقدر النفس ، والبعض الآخر يعده اغترارا أو أنوية .

وتحدث شكيب عن نفسه واضح فى كتابيه عن رشيد رضـا وشوقى ، وفى مقالاته ومذكراته السياسية .

وقد تبدو الحيرة على شكيب بين الاعتزاز والتواضع ، فهو مثلا يتحدث عن الشيخ عبد الغنى الرافعى فيقول « وصادف أنى أنشدت فى حضرته :

لو كنت من مازن لم تستبح ابلى
بنو اللقيطة من ذهـل بن شيبان

---

(١) عروة الاتحاد ، ص ١٥٠ .
(٢) الشورى ، ١٣ أكتوبر ١٩٢٧ .

فلحظ أنى أنشدته بدون لحن ، وكنت فتى فى السادسة عشرة من عمرى ، فهتف رحمه الله قائلا : ما شـــاء الله ، ما شـــاء الله يا سعادة البك » ! .

والى هنا كان شكيب قد قضى حقّ الاعتزاز بنفسه فى هذا الموطن ، ثم أعقب ذلك بحق التواضع ، فذكر لنا أنه يروى هذه الحادثة اقتداء بالسيد رشيد رضا الذى « كان يروى ما يسمع بدون زيادة ولا نقصان » (١) .

وفى موطن آخر يورد خبرا يتضمن اعتزازه بمكانته مقترنا بمحاولته تغطية هذا الاعتزاز بما يخففه ، حيث يقول : « وفى سنة ١٩٣٥ اقترح علىّ بعض سروات اخواننا المصريين مثـــل محمود بك سالم وعبد الباقى بك العمرى وغيرهما أن أتولى رئاسة مؤتمر اسلامى أوروبى أرادوا عقده فى جنيف ، وأبوا الا آن أكون على رأس هذا المؤتمر ، فلم يسعنى الا آن أجيبهم الى طلبهم هذا » (٢) .

فلنلاحظ هنا قوله : « اقترح على » وقوله : « وأبوا الا آن أكون على رأس هذا المؤتمر » وقوله : « فلم يسعنى الا آن أجيبهم الى طلبهم هذا » .

وطلبهم هذا ليس دعوة الى مأدبة غداء ، أو الى الاشتراك فى ندوة ، أو لالقـــاء محاضرة ، ولكنه دعـــوة الى رئاسة مؤتمر

---

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٥٠ .

(٢) عروة الاتحاد ص ١٤٨ .

اسلامی مشهود فی أوربة يدرس شئون المسلمين هناك ، وليس ذلك بالأمر الهين أو اليسير ! .

ويتحدث شكيب عن زيارته لبيت « جوته » الشاعر الألمانى المشهور الذى يصفه شكيب نفسه بأنه « أكبر شاعر ألمانى ، ومن أكبر شعراء الكرة الأرضية ، وفخر اللغة الألمانية والمتكلمين بها » ، وبأنه « ندر أن يكون قلب أحد شغف بحب الجمال والحق ما شغفه قلب جوته » ! .

وهناك قدّموا دفتر الزيارة الى شكيب كى يوقع فيه ، يقول شكيب : « فبدلا من الاكتفاء بوضع اسمى وتاريخ زيارتى راعيت صفة صاحب هذا البيت ، فاخترت أن أنظم هذا التذكار شعرا ، وكأن شيطان الشاعر الأكبر أحس بما كان يخالج قلبى ، فأمدنى بنتف من عبقريته ، فكتبت الأبيات الآتية بدون أدنى تأمل ، كأنى كنت أوقع بامضائى . الا أن البيت الأخير ليس لى ، فأردفت الأبيات به من باب التضمين ، وهى هذه :

مذ قيل : هذا بيت غوته زرته	اذ كان للشعراء كعبةَ قاصد
هو سيد الشعراء عنـد قبيله	منه بجيد الدهر عقدُ فرائد
طأطأت رأسَ قريحتى فى بابه	ولكم رأت عتباته من سـاجد
ان لم يكن من أمتى وعشيرتى	فالناس فى الآداب أمة واحد
« أو فاتنا نسب يؤلف بيننـا	أدب أقمناه مقـام الوالد » !

أرأيت ؟ . ان جوته شاعر الألمان الأكبر ، وفخر اللغة الألمانية ، وأحد أكابر شعراء الأرض ، قد أمد شكيب بنتف من عبقريته ؛ أى أن شكيب أتى بأبيات من طراز شعر جوته ، ولو فى هذا المقام

على أقل تقدير ، وهو قد ارتجل الأبيات دون أى تأمل ، كأنه يجرى بتوقيعه على القرطاس ! .. أليس هذا اعتزازاً بالذات ؟ .

ولم يكتف شكيب بالعبارة السابقة الظاهرة الاعجاب بشاعريته وارتجاله واقتداره ، بل زاد فى التنويه بقوله : « وبعد مجيئى الى برلين بأيام أخذ بعض الأصحاب يطلعنى على جرائد برلينية كالفوسيشى تساتيونغ ، وجرائد من فرانكفورت ومن هامبورغ وغيرها ، فيها وصف زيارتى لبيت غوته ، ونظمى هذه الأبيات ارتجالا ، وترجمة الأبيات بالحرف .

وظهر أن بلدية فرانكفورت هى التى انتدبت العلامة المستشرق الأستاذ هوروفيتز مدرس العربية فى جامعة فرانكفورت لترجمة الأبيات الى الألمانية ، وهو من الأدباء الراسخين فى العربية ، سبق له تدريس هذه اللغة فى عاليكرة بالهند ، كما أنه سبقت له ترجمة كثير من الشعر العربى ، من جملته ديوان الكميت ، فنشر الأستاذ هوروفيتز على هذه الزيارة وهذه المقطوعة مقالة ذهب فيها مذهب الغلو ، وجعل عنوانها (من شاعر الشرق الى شاعر الغرب) وأين الثريا من الثرى ؟ وأين اللآلىء من الحصى » ؟ [1] .

ولعلك تلحظ معى كيف يمزج شكيب هنا ببراعة بين حديث الاعتزاز بالنفس وحديث التواضع .

ويشير شكيب الى مدرس عراقى حمل على شكيب لأنه دعا الى الحلف العربى ، ثم يشير الى أديب عراقى كتب فى تقريظ شكيب مقالين ، ثم يقول :

---

(١) أناتول فرانس فى مباذله ، ص ٢٥٨ و ٢٥٩ .

« لا بأس ، عراقى كسر وعراقى جبر ، والحسنات يذهبن السيئات ، ولكننى فى الحقيقة ينبغى لو نظرت الى النتيجة أن أشكر القادح أكثر من المادح ، لأنى ما رأيت نفسى كبيرا كما رأيتنى عندما قرأت كلام الأول ، ولا رأيت نفسى صغيرا ضئيلا يتصبب العرق منى خجلا كما رأيتنى عندما قرأت كلام الثانى » [1] .

وهنا يتغلب جانب اظهار التواضع على جانب الاعتزاز بالذات، وان كان النقاد يقولون ان المتواضع كأنه يريد أن يحمل الناس على احترامه مرتين : الأولى لمكانته ، والثانية لتواضعه .

وانظر الى شكيب كيف يحسن التوطئة لايراد عبارة مديح فيه ، وكيف يعتذر عن ايرادها بالأمانة فى النقل والحرص على كلام المنقول عنه . انه يذكر أن أحمد تيمور باشا أهدى اليه أربعة كتب مصورة ، ومعها بطاقة ، فيقول : « وقد تفضل المرحوم بارسال بطاقة معها عليها بقلمه عبارة ينقل فيها ما فى نفسه الىّ ، ويخلع من أوصافه الباهرة علىّ ، وكنت أود أن أمسك عن نقلها ، وأين أنا منها ؟ . لولا الحرص على حفظ أقواله وايراد كلامه الدال على كماله ، فهو يقول : (هديتى للصديق الأجل زين العلماء وسيد الكتّاب الأمير شكيب أرسلان حفظه الله تعالى) » [2] .

وشكيب يتوقع أن يعترض عليه معترضون لأنه يزكى نفسه أحيانا ، أو يذكر عنها ما يثير شذا الاعجاب والاعتزاز بها ، ولذلك يدافع عن خطته ، ويوحى الينا بطريق غير مباشر أنه صادق

---

(١) الفتح ، ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٥٠ .
(٢) الفتح ، ٢٢ مايو ١٩٣٠ .

فيما يقول ، وأنه لا غبار عليه اذا ذكر شيئا من هذا القبيل ، فقد فعل مثلـه كثير" من أعلام السلف دون نكير ، وأن أعداءه والمفترين عليه يدفعونه الى أن يقف هذا الموقف ، لأن الدفاع عن النفس يستتبع مدحها وتزكيتها .

نجد هذا الدفاع حينما يذكر شكيب فى ترجمته للسيد رشيد رضا أنه اختار أن يورد ما كتبه السيد عن نفسه فى كتابه « المنار والأزهر » ، ثم قدر أن معترضا سيعترض بأن السيد لن يقول عن نفسه الا ما فيه تزكية له ، وما تطيب به أحدوثته بين الناس ، والقرآن الكريم ينهى عن تزكية النفس .

ويجيب شكيب بأن عـارفى السيد مجمعون عـلى صدقه « لا يقول الا ما يعتقد ، وقد يجوز فى بعض الأحايين أن يكون مخطئا ، ولكنه لا يجوز فى عرف عارفيه أن يكون كاذبا » .

وأنه لا يقول الا ما يعتقد « ويجوز أن يكون للناس فى هذا الموضوع مذاهب أخرى ، وأن يكون بعضهم ممن يتحرج عن ذكر نفسه ولو كان صادقا ، ومن يؤثر أن يطوى محاسنه تواضعا أو خشية أن ينسب اليه مجرد التبجح ، ولكن وجود هذا الخلق عند كثير من الناس لا يجب أن يكون قاعدة كلية من زاغ عنها فقد طغى .

وكم وكم فى الاسلام — بل فى العالم بأجمعه — من علمـاء أعلام ترجموا أنفسهم بأقلامهم ، ولم يتورعوا عن ذكر مآثر أتوها ، ومواقف شريفة وقفوها ، ولم يعد العلماء ذلك منهم أمرا منكرا » .

ويرد شكيب أيضا بأن رشيد قضى حياته فى مقارعة الخصوم

ومكافحة الأعداء ، وكان صريحا لا يداجى ، فكان مضطرا للدفاع عن نفسه بما يشبه أن يكون تمدحا ، وهو لم يقصد فى ذلك الا تبديد الشبهات التى أثارها أعداؤه فى حقه ، وهذا يدخل تحت قوله تعالى : « ولمن انتصر من بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » [1] .

وشكيب يرى أن الانسان اذا زكى نفسه بلا مناسبة داعية الى ذلك جاءت تزكيته ثقيلة على الناس ، حتى على أصحابه ، ولكنه اذا زكى نفسه فى رد فرية لحاسد ، أو اتهام من عدو ، لم يثقل ذلك على أحد ، ولذلك يعتبر العدو المفترى أنفع صديق للانسان [2] .

* * *

ويظهر أن شكيب كان يحس بأن تكرار دفاعه عن نفسه أو تزكيته لذاته لا يحلو وقعه فى نفوس قرائه دائما ، ولذلك كان أحيانا يعمد الى الدفاع عن نفسه بمقالات يوقعها بتوقيع مستعار ، كما نرى مثلا فى مقاله « دسائس الحكومات السورية على أوطانها » المنشور فى الشورى بتاريخ ٩ يونيه ١٩٢٧ ، وقد قالت الجريدة عن المقال انه « لكاتب يشار اليه بالبنان » ، وهو بتوقيع « سورى عربى » ، وأسلوب شكيب ظاهر فى المقال ، وهو يرد فيه على أحمد نامى وشارك دباس ، لأنهما أرسلا الى أمريكة يقولان ان شكيب لا يمثل سورية ، وينسبان اليه اتهامات أخرى .

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٢٠ ــ ٢٣ .
(٢) الشورى ، ١٦ ابريل ١٩٣٠ .

وكان شكيب اذا لم يتيسر له أن يدافع عن نفسه جهارا أو استتارا ، يحرض بعض أصدقائه على هذا الدفاع ، وفى بعض الأحيان يكون التحريض رمزا أو اشارة ، واللبيب تكفيه الاشارة ، كما نفهم من رده على صحيفة « مخادنت » التركية التى كانت تهاجم شكيب ، فقد كتب فى مجلة الفتح بتاريخ ٢٨ فبراير ١٩٢٩ ، يقول فيما يقول :

« وأما الطعن الشخصى فننصح هذه الوريقة وغيرها من النافخين فى هذا البوق بأن يعدلوا عنه ، لأنه على فرض أنى لا أنزل الى ميدان كهذا ، ولا أبالى ما تقول بحقى (مخادنت) ولا غيرها من أمثالها ، فقد ينزل الى هذا الميدان من لست أضمن اسكاتهم ، ويقرعون النبع بالنبع ، ويكيلون لا لمخادنت التى هى دون الكيل ودون الوزن ، بل لسادتها أولئك ، بالكيل الأوفى والجمام [1] الأعظم ، وينشرون مخازيهم الشخصية وفضائحهم الشهيرة ما يسد الأفق ويملأ الشرق والغرب » .

وهذا تحريض رقيق ملفوف من شكيب لمن لا يضمن اسكاتهم ، ويكيلون بأوفى المكاييل ، كى ينهضوا فيدافعوا ، ويقرعوا السهم بالسهم ! .

ولقد سمعت الأستاذ محمد على الطاهر صديق شكيب وصاحب جريدة « الشورى » يقول : قال لى الأمير شكيب : « ماذا نصنع مع الناس ؟ أخى عادل يقاتل الفرنسيين فى سورية

---

(١) الجمام : الكيل الى رأس المكيال .

بالسيف ، وأنا أحارب أعداء المسلمين بقلمى وبصرى ، ثم يشتمنا النـاس ، ولا نجد من يدفعهم عنـا ، أتريدون أن ندافع عن أنفسنا » ؟ .

لقد تعمدت أن أسوق تباعا هذه الشواهد على اعتزاز شكيب بنفسه ودفاعه عن جهوده ، لكى تجلّى صفة واضحة فى شخصية شكيب من جهة ، ولكى نقف على جوانب من المعلومات المتعلقة بحياة شكيب ، فان كل موقف ذكرناه ، أو نص أوردناه ، قد عاون على اعطاء جانب من هذه المعلومات .

ولا ينبغى أن نترك الحديث عن النفس والاعتزاز بالذات ، دون أن نعرف رأى شكيب فى الشهرة ، فهو يتحدث عنها ويذكر أنها لا تجوز أن تكون ميزان الفضل ، لأن فى الناس من يغتصب الشهرة ويلصقها بنفسه ، وقد يقبع فى كسور الخمول من لو اطلعت على حقيقته لأجللته وأحللته أعلى مقام ، ومن هؤلاء — كما يقول شكيب — أخوه نسيب أرسلان الذى كان من فحول الشعراء ، ولا يكاد يعرفه الا الذين أتيح لهم أن يعرفوه اتفاقا ، وذلك لفراره من الشهرة ، ثم يقول :

« ولا أريد من ذلك الطعن فى حب الشهرة ، وتضعيف هذا المشرب ، وهو مبعث الهمم ، ومثار كوامن الفضائل ، ومظهر درر القرائح من أصداف الأدمغة ، ولكن أريد أن تكون درجة الشهرة هى درجة الفضل ، فكم فى الزوايا من خبايا » [1] .

* * *

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٩١ .

ومن صفات شكيب المتصلة بما مضى من حديث غضبه لكرامته ، وقد حدث أن زار شكيب مدينة « طنجة » بالمغرب ، فغضب الفرنسيون من ذلك ، وعملوا على اخراجه منها ، ووجهوا اليه انذارا يقولون فيه : « ان المدعو شكيب أرسلان الذى هو فى طنجة رجل مهيج ينبغى طرده منها » .

ولما تسلم شكيب هذا الانذار من يد رجال الشرطة وقرأه غضب ، وألقاه بكل غلظة على المنضدة وذكر أنه ليس بالذى يقال له : المدعو شكيب أرسلان ، فهو ليس بالرجل المجهول ، ولا يقبل هذا التحقير ، فعنده رسائل من ملوك وقياصرة ورءوس متوجة يخاطبونه فيها بكلمة « الأخ » ، والحكومة الفرنسية نفسها تعرف شكيب أرسلان تمام المعرفة ، وقد استدعته قبل اليوم ثلاث مرات بصورة رسمية الى باريس لتذاكره فى القضية السورية .

وطلب شكيب من رجل الشرطة أن يسحب هذا الانذار ، وخرج شكيب من « طنجة » الى « قادس » ، وهناك انتقم لنفسه بأن أرسل الى معتمد فرنسة فى طنجة خطابا ابتدأه بقوله : « الى المدعو فلان الفلانى سفير فرنسة فى طنجة » ثم قال : « كان ينبغى لى أن أحترم فى شخصك الدولة التى أنت تمثلها ، ولكن من حيث ان هذه الدولة قد جعلت ممثلا لها رجلا غير عارف بواجبات الأدب فقد ارتفع عنى وجوب احترامها ، ولذلك أقابلك بمثل فعلك » ! .

وبعث شكيب بالرسالة ، وأرسل منها خمس نسخ أخرى الى طنجة حتى تذيع وتشيع !! .

* * *

ومن صفات شكيب غلبة حسن الظن عليه مع ما يصحب ذلك أحيانا من رد الفعل المؤدى الى سوء الظن أكثر من اللازم ، ولقد حدث خلاف بين شكيب وصديقه وأخيه رشيد رضا ، فكتب رشيد الى شكيب يقول : « سبحان الله ، ان هذا الصديق — يعنى شكيب — يغلّب حسن الظن على سوئه فيمن لا يعرف من الناس ، ويتأول لهم أو يدافع عنهم ، ويناضل دونهم ان أمكن ، ثم هو يسىء الظن فى أخلص الناس له ، وأعرفهم بقدره ، وأحرصهم على رفعة ذكره » [1] .

ومن صفات شكيب ايمانه بكرامات الأولياء ، حتى يذكر لنا فى هذا الباب أشياء غريبة ، فهو يذكر ما رآه بعينيه من خوارق أعمال الشيخ على العمرى الطرابلسى ، فيقص كيف يتفل الشيخ على قصاصة ورق ، ويمسح بها عينى الشخص فكأنه قد وضع البارود فى عينيه ، وتنهمر منهما الدموع كالماء الجارى ، ويبقى على هذه الحالة دقيقتين أو ثلاثا ، ثم تعود عيناه الى حالتهما المعتادة ، ويذكر الذين وقع لهم هذا .

كما يذكر أن والدته مرضت مرضا خطيرا أشرف بها على اليأس ، وأن الشيخ أخذ ورقة ووضع عليها بقلمه خطوطا متعرجة لا معنى لها ، وقال لشكيب : ضعوا هذه الورقة بماء الورد ،

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٤٠٦ .

ولتشرب والدتك من هذا الماء بعد ذلك مرتين أو ثلاثا فتبرأ باذن الله .وكذلك كان ! .

ثم يقول شكيب : « أما ما سمعته عن كرامات العمرى وخوارق أفعاله ، ومن أفواه أناس ثقات لا يمكن اتفاقهم على الكذب فشيء كثير ومن أنواع شتى ، ولكنى حصرت الحديث فيما شاهدته بعينى ، واختبرته بنفسى ، وكما أرويه عنه أيضا أنه نفخ مرة على نارجيلة كان يدخن بها قاض تركى كان قاضيا فى ملطية ، وكان ذلك فى مجلس أنا فيه ، فسمعت هذا القاضى يقول : فاح مسك الشيخ ، ولله فى خلقه أسرار » [1] .

ويضاف الى هذا ايمانه بالرؤى والأحلام واتصال الأرواح ، فهو يذكر أنه وقع له من الرؤى التى تحققت بحذافيرها بعد اليقظة شيء كثير ، وسمع مثلها من غيره ، ومنها أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم وقد فرغ من صلاته ، وجعل يصور كيف رآه ، ثم يخبرنا بأنه راجع كتاب « تفسير المنامات » للشيخ عبد الغنى النابلسى ليعرف تفسير رؤياه ، فوجده يقول : ومن رآه صلى الله عليه وسلم يصلى فان الله يجمع على يده ما تفرق من أمر المسلمين [2] .

ويتحدث عن وفاة صديقه رشيد رضا التى حدثت يوم ٢٢ أغسطس ١٩٣٥ ، فيذكر أنه فى يوم ٢٣ أغسطس ١٩٣٥ نهض من النوم صباحا فى غاية الانزعاج ، بعد أن حلم أحلاما كلها غم وكرب،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٥ ــ ٥٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٣ و ٧٤ .

ولم يكن الا صباح بأمثل : « فيكون قد شعرت بالمصاب باتصال الأرواح ، والا فما الذى أوجب أن أقضى ذلك الليل فى أحلام مزعجة ، ويصبح علىَّ الصباح وأنا فى غم شديد أشعر به ولا أعلم سببه » . ثم يبين كيف وافق هذا الوقت وفاة السيد رشيد رضا ، ويقول : « فيكون الحلم الذى أنا رأيته وقع فى مساء يوم وفاته رحمه الله ، أو الليلة المسفرة عن اليوم التالى ، وليست هذه بأول واقعة لى من هذا النوع » [1] .

* * *

وكان فى شكيب دعابة ، فهو يقول النكتة ، ويمازح أصدقاءه شعرا ونثرا ، وفى رسائله التى بعث بها الى أصدقائه كثير من مظاهر حبه للدعابة فى أوقات راحته ورضاه ، ومن أمثلة ذلك أن المرحوم شيخ العروبة أحمد زكى باشا قد أقام لطائفة من أصدقائه مأدبة بسفح الأهرام قدم فيها خروفين ، ودار حولها شعر من الأمير عادل أرسلان وخير الدين الزركلى .

واطلع شكيب — وهو فى لوزان بسويسرة — على ما نشرته « الشورى » فى عدد ٢٢ يناير ١٩٢٥ عن تلك المأدبة ، فكتب الى شيخ العروبة فى عدد ١٩ فبراير التالى يقول :

« سيدى الأخ الأستاذ العلامة

السلام عليكم من محب مشتاق اليكم ، يسأل الله أن يزيدكم علما ، ويؤتيكم فى الحق حكما . ولولا أن يقال لى ما قيل للمرحوم

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٧٧ .

أخى حفنى ناصف (وكان يلقب بأبى جلال) عندما تشوق الى وقائع الأدياك الرومية من القاهرة الى أسيوط بقوله :

اختراع مركونى شىء جميـــل   لكن أحسن منه هنـــــــــاك
أبو جـــلال من ألفين ميـــل   شم الطبيخ من غـــير أسلاك !

لكنت هتفت لمن شهدوا واقعة خروفى المعلوم والمجهول : (يا ليتنى كنت معهم فأفوز [1] فوزا عظيما) لا سيما وقد كنت أذهب معكم الى جوار الأهرام ، ولى هناك مغاز تحت لوائكم فى جنس الخروف الى اليوم لا أنساها » .

ولقد كتب فى عدد ٣٠ ابريل ١٩٢٦ مقالا بعنوان « سورية ومراكش فى البرلمان الفرنساوى » تحدث فيه عن ميل فرنسة أخيرا الى التساهل فى قضيتى سورية ومراكش بسبب أزمة مالية وقعت فيها بسبب هبوط الفرنك ، فكان مما قال : « ذلك الميل الى سماع نغمة الصلح ليس الا نتيجة مرض الفرنك ، نسأ [2] الله فى أجل شفائه » ثم يقول : « نعم كان الفرنك العليل نعم الحليف لعبد الكريم » يقصد الأمير عبد الكريم الخطابى بطل المغرب .

ثم يقول مشيرا الى جهود سلطان الأطرش فى ثورة سورية : « ولكن سلطان الأطرش لم يكن ليقدر وحـــده على اقناعهم ، لولا أن وقف الفـــرنك بجانبه . ان لله جنـــودا من الفرنكات المتدهورة » ! ..

وكان شكيب يداعب شوقى ، ويثيره فى مداعبته له حـــول

---

(١) فى الأصل : « لأفوز » وصحة الآية « فأفوز » .
(٢) نسأ : مد وأبعد .

الأعمار ، وكان شوقى يضيق بمن يذكره بهذه الناحية ، ولقد كتب شكيب فى عدد ٤ نوفمبر ١٩٢٦ يذكر أن آخر لقاء له مع شوقى كان سنة ١٩١٤ ، حيث أخبره فى ذلك اللقاء أنه قد عرفه فى قهوة « داركور » بالحى اللاتينى بباريس منذ ٣٤ سنة ، فأطرق شوقى — كما يقول شكيب — اطراق من صك سمعه ذكر الأربع والثلاثين سنة ولم ينبس بشىء .

فقال شكيب لمن حوله وشوقى يسمع : منذ عرفت شوقى تفرست أنه سيكون سيد شعراء هذا العصر ، وذكرته فى كتاب (ابن سراج) مستشهدا بشعره ، وقائلا انه شاعر العصر ، وهذا من تسع وعشرين سنة .

فالتفت شوقى نحو شكيب وقد أزعجته هذه الأرقام الفلكية ، وقال وقد تأثر عصبه : « يا أخى ، تمسكك بهذه التواريخ ، لا أدرى لم » ؟ . فضحك شكيب ومن معه [1] .

ولقد ذكر أحمد زكى باشا شكيب فى بعض مقالاته بقوله : « الأصغر منى سنا (؟ !) والأكبر منى فضلا وعلما » فجزع شكيب من هاتين العلامتين (؟ !) الاستفهام والتعجب ، لأنهما تدلان على التشكيك وتثيران الشبهات ، فكتب يداعب زكى باشا ويعتب عليه هاتين العلامتين ، كما يعتب عليه أن يصفه بقوله : « شيخ أشياخ العروبة ، وفحل خؤولته فى كهلان ، وعمومته فى قحطان » .

---

(١) انظر أيضا ص ١٠ من كتاب شكيب عن شوقى .

ويتساءل شكيب : « أفلا قال : فتى فتيان العروبة مثلا ؟ . أو هلا اقتصر على كلمة : فحل » . ثم يقول : « فلا يخفى على مثل الأستاذ وهو سيد العارفين أن الالتئام بين (مشيخة الأشياخ) و (الفحولة) شيء صعب ، وأن اللفظة تبقى من القلق بمكان فى جملة كهذه » .

ثم يحاول شكيب أن يوجد لكلمة (شيخ) معنى مجازيا لا يدل على الشيخوخة والطعن فى السن ، فيقول : « فالشيخ لا يجب حتما أن يكون عالى السن قد اشتعل رأسه شيبا ، بل يقال شيخ لكل عالم ولكل رئيس ولكل مقدم ، ولو كان فى ريعان الشباب ، وشيوخ الأزهر أعزهم الله ليسوا بأجمعين بالغين من الكبر عتيا ، بل أكثرهم من دون الكهولة ، ومع أنهم شبان يقال لهم شيوخ .

لا بل الأزهرى يجب أن يقال له شيخ ولو كان ابن عشرين ، لأن فى ذلك رفعة من مقامه ، لا بل يعد تحقيرا له الضن عليه بصفة شيخ ، اللهم الا نفرا من المجددين المتفرنجين الذين يريدون أن ينفضوا من العمامة ومن لقب الشيخ معا » [1] .

ولا عجب أن يكون شكيب صاحب دعابة ، فقد كان يحب الطرب ويهوى السماع ، وهو يحدثنا عن أن صديقه شوقى وعده بليلة طرب يسمع فيها نغمات العود ، وأن هذا الوعد مضى عليه

---

(١) الشورى ، ٣ مايو ١٩٢٨ .

خمسة عشر عاما دون أن ينساه ، وأنه لن يترك حقه فيه ، والبدوى يأخذ ثأره ولو بعد أربعين سنة [1] .

وكان شكيب يطرب اذا سمع سامى الشوا يعزف على « الكمان » ، ولقد سمعه ذات ليلة فأعجب به وقال مرتجلا :

أميرَ (الكمنجة) قد حملتَ امارة
لها ، وغدا فيها لواؤك معقودا
فلو سمعتها منك نجد وأهلها
أجازوا الكمنجة والمزمار والعودا

وواصل سامى العزف ، فعاد شكيب يرتجل :

فلست لعمرى مالكا لرصانة وان أبلغ السبعين أن أترنما
اذا لعبت فى كف سامى كمنجة فما أجدر الأوتار أن تتكلما [2]

* * *

ولابد أن يكون لشكيب عيوب ، فجل المعصوم من النقص ؛ وكل انسان فيه نواحى ضعفه ، وقد أسرف أعداء شكيب فاتهموه بعيوب افتروا عليه فيها ، فزعموا أنه كان درزيا فى باطنه يتظاهر بالسنية لاخفاء مآربه ، وانه كان ضالعا مع جمعية الاتحاد والترقى التركية التى اضطهدت العرب ، وأنه كان ممالئا للطاغية أحمد جمال باشا فى فتكه بأحرار العرب ، وأنه رضى بتجويع اللبنانيين فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وأنه أخذ أموالا من ايطالية للمساومة على القضية الطرابلسية ، وأنه تلون فهاجم الشريف

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٨١ .
(٢) منبر الشرق ، عدد ١٧ يوليه ١٩٥٥ .

حسين بن على ثم عاد فمدحه ، وكذلك فعل مع فيصل ، وأنه استغل صلته بالسعوديين لمنفعته المادية .. الخ .

وقد ناقشت هذه الاتهامات فيما مضى من حديث ، كما تعرضت لبعضها فى رسالتى الأدبية اللغوية عن شكيب ، كما أن رسائل شكيب الى رشيد رضا وغيره تكفلت بتفنيدها واقامة الأدلة على كذبها ، وابانة الأسباب المؤدية الى افتعالها .

ولكن الرجل له عيوبه ، فقد لاحظت عليه حسن الظن ببعض الناس الى درجة فيها لون من الاسراف ، واجابته على كل ما يرد اليه من رسائل أو أسئلة ، فى توسع وتفصيل ، دون معرفة لحقيقة بعض من يراسلونه أو يسألونه ، واكثاره من الكتابة دون تجويد فى بعض الأحيان ، ناسيا أن المكثار معثار ، واكثاره الاشارة الى جهوده والتنويه بها ، وتكراره الموضوعات التى يكتب فيها والمسائل التى يطرقها .

ويلاحظ عليه رشيد رضا أنه يندفع أحيانا فى اظهار آرائه ، دون أن يراعى الظروف التى تجب مراعاتها ، ولقد كتب الى شكيب أكثر من مرة ينصحه بعدم الاندفاع فى ابداء الآراء ، ويعترف شكيب بصواب هذه النصيحة [1] .

ومن عيوب شكيب وقوعه فى التناقض أو ما يقرب منه أحيانا ، فهو يكتب مثلا فى الشورى بتاريخ ٤ يونيه ١٩٢٦ مقالا بعنوان « الصيف ضيعت اللبن » يخاطب فيه أحمد نامى رئيس الحكومة

---

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٧٢٦ ـ ٧٢٩ و ص ٧٨٤ .

السورية الذى يريد عقد اتفاق بين سورية وفرنسة ، ويعارض شكيب هذا الاتفاق ، ويشترط لقبوله تحقيق مطالب الوطنيين والثوار قبل عقده ، فيقول لنامى :

« فاذا نصحت وصدقت ، ولم تقبل المنصب الا على هذا الشرط — قبول مطالب الوطنيين والثوار — قلنا لك : انك نعم الشبل لابراهيم فخرى بك — والده — الذى كان فى أنفه من الشمم ، وفى صدره من الحمية ، ما يتفرق على جم غفير فيكفيهم ، ونقول لك : أهلا وسهلا ، ولا أعز منك ولا أغلى .

وان كنت تريد أن تكون (طبعة ثانية) لصبحى بركات ، وأن تستعمل صفتك الوطنية واسطة لترويج أغراض الأجنبى الذى أنعم عليك برئاسة الحكومة ، فاعلم أن جواب السوريين حاضر ، وهو : أنك جركسى غريب الديار ، لا تختلف عندنا شيئا عن الجراكسة المرتزقين الذين جاءوا الى بلادنا يقاتلوننا فى صفوف الأعداء ، فيكونون ازدادوا بك واحدا » ! .

أرأيت كيف يذم شكيب ويمدح فى وقت واحد ؟ . أرأيت كيف رفع نامى وأشاد به ، ثم عاد فخسف بمكانته الأرض ؟ . هذا مع أنه قال عن نامى قبيل النص السابق : « وأحمد نامى بك مع حبنا له ، ومع ما كان من اجلالنا واجلال الجميع لقدر أبيه المرحوم ابراهيم فخرى بك .. » .

ولكن شكيب عاد فكتب فى عدد ١٦ يوليه ١٩٢٦ يقول عن المسيو جوفنيل معتمد فرنسة فى سورية : « وبينا الألعوبة التى

يريد أن يلعبها بواسطة أحمد نامى بك الجركسى الذى هو أجنبى عن الوطن وعن المطالب الوطنية .. » ! .

لعل أخف ما يقال عن هذا الموقف هو قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « ان من البيان لسحرا » . ويحسن أن تتذكر هنا أن عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأل النبى عمرو بن الأهتم عن الزبرقان ، فقال : مطاع فى أَدْنَيْه ، شديد العارضة ، مانع لما وراء ظهره .

فقال الزبرقان : يا رسول الله ، انه ليعلم منى أكثر من هذا ، ولكنه حسدنى . فقال عمرو : أما والله انه لزَمِرُ المروءة ، ضيّق العطن ، أحمق الوالد ، لئيم الخال ، والله يا رسول الله ما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الأخرى ، ولكنى رجل رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وسخطت فقلت أقبح ما وجدت [1] .

فقال النبى عليه الصلاة والسلام : « ان من البيان لسحرا » . أى يعمل عمل السحر ، والسحر هو اظهار الباطل فى صورة الحق .

* * *

وخلاصة القول ان أمير البيان كان رجلا فيه الحماسة والحيوية والتواضع فى مواطنه ، والاعتزاز بالنفس فى مواطنه والتحلى بالخصال الكريمة التى يتوارثها العرب كابرا عن كابر .

---

(١) أدنيه : جمع أدنى وهو الأقرب . والعارضة : الصرامة . وزمر المروءة : قليل المروءة . وضيق العطن : قليل المال . وانظر فى الكلام على المثل مجمع الأمثال للميدانى ، ج ١ ص ٧ .

رجُلٌ بحّاثة!

عاش شكيب أرسلان ما يقرب من ثمانين عاما ، ونستطيع أن نقول انه أنفق منها ستين عاما فى القــراءة والكتابة والخطــابة والتــأليف والمراســلة والنظم ، فكتب فى عشرات من المجلات والصحف مئات ومئات من المقالات والبحوث ، وكتب الآلاف من الرسائل ، وألقى مئات من الخطب ، وأدلى بمئات من الأحاديث والبيانات ، ونظم عشرات وعشرات من القصائد ، وأصدر عشرات من الكتب ما بين مؤلفة ومحققة ومشروحة ومعلق عليها ، فمن كتبه المؤلفة :

الباكورة — لماذا تأخر المسلمون — الارتسامات اللطاف — تاريخ غزوات العرب — ديوان الأمير — شوقى أو صداقة أربعين سنة — الحلل السندسية — السيد رشيد رضا أو اخاء أربعين سنة — الوحدة العربية — النهضة العربية — عروة الاتحاد — رسالة البلاشفة — الى العرب — رحلة ألمانية — أعمــال الوفد السورى الفلسطينى — لائحة الى المسيو جوفنيل .

ومن الكتب التى حققها أو علق عليها ونشرها : الدرة اليتيمة لابن المقفع — المختار من رسائل الصابى — محاسن المساعى فى تاريخ الأمام الأوزاعى — روض الشقيق — تاريخ ابن خلدون — حاضر العالم الاسلامى .

ومن الكتب التى ترجمها : رواية آخر بنى سراج — أناتول فرانس فى مباذله .

ومن مخطوطاته : بيـوتات العـرب فى لبنان — البيان عما شهدته بالعيان — تاريخ بلاد الجزائر — ما لم يرد فى متون اللغة — حياة شكيب بقلمه — بحث عن طرابلس وبرقة — الحلة السنية — اختلاف العلم والدين (مترجم) — مدنية العرب — الجيش المعبأ — قضيتنا مع الخديوى — ذكريات الحرب [1] .... الخ .

وله مجلة بالفرنسية فى الشئون العربية ظل يصـدرها عدة سنوات ، واسمها الأمة العربية LA NATION ARABE .

ولقد كتب شكيب فى سنة ١٩٣٥ رسالة الى صديقه هاشم الأتاسى ، وحدثه فيها عما كتبه فى هذا العام ، فاذا هو ١٧٨١ رسالة خاصة ، و ١٧٦ مقالة فى الصحف ، و ١١٠٠ صفحة فى كتب طبعت، ثم قال شكيب : « وهذا محصول قلمى فى كل سنة » [2] .

ومنذ وقت مبكر لاحظ السيد رشيد رضا على شكيب أنه يرهق نفسه فى الكتابة والقراءة ، ورجاه أن يترفق بها ويخفف عنها ، وذلك فى رسالة تاريخها ٢٨ شباط ١٩٢٩ وفيها يقول :

« اننى أكاشفك بما فى نفسى من أسى وامتعاض من أخبـار صـحتك ، ومن كثرة تحدثك بتحديد عمـرك واسـتقبالك لشيخوختك ، وبما هو آلم من ذلك مما يشـبه نعى نفسـك ، وأستغرب منك مع هذا اصرارك عـلى ما تعودت من اسراف فى

---

(١) فصلت الحديث عن آثار شكيب المختلفة فى رسـالتى عن النواحى الأدبية واللغوية فى حياة شكيب

(٢) الأعلام ، ج ٣ ص ٢٥١ .

القراءة والكتابة ، غير مشفق على عينيك من كلال ولا تعب ولا وجع ، ولا على صدرك من ضيق ولا شجى .

فارفق بنفسك ، فان حقها عليك مقدم على جميع الحقوق ، ثم ان لبدنك عليك حقا ، وان لأهلك وولدك لحقـا ، وانك لن تستطيع أداء حقوق الملة والأمة والوطن اذا أنت فرطت فى حقوق نفسك وبدنك ، فاتق الله وعليك بالرفق والأناة ، وخفف من حزنك وهمك والتصدى لمقاومة كل خطب ، والرد على كل مخطىء » .

وبتاريخ ١٢ تشرين الثانى ١٩٣٢ يعود رشيد ليقول فى رسالة الى شكيب : « ان الضرورى الذى يجب عليك أن تراعيه قبـل الأجوبة على المكتوبات وعن المصنفات وعن السياسات هـو أمر صحتك العامة ، ووقاية عينيك خاصة ، فداهما الله بألوف العيون من الأكابر والأصاغر ، وبعيون المهى والجآذر من نعمـان الى حاجر » [1] .

وهذا الانتاج الضخم لابد له من طاقة ولابد له من مدد ، فكيف تيسرت لشكيب الطاقة ؟ ومن أين جاءه المدد ؟ .

لاشك أن شكيب رجل موهوب ، وساعدته ظروف نشأته وحياته وجهاده على تفجير ينابيع هذه الهبة ، ولكن ينبغى أن نلاحظ أن دراسته فى المدارس كانت محدودة ، اذ يمكن أن يقال انه لم يبلغ نهاية الدراسة الثانوية فى التعليم المدرسى النظامى ، ولم يشهد شيئا من التعليم الجامعى ، ولكن المدد جاءه من دراساته الخاصة

---

(١) السيد رشيد رضا ، ص ٥٢٢ و ٦٨٣ .

ومطالعاته العامة ، اذ كان لا يبالى بطول الوقت يقضيه دارسا منقبا ، باحثا مراجعا ، حتى انه ليطالع ويكتب كل يوم ثلاث عشرة ساعة ، « بجلد لا ملل معه ، وصبر لا تفاد له » ! [1] .

ولقد حدثنى الأستاذ عونى عبد الهادى فقال : ان شكيب كان يتابع كل الجرائد والمجلات والكتب ، وبخاصـــة ما تعلق منها بالاسلام والعرب والشرق ، وله اطلاع واسع مدمن ، وذاكرته قوية ، ويعرف نطاق البحث ومصادر الموضوعات ، فاذا أراد البحث فى موضوع تناول مصادره بسهولة وشرع فيه ! .

وبمناسبة الاشارة الى قوة الذاكرة عند شكيب أذكر أنه تحدث عن هذه الناحية ، فقال انه فقد أصول طائفة من قصائده ، فأملاها كلها عن ظهر قلب ، وأملى من قصائد أخرى مفقودة أبياتا غير قليلة [2] ، ويقول الأستاذ رفائيل بطى ان شكيب اشتهر بقوة الذاكرة الى حد يكاد يبعد عن التصديق ، وقد روى عنه أنه صحح لمؤرخ اليمن الشيخ عبد الواسع اليمنى فى كتابه « تاريخ اليمن » أمورا كثيرة فى الفقه والتاريخ والتراجم من ذاكرته فورا [3] .

ويقول عنه الأستاذ عبد العزيز عزت : « لم أجد أعلم منه فى شئون العرب كافة فى جميع الأقطار ، ولا أعلم منه بأحوال المسلمين فيها ، ولا أوثق بالتاريخ الاسلامى ، كما تشهد بذلك مؤلفاته الجليلة ، ولم يكن يفوته ما يكتبه علماء أوربة فى ذلك ، فيحبذ من

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، مجلد ٢٢ ص ٨٨ .
(٢) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ٣٣ .
(٣) مجلة الكتاب ، مجلد سنة ١٩٤٧ ، ص ٥٧٢ .

كان على حق ، وينتقد المخطىء بأدب الانتقاد ، مظهرا وجوه ار بالتى هى أحسن »[1] .

وحدثتنى زوجة شكيب فقالت : ان حياته كلها كانت قراءة وكتابة ، ولم يكن عنده وقت للجلوس مع أبنائه ، أو للمشاركة فى تعليمهم .

وشكيب يصور لنا حبه للقراءة وشغفه بالمطالعة فيقول : « ما أحببت طول الحياة فى وقت مثل الوقت الذى أطالع فيه ، هناك يعز الفراق » . ويقول : « كان أحد الظرفاء يقول لى : لا أشبع من أكل العنب ، لولا أنه يوجعنى حنكى ، وأنا لا أشبع من الكتب لولا أن المطالعة فى الليل تحدث لى حريقا فى عينى[2] » . وقد تحدث كثيرا فى رسائله الى رشيد رضا وغيره عن الآلام التى تصيب عينيه بسبب ادمان القراءة ، وعن وسائل العلاج التى يتذرع بها لتخفيف هذه الآلام .

ويتعرض شكيب لتفنيد قول من قال ان الدروز من بقايا الصليبيين ، ثم يستشهد لذلك بأن المؤرخين السابقين واللاحقين لم يقل منهم واحد بذلك . ثم يسرد علينا قائمة بأسماء هؤلاء المؤرخين والباحثين مما يشعرنا بأنه رجع اليهم واستعرض أقوالهم ، وتأكد من عدم وجود ذلك القول عند أحدهم . انظر اليه يقول : « فلا ابن الأثير ولا ابن خلدون ولا ياقوت الحموى ،

---

(١) ذكرى الأمير ، ص ٢٤ .

(٢) الشورى ، ٨ يناير و ٢١ مايو ١٩٣٠ .

ولا أبو الفداء ولا ابن عساكر ولا الذهبى ، ولا أبو شامة صاحب الروضتين ولا ابن شداد ولا ابن العديم ، ولا ابن خلكان ولا ابن قاضي شهبة ولا العمرى ، ولا شمس الدين بن طولون ، ولا الصلاح الصفدى ، ولا النجم الغزى ولا شيخ الربوة ولا المحبى ، ولا أحد ممن كتبوا عن سورية أشاروا الى حادث كهذا ، مع أنهم نقبوا عما هو أصغر منه كثيرا .

وأغرب من هذا أن مؤرخى لبنان الذى فيه الدروز لم يشموا أدنى رائحة لأمر كهذا ، فلا السمعانى ولا الحاقلانى ولا جبرائيل القلاعى ، ولا الدويهى ولا ابن أسباط ولا صالح بن يحيى ، ولا الصفدى مؤرخ الأمير فخر الدين بن معن ، ولا طنوس الشدياق ولا بطرس البستانى ، ولا غيرهم ذكر أن الدروز من بقايا الصليبيين »[1] .

أرأيت هذه القائمة الطويلة الممتدة لأسماء المؤرخين والمؤلفين ما بين سابقين ومتأخرين ؟ أرأيت الى هذه المراجع التى قاربت ثلاثين مرجعا كتبها قرابة ثلاثين مؤلفا ؟ . ان شكيب قد رجع اليها واستنبأها من أجل مسألة واحدة ، هى تكذيب أن الدروز من بقايا الصليبيين ، فماذا يصنع اذن مع بقية المسائل والموضوعات ؟ .

ولا ينسى شكيب هنا أن ينهنه مفاخرته بمطالعته بشيء من التواضع المعتدل ، فيقول : « ولا أقول انى قرأت كل ما كتب الأوربيون عن الشرق والشرقيين ، وأحطت بهذه المسألة علما ،

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ١١ ص ٤٥٥ .

ولا أحد يقدر أن يدعي هذه الاحاطة ، ولكني قرأت بدون شك في هذا الباب ما يندر أن يكون تيسر مثله لغيري » [1] .

ولقد حضر شكيب مجلسا في مدينة (بن) ، وجاء ذكر الحروب الصليبية عرضا ، فأخذ شكيب يلخص الحوادث ويذكر تواريخها وأشخاصها ، وأفاض في تفاصيل الحروب الصليبية ، وذكر الملوك والجنود من الشرق والغرب ، وكلما ذكر دولة من الدول الاسلامية كالأيوبية أو العبيدية أو المماليك أو غيرهم ، ذكر أسماء ملوكها وآبائهم وأبنائهم وعمود نسبهم الى آخر أيامهم ، وأنشد ما قال الشعراء في الوقائع ، وذكر بعض النكت والطرائف .

واستمر يتكلم بتحقيق وتدقيق أدهش الحاضرين من العرب والمستشرقين ، وأخذ بعضهم ينظر الى بعض ، لأن الأمير ألقى ما ألقى ارتجالا ، فكيف لو أعد للكلام عدته ؟! [2] ..

وحين وقف شكيب على كتاب أحمد فارس الشدياق « الواسطة في معرفة أحوال مالطة » وجده يقول ان العرب لم يسكنوا بلدا الا تنسب اليه جماعات من أهل العلم ، الا مالطة فلم نعثر على كتاب جاء فيه . قال المالطي مثلا :

وهناك لا يعد شكيب الأمر منتهيا ، بل يطمح بحكم نهمه في المطالعة والبحث الى أن يجد شيئا من ذلك ، فيعلق على كلام الشدياق بأننا لم نحقق شيئا — بعد دور الانحطاط — من تاريخ

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٥١ .

(٢) فصل الاستاذ تقي الدين الهلالي الحديث عن هذا المجلس في مجلة الشباب ، ٢٠ يوليه ١٩٣٨ .

العرب ، لا فى مالطة فقط ، بل فى صقلية وسردانية وكورسيكة وكالابرة وسواحل ايطالية وجنوبى فرنسة وجبال سويسرة .. الخ.
ونحن لم نبحث فى هذه الأصقاع كلهـا عن شىء من الآثار العربية الكثيرة ، لا مما هو مسطور فى ورق ، ولا مما هو منقوش فى حجر ، ولا مما هو متواتر بالخبر ، وجمـدنا على معلومات محدودة بقيت لنا فى الكتب التى أعفتها النار ، أو سلمت من البوار ، وأبينا بتقاعسنا أن نزيد عليها شيئا .

ثم يخلص شكيب الى طلبته ومراده فيقول : « ومن يدرى فقد يمكن لو تقبنا فى الآثار ، ونفجنا [1] دفائن التاريخ أن نعثر على جملة : قال العلامة المالطى ، واليه ذهب العلامة المالطى ، ولله در الأديب فلان المالطى ، وما أشبه ذلك » .

ثم يستثير شكيب همة أخيه أحمد زكى باشا شيخ العروبة لينجده ويبحث معه عن آثار العرب فى مالطة ، حتى يهتفا معا : تحيا مالطة ! .

ويستجيب شيخ العروبة لصاحبه ، ويكتب مقالا عن مالطة وميناءها والماء فيها واقليمها وسكانها ودياناتها والهجرة منها ، ولكنه لم يتحدث عن المسألة التى أرادها شكيب ! .

ولم يسكت شكيب ، بل عاد بعد ما يقرب من أربع سنوات الى الموضوع فى كتابه « تاريخ غزوات العرب » ، وتذكر أنه قرأ فى بعض كتب التراجم من مؤلفات أهل الأندلس أسـماء رجال

---

(١) نشرنا وأثرنا .

منسوبين الى مالطة ، وفى معجم ياقوت يذكر نقلا عن السلفى :

سمعت أبا العباس أحمد بن طالوت البلنسى بالشقر يقول : سمعت أبا القاسم بن رمضان المالطى بها يقول : كان القائد يحيى صاحب مالطة قد صنع له أحد المهندسين صورة تعرف بها أوقات النهار الصنج ، فقلت لعبد الله بن السمطى المالطى : أجز هـذا المصراع : (جارية ترمى الصنج) فقال :

بها النفـوس تبتهج

كأن من أحكمهـا الى السـماء قد عرج

فطـالع الأفـلاك عن سر البروج والـدرج[1]

أرأيت ؟ . ان عادة النهم فى المطالعة والبحث التى صارت كأنها غريزة عند شكيب لم تترك الموضوع عند المرحلة التى بلغها ؛ بل واصل التنقيب حتى استدرك على الشدياق بما قرأت ! .

* * *

ويذكر بعض المؤرخين أن السلطان سليم نظم بيتين وكتبهما بيده على عمود المقياس الموجود على شاطىء النيل فى مصر القديمة، وهمـا :

الملك لله ، من يظفـر بنيل منى
يردده حقا ، ويضمن بعده الدركا

لو كان لى أو لغيرى قيد أنملة
فوق التراب لكان الأمر مشتركا !

---

(١) انظر الشورى ، ١٢ و ١٩ ابريل ١٩٢٨ . وتاريخ غزوات العرب ، ص ٢٩١ .

فيأتى شكيب مصححا ، ويقول : ان البيتين ليسا للسلطان سليم ، وانما هو قد استشهد بهما ؛ لأن شكيب وجد هذين البيتين فى « اللزوميات » لأبى العلاء المعرى [1] .

ويتحدث شكيب فى سنة ١٨٩٩ — وسنه ثلاثون عاما آنذاك — عن اتساع التأليف فى الاسلام ، وعن كثرة ما ضاع من المؤلفات ، وعن ضخامة ما فى مكاتب الآستانة العلية من كتب ، ثم ينبئنا بأن عادته أن ينقب فى المكتبات ، وأن يترك كتب العلوم المعروفة والتى تسمى بالآلات ، ويتجاوز ما يعلم أن التصنيف فيه شىء كثير ، الى ما يعلم أن التأليف فيه عزيز نادر ، وربما وجد فى المكتبة الواحدة تآليف عديدة فى فنون من العلم وضروب من الحكمة وشجون من القول ، قلما يظن ظان أن كتبة الشرق أجالوا فيها قلما ، أو وطئوا لها عتبة .

فاذا هم قد أوسعوها بحثا وتنقيبا ، وقتلوها علما ودراية ! .

وربما وجد صفحات بأسرها تحصى كتب علوم ما كان يظن المسلمين مصنفين بها الا اشارات فى حواشى الكتب ، ورموزا فى تضاعيف المباحث ، أو على الأكثر فصولا فى المتون المشهورة ، أو الأصول التى تعمّد أصحابها الاحاطة ، وذلك لما نظن من قلة قيامهم على هذه العلوم واشتغالهم بها .

والأمر فوق ما نظن ، وبعض الظن اثم ، وعدم الاطلاع آفة

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ١٧٦ .

الحكم ، فلا يظن ظان أن ما نراه من مشهورات التآليف هو ملاك أمر العربية .

ثم يذكر أن الذى أدار فى ذهنه هذا المعنى حتى فاض على سن القلم هو كتاب اطلع عليه فى سنة ١٨٩٩ فى مدينة دمشق ، وهو آية باهرة ، واسمه : « الكواكب الدرارى » تأليف أبى الحسن على ابن الحسين بن عروة الحنبلى ، من أتباع الامـام ابن تيمية ، والكتاب يبحث فى جميع العلوم ، وهو يشبه دائرة المعارف فى التبسيط والاستقصاء ، الا أنه يختلف عنها فى الترتيب مع حروف الهجـاء .

والمحفوظ من هذا الكتاب فى المكتبة الظاهرية اثنان وأربعون مجلدا ، والظاهر أن الباقى المفقود أكثر من الموجود ، وأنه يبلغ مئة وعشرين مجلدا ، لأنه قد وُجد منه المجلد العشرون بعد المئة ، وتاريخ تصنيفه سنة ثلاثين وثمانمائة للهجرة ، واشترك فى كتابته جمـاعة .

والمجلد من هذا الكتاب نحو خمسة وثلاثين كراسا ، تشتمل على سبعمائة صفحة من القطع الكبير ، وهذا الكتاب لم يذكره صاحب « كشف الظنون » مع كونه أمرا عظيما ، مما يدلك على عدم الاحاطة ، وعلى غيب كثير من فرائد اللسان عن الانتظام فى عقود الفهارس ، وأن أيدى الضياع قد عبثت بمعظم ما خلفـه السابقون من النفائس [١] .

---

(١) مجلة المشرق ، أول آذار (مارس) ١٨٩٩ .

أرأيت غرام الرجل بالبحث ، وهيامه بالمراجعة والتنقيب ؟ .

وفى سنة ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م يزور شكيب المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، ويعنى فى طليعة ما يعنى به هناك بزيارة مكتباتها البالغة يومئذ سبع عشرة مكتبة ، ثم يكتب عنها معرفا بها ، ذاكرا أسماءها وأماكنها وصفاتها ، ويتحدث على سبيل المثال عن جانب من نوادر الكتب فى مكتبة شيخ الاسلام حكمت عارف بك هناك ، مثل كتاب « التشبيهات » لأبى اسحاق ابن أبى عون البغدادى ، وقد كتبت عن هذا الكتاب وعثور شكيب عليه مقالا فى « منبر الشرق » بتاريخ أول يوليه ١٩٥٥ ووجهت فيه الحديث الى أخى الجليل الأستاذ على الجندى بمناسبة اهدائه الى كتابه القيم « فن التشبيه » .

ويمضى شكيب فيقول : « لا يمكننى أن أذكر جميع ما اطلعت عليه فيها من الأسفار ، لأن ذلك شىء يطول جدا ، فضلا عن كونى انما اطلعت على شىء لا يكاد يكون شعرة من جمل ، أو حبة من رمال الدهناء »[1] .

ويمضى شكيب خلال حياته كلها على هذه الطريقة : من الولوع بالمطالعة ، والشغف بالقراءة ، والهيام بالبحث عن الكتب والمخطوطات ونوادر الآثار العلمية والفكرية ، فحينما قام برحلة الى الحجاز للحج ، وهم بأن يكتب عن الطائف كتب الى صديقه أحمد تيمور باشا يرجوه أن يستنسخ له على نفقته ما فى مكتبته —

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى ، ١٧ ذى الحجة ١٣٦٩ هـ .

مكتبة تيمور ، وأعظم بها من مكتبة ! — من تآليف عن «الطائف» و « وج » من بلاد الحجاز .

فلبى تيمور الرغبة ، وبعث اليه بنسخ أربعة كتب هى : « اهداء اللطائف من أخبار الطائف » لحسن بن على العجيمى المكى من علماء أواخر القرن الحادى عشر الهجرى ، و « تحفة اللطائف فى فضائل الحبر ابن عباس ووج والطائف » لمحمد جار الله بن عبد العزيز الشهير بابن فهد المتوفى سنة ثنتين وعشرين وتسعمائة ، و « ونشر اللطائف فى قطر الطائف » لعلى بن محمد بن عراق الشامى ، و « رسالة فى فضائل سيدنا ابن عباس والطائف » لمحمد بن عبد الكريم القنوى الذى كان فى أواسط القرن الثانى عشر ! [1] ..

وفى موطن آخر يتحدث شكيب عن عنايته بالعثور على كتاب « الاكليل » لأبى محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف الهمدانى صاحب كتاب « صفة جزيرة العرب » ، ويبين كيف أخذ يتتبع الكتاب ، ويسأل عنه من يبحث أمره فى خزائن الآستانة وغيرها . ويحس قراء شكيب بأنه خير من ينهض لنشر هذا الكتاب، فيقترح عليه أحدهم أن ينشره وأن يعلق عليه « لتتضاعف حسنات هذا الأمير الجليل » .

ثم يأتى شكيب فى كتاب « الارتسامات اللطاف » ويحدثنا بأن كتاب « الاكليل » عشرة أجزاء ، ويذكر موضوعات كل جزء ، وأنه

---

(١) الارتسامات اللطاف ، ص ١٣١ .

سمع بوجود جزء منه فى مكتبة جامع بايزيد فى استنبول ، فأرسل الى أحد أصدقائه هناك ليخبره عنه ، فأجاب بأن الموجود هو الجزء الثامن ، وأنهم نقلوه الى مكتبة دار الفنون ، ونقل لشكيب منه صفحات .

وفى سنة ١٩٣٠ بحث شكيب عن الكتاب فى المكتبة الملوكية ببرلين ، فوجد فيها الجزءين الثامن والعاشر ، فصورهما مع غيرهما ، وصمم على نشر الجزءين ، ولكنه علم أن الأب أنستاس مارى الكرملى يباشر طبع الجزء الثامن ببغداد معتمدا على نسخ وقعت تحت يده ، فتوقف عن الطبع ، ومع ذلك أرسل الى اليمن يسأل عن الموجود من الكتاب فيها ، فأجيب بأن الموجود جزآن ! [١] ..

وحينما زار شكيب أسبانية — الأندلس ، الفردوس المفقود — كان التنقيب على نوادر الكتب فى طليعة ما يشغله ، وهناك عثر على كتاب « الفلاحة الأندلسية » لأبى زكريا يحيى بن محمد بن أحمد ابن العوام الأشبيلى الأندلسى ، وجده مخطوطا فى مكتبة «أكاديمية التاريخ » فى مجريط (مدريد) ، ونقل منه بعض أجزائه ، ثم تحدث عن طريقة المؤلف فيه ، والأشخاص الذين نقل عنهم ، كما ذكر النسخ المخطوطة التى يعرفها من هذا الكتاب وأماكن وجودها [٢] .

(١) انظر مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ١٠ ص ٤٣٩ ـ ٤٤٤ والمجلد ١٢ ص ٤٤٠ والارتسامات اللطاف ، ص ١٩٦ و ١٩٧ .

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى ، المجلد ١١ ص ٤٣٦ ـ ٤٤٠ (١٩٣١ م) .

ومن مظاهر هيامه بالآثار العلمية أنه كتب فى سنة ١٩٢٧ الى الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب مجلة « الفتح » يحدثه عن كتاب « سرائر القرآن فى تكوين وافناء واعادة الأكوان » تأليف الصدر الأعظم الغازى أحمد مختار باشا القوميسير العثمانى العالى فى مصر سابقا .

ويذكر شكيب أنه حرض مؤلفه على اظهار الكتاب بالتركية ، فظهر قبيل وفاته ، ثم يحرض شكيب محب الدين على ترجمته الى العربية ، واستجاب محب الدين لذلك ، وبدأ نشر الترجمة العربية فى مجلة « الفتح » ابتداء من عدد ١٥ سبتمبر ١٩٢٧ .

ويظهر أن العلاقة ساءت بين محب الدين وشكيب بعد ذلك ، ولعل هذا هو السر فى أن شكيب لم يشر الى ترجمة محب الدين للكتاب حينما عاد الى الحديث عنه فى كتابه عن شوقى الذى صدر سنة ١٩٣٦ [١] ، أى بعد البدء فى الترجمة بنحو تسع سنوات ! .

أما بعد فان هذا البحث الدائب لم يذهب هدرا ، بل كان له أحسن الآثار وأطيب الثمار ، وتحول على يدى شكيب الى مقالات وبحوث وأسفار ، ولقد استشهد أديب فى جريدة « الشورى »[٢] بكلمة الدكتور طه حسين : « من الكتاب من اذا كتب فكأنه يغترف من بحر ، ومنهم من اذا كتب فكأنه يقد من صخر » . ثم علق على هذه الكلمة ، فكان مما قال :

---

(١) شوقى أو صداقة أربعين سنة ، ص ١٦١ ·

(٢) لم يذكر اسمه ، ولكنه من القدس · انظر عدد ٦ أغسطس سنة ١٩٢٦ ·

« أما أنا فانى أعتقد أنه اذا لم يكن فى الأمة العربية من هـذا النوع الذى يغترف من البحر الا اثنان فلا بد أن يكون أحدهما بل أولهما الأمير شكيب أرسلان . بل انى أرى أن كلمة (اغتراف) قليلة عليه ، أيكون اغترافا من البحر ما نراه كل يوم من آثاره ؟ ألا ليس هذا اغترافا ، ولكنه تدفق » .

ثم قال : « انه قد يوجد من يشبه المغترف من البحـر فى موضوع واحد ، ولكن شكيب لا يكتب فى أى موضوع الا تدفق، كأنه موضوعه الذى انقطع له ، وقد يوجد من يغترف من البحر فى ظرف خاص ، كأن يكون بين كتبه ، وأما شكيب فيغترف من البحر فى كل حال : فى اقامة أو ارتحال . ومن الأدباء من يسبق الحوادث ، ومنهم من يعيش فيها ، ومنهم من يجىء بعـدها ، وشكيب يجمع بين الأحوال الثلاث ، فهو مثلا فى قضية سورية كان يعمل على انهاضها منذ أول عهده بالكتابة ، وهو اليـوم لا يألو جهدا فى نصرتها ، ونرجو ألا تحرم الأمة منه بعد فوزها فى ثورتها » ! .

ونضيف نحن أن شكيب لم يحرم أمته دفاعه عنها طول حياته، بل ظل يخدمها وينافح عنها ، حتى بعد تحررها وانطلاقها ، الى أن لقى ربه تبارك وتعالى ! .

رحمه الله عز وجل بقدر ما أخلص لدينه وعباده ! .

الصحافي الخطيب المؤرخ

شكيب الصحفى :

نشر شكيب أول مقالة فى احدى الصحف اللبنانية وهو فى السادسة عشرة من عمره ، فيكون قد اتصل بالصحافة وهو فى مطلع شبابه ، وفى سنة ١٨٩٠ م نجد لشكيب فى جريدة «الأهرام» مقالات ممهورة باسمه الصريح تارات ، وبتوقيعه الرمزى تارات أخرى ؛ واذا لم تصرح الأهرام باسمه جعلت تحت عنوان المقال عبارة : « لأحد الأفاضل السياسيين » .

وقد حدثنا شكيب عن هذه المقالات فى كتابيه عن « رشيد رضا » ، و « شوقى » ، واستمرت هذه المقالات سنوات : « والأهرام » حينئذ هى كبرى صحف مصر ، وان شئت قلت : هى كبرى صحف العالم العربى .

ثم أخذ شكيب يوسع دائرة اتصاله بالصحف فى لبنان وسورية ومصر وغيرها ، ويدفع اليها بمقالاته العربية والاسلامية ، والتاريخية والأدبية ، والسياسية والقومية ، فكأنه وُلد ليكون صحفيا ، وكأن الفيض الغزير لديه وجد أمامه المتنفس الفسيح الواسع فى صفحات الصحف والمجلات ، ولقد عرفنا أنه فى زيارته لمصر سنة ١٩١١ ، وهو فى طريقه الى الاشتراك فى حرب طرابلس ضد الاحتلال الايطالى ، ظل فى القاهرة أربعين يوما ، كتب فيها أربعين مقالة نشرت تباعا فى صدر جريدة « المؤيد » . فانظر اليه وهو يطلع على الناس كل صباح بمقالة مسهبة تستبد بالصفحة

الأولى من الجريدة ، حتى سمعتُ الأستاذ على الغاياتى يقول انه طلب من شكيب أن يختصر فى حجم مقالته ، حتى يجد زملاؤه الصحفيون نصيبا لهم فى الصفحة الأولى من الجريدة .

ولم يقتصر شكيب على الصحف العربية يكتب فيها ويراسلها، بل امتدت كتاباته الصحفية الى صحف « المهجر » ومجلاته ، والى الصحف الفرنسية وغيرها ، وواصل الكتابة بلا انقطاع خلال نصف قرن ، فهو يعد أحد كبار الصحفيين المعمَّرين .

وكان من عادة شكيب أن يسهب ويتوسع فى مقـالاته ، لأن المعلومات لديه كثيرة ، والقلم بيده سيال ، والجلَد عنده موفور ، وهو يكتب لفكرة ودعوة ، ومن شأن صاحب الدعوة أن يلح فى نشرها وبسطها ، وأن يتوسع فى تأييدها والدفاع عنها .

ولعل هذا بعض السبب فى أن شكيب كان ينشر المقالة من مقالاته فى أكثر من صحيفة ، ويبيح اعادة نشرها لمن يريد ذلك ، ويشكره على تكرار نشرها لأنه يوسع دائرة الاطلاع عليها ، وكان بعض الصحفيين يحاول الاستئثار بمقالات شكيب ، فاذا جاءت صحيفة وأعادت نشرها غضب وتألم ، فينهاه شكيب عن ذلك . ويرحب بتكرار النشر لتوسيع دائرة الاطلاع .

وشكيب سريع الكتابة حاضر البديهة ، لا يحتاج الى تمهل حين يكتب مقالته ، ولا يحتاج الى مراجعة ، أو الى « تبييض مسودات » ، وربما يكتب مقالته من صفحات ، والمطبعة تنتظر ، فيدفع اليها بالورقة بعد الورقة ، دون معاودة أو مراجعة ؛ ولقد عرفنا أنه زار الشيخ على يوسف وهو يحاول كتابة مقال فى افتتاح

العام الهجرى ، ولما تناقش معه فى الموضوع طلب منه الشيخ أن يتولى هو كتابة المقال ، فتناول شكيب القلم وكتب المقال وهو فى المجلس ، وكان ذلك وشكيب ما زال شابا ! .

وشكيب فى مقالاته يميل الى السهولة فى التعبير ، حتى يصل فى بعض الأحيان الى درجة « العامية » ، وهذا يناسب الأسلوب الصحفى الناجح ، لأن الكاتب الصحفى يخاطب جمهور القراء ، وهم من سواد الشعب ، وليسوا بمتخصصين أو متفاصحين يحتاجون الى تجويد العبارة وجزالة الأسلوب ؛ ويخيل الىّ أن هذا الأسلوب الصحفى عند شكيب كان يؤثر فى تأليفه ، فتبدو عبارته فى مواطن من مؤلفاته ، وكأنما هى كتابة صحفية ؛ وليست عبارة تأليف ! .

ولقد تناول شكيب فى مقالاته مختلف الموضوعات ما بين جليل وضئيل ، وما بين قريب وبعيد ، فهو يتنقل فى هذه المقالات بين مسائل السياسة ، والقومية ، والدين ، والأدب ، والنقد ، والاجتماع ، والمفاكهة ، والاخوانيات ، وغيرها .

وفى كثير من الأحيان يعتمد شكيب فى مقالته على التلخيص ، وهو فى هذا الباب صاحب رصيد ضخم بحكم اطلاعه الواسع ومطالعاته المستمرة ، ولا يرى حرجا فى أن يسوق خلال مقالته النصوص من قديم أو من حديث ، ولا يتحرج أن يقارن بين نص ونص ، أو أن يؤيد رأيا بنصوص متوالية ومتلاقية ، حتى ليكاد ينسى أنه يكتب مقالة ، فتسيطر عليه نزعة التأليف ، ومن هنا تشابه أدبه الصحفى بأدبه التأليفى فى كثير من الأحيان .

ولو رجعنا الى كتب شكيب لوجدنا قسما كبيرا منها كان فى الأصل مقالات نشرت فى الصحف أو المجلات ، فكتابه « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم » نشر مقالات فى جريدة « المنار » ، وكتابه « الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج الى أقدس مطاف » نشر مقالات فى جريدة « الشورى » ، وهو يشير الى ذلك فى مقدمة الكتاب حيث يقول : « ومن حيث أنى كنت أصدرها من وقت الى آخر فى جريدة سيارة ، كانت هيأتها أقرب الى أسلوب الجرائد منها الى أسلوب الكتب ، لأن الكاتب اذا كتب بين أسبوع وآخر متأثرا بالعوامل المختلفة ، ملاحظا المتجددات اليومية ، مراعيا حالة قرائه الروحية ، ذهب به الاستطراد كلّ مذهب ، وشردت به شجون القول فشرّق وغرب ، ولهذا جاء فى هذا الكتاب استطراد ليس بيسير من فصل الى فصل ، وان كان جميعه مرتبطا بالموضوع ، ومردودا الى الأصل »[1] .

وكتاب شكيب عن شوقى نشر جانب منه مقالات فى جريدة « الجهاد » كما ذكر ذلك شكيب ، ثم أكمله ونشره فى كتاب مستقل .

وتعليقاته على كتاب « حاضر العالم الاسلامى » تميل الى الصبغة الصحفية ، ويغلب أن يكون جانب منها فى الأصل مقالات ، ثم ألحقها بالكتاب .

ورسائل شكيب الى أصدقائه نستطيع أن نعتبرها نوعا من

---

(١) الارتسامات اللطاف ، ص ٤ .

المقالات الصحفية ، يبث فيها ما لا يستطيع بثّه فى الصحف ، والباحثون فى مقومات الصحافة يعتبرون الرسائل لونا من ألوان المقالات الصحفية ، وقد استطعت أن أجمع ما يقرب من مائتى رسالة بخط شكيب الى أصدقائه ، ومن مراجعتى لها وجدت كثيرا منها قوىّ الشبه بالمقالة ، ويكفى أن نحذف منها المقدمة ، وبعض ألفاظ التحية ، لتصير مقالة قائمة بنفسها ، لا يمنع من نشرها أحيانا الا أنها قد تدور حول موضوعات لا تصلح لوقوف الناس عليها بصفة عامة .

ويحسن هنا أن نلاحظ تفرقة شكيب بين المقالات والمذكرات، فهو يقول : « الفرق بين مذكرات الكتّاب المؤلفة ومقالاتهم المنشورة فى الصحف والمجلات السيارة هو أن الكاتب فى المذكرات يرى الأمور بمرآة نفسه ، ويوضح كيفية ذلك ، ولا يزال يظهر نفسه فى كل دقيقة ، وأن الكاتب فى المقالات المنشورة فى الجرائد يرى الأمور بمرآة نفسه وبمرآة غيره ، ولا يظهر نفسه الا نادرا » [1] .

* * *

ولقد ترك شكيب من خلفه تراثا صحفيا ضخما يحتاج الى الجمع والترتيب والنشر ، لتنتفع الأمة بهذا الفيض الغامر من المقالات والبحوث ، ولقد حدث فى سنة ١٩٣٠ م أن كتب الأستاذ محمد كردعلى الى شكيب يسأله أن يواصل كتابته فى مجلة المجمع

---

(١) الشورى ، ١٥ يناير ١٩٣٠ .

العلمى العربى بدمشق ، وأن يجمع ما يمكن جمعه من المقالات لنشرها فى كتاب مستقل ، فرد شكيب برسالة تاريخها ٩ مارس سنة ١٩٣٠ وفيها يقول :

« أما ما أشرت به من الكتابة فى مجلة المجمع فواجب ، وان لم نكتب فيها فأين نكتب ؟ . لكن يا أخى أصبحت من هذه الكتابة فى خطب وأى خطب ، كلما قرأ النـــاس لى مقالات فى الجرائد انهالوا علىّ بالاقتراحات ، ولا أبالغ اذا قلت ان الجرائد والمجلات التى تبغى أن أكاتبها تزيد عن أربعين ، وكلها تقترح وتجد من الواجب أن أجيبها الى رغبتها ، وبعضها اذا كررت الطلب ولم أبادر الى ارضائها بمقالة أو مقالتين لم تجمجم [1] استياءها .

ولا أعلم لماذا يؤدى كرم الأخلاق بالانسان الى العبودية ؟ . فأنا على ثقة أنى لو لم أكتب فى بعض جرائد وبعض مجـــلات ، وكنت قابعا فى زاوية أقرأ لنفسى وأكتب لنفسى ، ما كانوا يطمعون هذا الطمع بى، لكنهم ما داموا يقرأون هنا مقالة وهنا مقالة من آثار سخافتى ، تشتد بهم رغبة المطالبة والالحاف فى سؤالى مقالات .

ومن الغـــريب أن هؤلاء السائلين يعرفون ما الكتـــابة ، ولا يخفى عنهم أن المقالات لا يوحى بها وحيا ، ولا يقال لها : كونى فتكون ، وأن مقالة واحدة قد تأخذ نهارا تاما من الشروق الى أن تتوارى الشمس فى الحجاب ، ومنها ما يأخذ يومين وثلاثة ، وأن القصار منها ذات العمودين والثلاثة لا تحرر فى أقل من ساعة ،

---

(١) الجمجمة : أن لايبين الانسان كلامه، واخفاء الشىء فى الصدر.

وأن على هذا المسكين الذى يتقاضونه كلّ هذه المشاق أشغالا أخرى لنفسه ولعائلته ولوطنه ، وأن عنده كتبا لابد أن يطالعها .. الخ .

هذا لا يهمهم أصلا ، بل يعرفون جملة واحـدة من جميع بضائع الطلب : تكرموا علينا بمقالات من قلمكم السيال .

وفى أوربة يطالبون الكتاب بمثل ذلك ، لكن لا يضيعون على الكاتب دقيقة واحدة سدى ، فالوقت نقد ، وكل وقت عندهم له ثمن ؛ وأنا مضى على الآن ٤٤ سنة وأنا أحرك قلمى ، وأكتب الى الجرائد مجانا ، لا أبتغى جزاء ولا شكورا ، وأدفع أجرة البريدمن كيسى ، فلو حسبت ثمن وقتى ، بل أجر البُرد[1] من ٤٠ سنة الى اليوم لكان مبلغا لا يستخف به ، فأنا أسامح بكل ما تعبت ، وبكل ما أنفقت من ذهنى وعيونى ومالى ، وانما أستمطر شفقتهم أن ينظروا الى رجل وطىء ساحة الستين ، وصار محتاجا الى الراحة » .

ثم يقول شكيب : « وتشيرون بأن نجمع ما كتبناه ، أو شيئا مما كتبناه ، وهو أمر يحك فى صدرى دائما ، فهل عندنا الوقت اللازم لذلك ؟ . انى لا أريد أن أجمع ما كتبته ، فانه يملأ أجلادا وأجلادا ، ومن يقرأ هذا كله ؟ . ومن يؤدى كلف طبع هذا كله ؟

ولكنى أفكر فى انتقاء الأحسن وجمعه واعادة النظـر فيه وتصحيح شىء وحذف شىء ، واضافة شىء ان وجد ضروريا ، وهذا كله يستلزم وقتا .

---

(١) البرد : جمع بريد .

فأما طبع ما خطته بنانى فغير مستطاع ، لأنه مفقود منه الشيء الكثير ، والمحفوظ منه أزيد مما يلزم ، فانى فى أوربة منذ اثنتى عشرة سنة ، وفى الشهر الواحد من هذه المدة كنت أحرر لا أقل من ١٠ مقالات ، ففى السنة ١٢٠ مقالة ، ففى الاثنتى عشرة سنة ١٤٤٠ مقالة ، فاذا جعلت كل مقالة ٣ صفحات من قطع هذا المكتوب ، فهذه أربعة آلاف صفحة ، أى ثمانية مجلدات كبار ، وهذا من ١٢ سنة .

وقبل ذلك عشت أكثر من ثلاثين سنة وأنا أكتب ، فلا يقل المحصول الذى فى هذه الثلاثين سنة عن محصول الاثنتى عشرة سنة الأخيرة ، فهذه عشرة آلاف صفحة بالأقل .

كلا ، هذا لن أقدر على طبعه ، وهذا كله ذهب فى الجرائد الطائرة ، وهذا كله أنفقت فيه جوهر حياتى ، وكفنته بأجر البوسطة من كيسى ، وأجره على الله ، وغاية مكافأتى عليه أنهم بعد موتى سيقولون فى ترجمة حياتى : كان رحمه الله يكتب كثيرا جدا ، سبعا أو ثمانيا من الساعات كل يوم ، ولم يكن يساويه فى ذلك الا المرحوم كردعلى ، فذلك أيضا كان من الأفذاذ فى هذا الباب .

لا تحزن لقول : المرحوم كردعلى ، عسى لا يكون ذلك قبل مائة سنة ، ولكن ينبغى أن تعلم أنك لا تعطى حقك الا بعد فراق هذه الدنيا . وما دام المرء حيا فقلوب معاصريه قاسية عليه ، وأنا

أفضل أن تقسو عليك القلوب وأنت حى ، من أن ترثى لك وتكثر من انصافك ، وقد مضيت بعد زمان طويل » [1] .

أرجو قارئى أن يتذكر أن شكيب كتب هذا الكلام سنة ١٩٣٠، وأنه مات فى نهاية سنة ١٩٤٦ ، وأنه ظل يكتب مقالاته وينشرها الى ما قبل موته بشهر واحد[2] .

ثم أرجو قارئى أن يعود الى رسالة شكيب الماضية فيطالعها من جديد على مهل وفى تدبر ، ليرى مبلغ ما قدم هذا الرجل ، وعمق ما أحس به نحو ما قدم ونحو من قدم اليهم ما قدم ، وليدرك أساه البليغ وهو يصور حالته فى دنياه ، ومبلغ انصاف قومه له !!.

* * *

ومما يتصل بحديث « شكيب الصحفى » أنه أصدر فى سنة ١٩٣٠ مجلة فرنسية اللسان عربية الجنان ، اسلامية الوجدان، سماها « الأمة العربية LA NATION ARABE وبين يدى من أعدادها العدد الذى صدر فى مارس سنة ١٩٤٤ م ، وهو فى اثنتين وستين صفحة من الحجم المتوسط ، وورقها أبيض جيد ، وطباعتها متقنة ، وموضوعاتها تدور حول العروبة والاسلام ، وقضايا العرب والمسلمين .

وقد ثابر شكيب على اصدارها ، وضم اعدادها بعضها الى

---

(١) كتاب الأمير شكيب أرسلان ، حياته وآثاره ، ص ٩٢ — ٩٤ نقلا عن مجلة الكتاب ، مارس ١٩٤٨ ص ٣٨٠ .

(٢) ذكرى الأمير ، ص ٤٩٩ .

بعض ، لتكون على توالى الأعوام مجلدا الى جوار مجلد ، وتضم فى صفحاتها العديدة موضوعات شتى تهم كل عربى وكل مسلم .

ويقول الدكتور محمد سامى الدهان عن موضوعات هـذه المجـلة :

« ومقالاته فى أكثرها عنيفة سافرة مندفعة ، تتساءل غالبا عن الاستعمار فى القرن العشرين حين يتشدق الغرب بالرقى والحضارة والانسانية ، وهى تسأل الدوتشى : هل تلتقى تعاليم الفاشيست مع الانجيل فى شىء ؟ . وهل تقف مؤامرات الغرب ضد آسية وافريقية ، فتكف عن القتل والتعذيب فى سورية وغيرها من البلاد العربية والاسلامية ، وهى تتساءل كذلك عن فرنسة العلمانية ، وأعمالها التبشيرية فى الجزائر وغيره من أقطار العرب .

وكانت مجلة الأمة العربية كغيرها من (الصحف العربية) شبيهة بالعروة الوثقى لجمال الدين الأفغانى ، وصحف (الفتح) ، و (الجهاد) ، (الشورى) ، و (المؤيد) . وكانت منبرا من منابر الأحرار تهدد الاستعمار وتفضح التبشير ، وتثير قضـايا الحق والعدالة ، فكأن صفحاتها الخمسين مجلدات تحوى ملفات الدفاع عن العرب ، وتشع نورا هاديا للخير والمساواة ، بل كأنها نار تحرق أباطيل المستعمرين وحججهم ، بلغتهم وأسلوبهم وبيانهم ، فلم يكن بيان شكيب ليقل عن بيانهم ، ولم تكن ثقافته لتقل عن ثقافتهم فى الفرنسية ، ومن علم لغة قوم أمن مكرهم .

ويبدو أن الأمير نشأ صحفيا منذ كان فى بيروت يكتب الى الصحف العربية ، فلما رحل الى الغرب عاد الى الصحافة ، فأصبح

كاتبا صحفيا بالفرنسية كذلك ، شأنه شأن الدعاة المصلحين والزعماء المخلصين كمحمد عبده ، وجمال الدين ، والكواكبي ، ورشيد رضا ، وعلى يوسف ، يجعل منبره أنى رحل وأنى أقام فى جنيف أو غيرها ، كما جعل جمال الدين منبره فى باريس ، فهو يعتقد أنه يحمل رسالة أمته وقومه ، وأن من مهامه أن يدافع عن قضاياها ، فما وقف قلمه ، وما جف مداده .

والذين يحبون أن يعرفوا قوة البيان الفرنسى عند شكيب عليهم أن يعودوا الى أعداد هذه المجلة ، فيستعرضوا مقالاته فيها ، فهى مجموعة مطبوعة ، يستطيع الدارس أن يوازن بينها وبين مقالاته الصحفية بالعربية ، ليجد أن النّفَس واحد ، وأن الموضوع متشابه ، ذلك هو الدفاع عن العرب ، والايمان برسالتهم ، والدعاية لحضارتهم ، والتفاخر بأمجادهم وتراثهم .

وعسى أن يقوم الدارسون بهذه الموازنة ، فيجمعوا مقالاته الصحفية العربية فى مجلدات ميسرة ، ليقف العالم العربى على ما كان من جهاد شكيب فى العربية والفرنسية »[1] .

شكيب الخطيب :

ثم يأتى حديث « شكيب الخطيب » :

حدثنى الأستاذ على الغاياتى صاحب جريدة « منبر الشرق » ، وصديق شكيب ، ومخالطه فى سويسرة سنين طوالا ؛ حدثنى أن

---

(١) الأمير شكيب أرسلان ، ص ٢٠٣ .

أمير البيان لم يكن بالخطيب الموهوب ، ولكنه كان محدثا بارعا ، وسمعت قريبا من هذا من أناس كثيرين عرفوا الأمير أو التقوا به .

وهذا أمر لا يعيب أمير البيان ، ولا ينال من مكانته ؛ فالنابغ لا يستطيع أن يكون نابغا فى كل جهة من جهات النبوغ ، وحسب شكيب أنه قال الشعر فأجاد ، وان لم يكثر منه . وانه كتب الكثير الضخم من المقالات ، وسطر الكثير الضخم من البيانات ، وألف الكثير الضخم من المؤلفات ، وصاغ الكثير الضخم من الرسائل ، وخلّف من ورائه هذا التراث الفكرى الكبير الذى ندر أن نجد له فيه شبيها أو نظيرا .

ثم ان شكيب رحل عن وطنه العربى الى أوربة ، حيث عاشر قوما لا يعرفون لغته ، ولا يفقهون بيانه اللسانى ، ولذلك أجاد الفرنسية كأحد أبنائها ليفهموه عن طريقها ، وكان شكيب مع ذلك يعرف التركية والانجليزية ، والألمانية ، فهذه خمس لغات يحتاج تعلمها الى جهد وممارسة ، ويحتاج تنقل اللسان بينها الى جهد ومعاناة ، ويحتاج اتقان الخطابة بلغة منها الى تفرغ ودربة ، وقلم شكيب بيمينه يخط به ما يشاء ، فى سهولة واسهاب ، دون تقيد بمكان أو زمان أو ميقات أو جمهور ، ودون خشية لملل سامع أو قلق جالس .

ولذلك نجد الأستاذ رفائيل بطى يقول : « وأمر واحـد لم يشتهر به شكيب أرسلان : هو الخطابة ، فلم يؤثر عنه مواقف خطابية ذات خطر ، ولعل لانقضاء أمد طويل عليه يطـوّف فى البلدان الأجنبية ، ويتنقل فى المهاجر ، حاملا رسالة البعث العربى

الاسلامى ، وفى قلبه ايمان راسخ ، وفى يده قلم عسّـال ، مما احتسبهما لخدمة بنى أمته خدمة نَصوحا ، جعله بعيدا عن المنابر »[1] .

ولكن ليس معنى هذا أن أمير البيان كان ضعيف الخطابة ، فقد كان يخطب مُعِدًّا ما يخطب به أو مرتجلا له ، ولقد وقف فى الحفلات التكريمية التى أقيمت له بالمغرب ، « فأجاب الخطباء بفصاحته المعروفة وبيانه المعهود »[2] . وخطب فى جميع الحفلات التى أقيمت له فى الحجاز « فأتى — كما تقول جريدة الشورى — بالبينات وبالبدائع ، حتى أدهش الناس جميعا ، فانه والحق خطيب عصره وسحبان العرب ، يخطب ساعات طوالا مرتجلا فلا يتلعثم ولا يتلفت » .

واذا أغضينا عما فى عبارة الشورى من مبالغة تبدو فى قولها « خطيب عصره وسحبان العرب » أمكننا أن نقرر أن شكيب لم يكن ضعيفا فى خطابته .

وتمضى الجريدة فتقول ان شكيب وقف فى حفل « فرد على الخطباء بخطاب عظيم تناول فيه فلسفة الاجتماع والتاريخ ومعنى التجدد ، وضرب الأمثال فى الأمم البائدة والأمم الحاضرة ، دام

---

(١) ذكرى الأمير ، ص ٥٨ . والقلم العسال : يشبه القلم بالرمح العسال ، أى شديد الاهتزاز .

(٢) الفتح ، ٢٤ جمادى الأولى ١٣٤٩ هـ .

زهاء ساعتين ، وكان صوت الأمير جاهرا شديد النبرة ، حتى استحال السامعون جمرا متقدا » [1] .

وقبل ذلك بأكثر من سنتين كتب الأستاذ محمود ذكى باشا فى الشورى يقول بعد ذكره طائفة من محامد شكيب : « وأغرب من جميع ما تقدم أنك تراه يخطب ارتجالا فى موضوع من الأهمية بمكان ، وقد تستغرق خطبته ساعات ، ثم تأتيه بعد أيام ، وتطلب منه خلاصة ما خطب ، فيتناول القلم ويكتب لك الخطبة حرفيا ، حتى كأن فى مخيلته آلة جرامفونيـة ، تحفـظ كل ما يقـول أو يقال » [2] .

وخلاصة القول فى شكيب الخطيب أنه لا يتماثل مع شكيب الكاتب ، لأن القرائن تدل على أنه لم يكن فى الخطابة سباقا أو مبرزاً ، وان كان فى الوقت نفسه قادرا عليها غير ضعيف فيها ، وهو يعوض ما يفوته من عبقريتها بما يختزنه عقله وصدره من معلومات ، وبما يتفنن فيه من ألوان المحادثة البارعة التى تجعل الحديث ذا شجون ..

* * *

شكيب المؤرخ :

ثم يأتى حديث « شكيب المؤرخ » :

من النواحى البارزة فى شكيب أنه مؤرخ ، وهو نفسه يقرر

---

(١) الشورى ، ٩ أكتوبر ١٩٢٩ .

(٢) المصدر السابق ، ١١ أغسطس ١٩٢٧ .

أنه أغرم بالتاريخ منذ الحداثة ، حيث نجده فى كتابه المخطوط «بيوتات العرب فى لبنان» يقول عند تقديمه :

« ولما كنتُ من بداية نشأتى مغرما بعلم التاريخ ، وقد حررت فيه تواريخ كثيرة للبلاد النائية عنا ، وجدت من الأحرى بشأنى أن أؤرخ حوادث بلادى ، وأبدى فيها وجهة نظرى ، مع التحرى التام والتمحيص البليغ الذى تستطيعه الأفهام ، فوضعت هـذا الكتاب الذى أعطيته عنوان : بيوتات العرب فى لبنان ... » .

وفى نهاية المقدمة يقول : « وسلكتُ فيه سبيل التمحيص التى هى مزية المؤرخ الذى يحترم نفسه ، ويريد أن يكون فى عداد المؤرخين ، وما أبرىء نفسى من الخطأ ، اذ كانت العصـمة لله وحـده »[1] .

وشكيب يرى للتاريخ منزلة رفيعة ودرجة عالية ، لأنه ماضى الأمة وركيزتها ، ومصدر فخرها ومجدها ، ومبعث دفعها وحفزها ، ولذلك يرى أنه مما يجب أن يثبت فى الأذهان أن حفظ التاريخ هو العامل الأول لحفظ الأمم ونموها ، ورقى الشعوب وسموها ، ولا يتصور على وجه الأرض وجودُ أمة تشعر بذاتها ، وتعرف قدرها ، وتقوم بنفسها الا اذا كانت حافظة لتاريخها ، واعية لماضيها، متذكرة لأولياتها ومبادئها ، مسجلة لوقائعها ، مسلسلة لأنسابها ، حاشدة لأحسابها ، خازنة لآدابها ، مما لا يقوم به الا علم التاريخ

---

(١) منبر الشرق ، ٨ ابريل ١٩٥٥ .

الذى هو الواصل بين الماضى والمستقبل ، والرابط بين الآنف والمستأنف [1] .

وهو يضمن رأيه هذا فائدة التاريخ ومنفعته للأمة ، فهو الذى يعرف الأمة بقدرها ، وهو الذى يصل بين ماضيها وحاضرها وغدها ، وهو المصدر الذى تستقى منه آدابها ومفاخرها ، وهو الذى يقص عليها أمجاد أسلافها ، وصحائف أنسابها وأحسابها ، وهو الذى يبصرها بمقوماتها ودعائم شخصيتها .. الخ .

ولذلك هو يعتذر الى الوهابيين الذين ينهون عن زيارة القبور ، يعتذر اليهم اذا وقف على القبور الممثلة للمدنية العربية فى أسبانية ، ويطلب منهم السماح له بهذا الوقوف ، واعدا اياهم بأنه لن يعتقد بتأثير المدفونين فيها على نمط القائلين بتأثير البشر بعد موتهم ، ذاكرا أنه سيتأثر فقط تأثرا عظيما بما تستجلبه العبرة ، ويحدثه التأمل فى الماضى ، فزيارته اذن زيارة شرعية لا غبار عليها ! [2] .

ولكننا نلاحظ على شكيب فى كتاباته التاريخية أنه لا يتعمق فيها أحيانا ، فهو مثلا يكتب تاريخ الترك ، فلا يحلل ولا يفصل ، بل يسوق الحوادث تباعا ، ولقد عجبت له وهو ينقل عن ابن خلدون أن التاريخ من جهة شكله الخارجى هو تقييد الحوادث ، ثم يعود فينقل عنه قوله : « التاريخ هو الذى يعلمنا كيف تقلبت الأحوال على جميع الكائنات ، وهو الذى منه يعرف بناء الممالك ،

---

(١) تاريخ غزوات العرب ، ص ٤ .

(٢) الشورى ، ٢٣ يوليه ١٩٣٠ .

وكيفية عمارة الأمم لهذه الأرض ، كل أمة الى المدة المقدرة لها من الحياة .

فأما من جهة الأسرار الباطنة لعلم التاريخ فأعظم أسراره هو البحث عن الحوادث الى درجة اليقين بها ، والتأمل فى الأسباب التى أنشأتها ، وفى كيفية جريانها وتطورها ، فالتاريخ بالجملة انما هو فرع من فروع الفلسفة ، وهو جدير بأن يجعل فى عداد العلوم الجليلة التى لها المكانة الأولى »[1] .

عجبتُ له حين رأيته ينقل هذا ، ثم لا ينتفع به فى كتاباته التاريخية أحيانا ، فهو لا يستنتج ولا يستنبط ، ولا يستخلص من الأحداث قواعد اجتماعية أو ظواهر بشرية .. الخ .

ويظهر أن شكيب قد اكتفى فى هذه الأحيان « بالشكل الخارجى للتاريخ » الذى أشار اليه ابن خلدون ، وحصره فى « تقييد الحوادث » ، دون أن يتعرض شكيب لأسرار التاريخ أو لفلسفته، مع أنه على ذلك قدير ! ...

ومن ملاحظاتى على كتاباته التاريخية أن أجده فى كتابه « الارتسامات اللطاف » يريد أن يصف موقف عرفات العام ، فاذا هو يورد وصف ابن جبير الأندلسى لهذا الموقف على عهده[2] ، وابن جبير قد مضى منذ مئات السنين ، فأين اليوم من الأمس ؟ .

وشكيب ليس بعيدا عن عرفات حتى يستعين بوصف من شاهد

---

(١) تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص (هـ) .

(٢) الارتسامات اللطاف ، ص ٤٢ .

موقفها ، بل هو فى رحلة للحج ، وهو يشاهد موقف عرفات ، ويحس بما يثيره فى النفوس من مشاعر ، وقد طرأ على عرفات ما طرأ من تغيرات منذ ابن جبير الي شكيب .

ولو أنه ذكر ما قاله ابن جبير ، ثم وصف حالة عرفات الحاضرة، وقارن بين الماضى والحاضر ، لكان ذلك أمتع وأوقع ! .

ومثل هذا ما فعله بشأن المعادن فى جزيرة العرب ، فقد أراد أن يحدثنا عن هذه المعادن فى أثناء رحلته الى الحج ، فاذا هو يشغل من كتابه « الارتسامات » ما يقرب من خمس وثلاثين صفحة [1] فى ايراد ما قاله الهمدانى وياقوت والزبيدى عن هذه المعادن .

والهمدانى وياقوت والزبيدى قد مضوا منذ عهد بعيد ، وتربة الحجاز بباطنها وظاهرها تتعرض بمضى الزمن لما تتعرض له من تغير وتبدل ، فلا يقنع القارىء اذا بأن يكتفى معه شكيب بنقل أقوال الماضين عن معادن جزيرة العرب ، بل يهم القارىء أكثر من ذلك أن يعرف شأن هذه المعادن اليوم ، فمن حقه اذن أن يحدثه شكيب عن حاضر هذه المعادن ، حينما رحل اليها .

كأن شكيب قد نسى هنا قوله : « ويريدون أن يمحصوا تاريخ الأولين بالعقلية التى يمحصون بها تواريخ المعاصرين ، ويريدون أن يطبقوا ذا على ذا ، وأن يحكموا على الغابر بمقياس صنعوه من الحاضر ، وهذا خطأ أيضا ، لأن كل زمان له خواص » [2] .

---

(١) الارتسامات ، ص ٢١٩ ـ ٢٥٣ .

(٢) الشورى ، ٧ مايو ١٩٣٠ .

ونحن مع شكيب فى أن لكل زمان خواص ، ومقتضى هـذا ألا يقتصر شكيب على سرد أقوال المؤرخين فى الأماكن أو الأشياء المختلفة ، بل عليه أن يضيف الى ذلك حاضر هذه الأماكن والأشياء، حتى ندرك ما صار اليه شأنها ! .

ونلاحظ عليه فى تعليقاته على تاريخ ابن خلدون قريبا من هذه الملاحظة ، فانه يسرد الحوادث تباعا دون تعليق الا نادرا ، ولا يعنى بتقسيم الموضوع الى عناصر أو مراحل أو فصول ، مع أنه يطول أحيانا ثم يطول .

وتبدو نزعة « التلخيص » صـارخة عند شكيب فى هـذه التعليقات ، فهو يتوسع فى النقل مع التلخيص عن المراجع العامة ، وبخاصة ما كتبه عن « مذهب النشوء والارتقاء » و « التوراة ، وهل وقع فيها تبديل » و « تاريخ العرب الأولين » [1] .

ومن الملاحظات الشكلية على الكتابات التاريخية عند شكيب فى هذا المجال أنه لا يراعى النسبة بين التعليق والأصل الذى يعلق عليه ، فحينما يرد ذكر الترك مثلا فى تاريخ ابن خلدون ، يعلق على الترك ببحث فى تاريخهم يستغرق أكثر من ثلاثمائة صفحة [2] ، بحيث كان يحسن بشكيب ألا يجعل هذا تعليقا ، بل يطبعه فى كتاب مستقل بعنوان « الترك » أو « تاريخ الترك » أو « الأمة التركية » .

---

(١) انظر تاريخ ابن خلدون ، ملحق الجزء الأول ، ص ٣٠ ـ ٤٤ و ص ٥١ ـ ٦٨ و ص ٦٩ ـ ٨٧ .

(٢) انظر المرجع السابق ، من ص ٩٠ الى ص ٤١٨ .

وشكيب نفسه يؤيدنى فى هذا ، فهو يعترف بأن ما كتبه عن الترك هنا كتاب مستقل ، اذ يقول عن الأمة التركية : « فرأيت أيامها ملأى بالحوادث الكبار ، شاغلة ما بين دفتي الليل والنهار ، فمضيت فيه متوكلا على الله ، من أول تأسيس هذه الدولة الى بداية الحرب العالمية ، متوخيا فى الوصف الحد الوسط ، متجانفا عن خطتى المفرّط والمفرِط ، ولا أظن كتابا قد وضع فى العربية عن الدولة العثمانية قد وضع على غرار هـذا الكتاب ، لا سيما فى العصر الحاضر .

فأما القسم المتعلق من تاريخ هذه الدولة بالحرب الكبرى فقد أرجأته الى فرصة أخرى ، ريثما أكون قد عرفت ما يجب أن أملكه فى هذا الموضوع من المواد ، وأسلكه من الجواد [1] ، والله أسأل العون والتيسير ، انه تعالى من وراء السداد » [2] .

الحمد لله على أن شكيب لم يفكر فى مواصلة الحديث عن الترك حتى تبلغ الصفحات خمسمائة أو أكثر ، وبهذا يزداد الطين بلة كما قال القدماء ! .

رحم الله أمير البيـان ، لقـد كان يكيل بأوفى المكاييل من معلوماته ومطالعاته ، وهو مشكور على كل حال ، اذ هو يقدم لقارئه مائدة دسمة متعددة الألوان ! .

---

(١) الجواد : الطرق .

(٢) المصدر السابق ، ص (ع) .

شكيب والاقتصاد السياسي

كان شكيب أرسلان رجلا كثير الكتابة والتأليف ، ولو أراد قارئ أن يستقصي ما كتبه لاحتاج الى سنوات ، لأن الأمير الذى جمع بين امارة النسب وامارة الأدب قد ظل كما عرفنا أكثر من ستين عاما يكتب كتبا ضخمة ، ومقالات مسهبة ، وقصائد طويلة ، ورسائل مبسوطة ، وتعليقات لغوية ، وآراء سياسية ، ونظرات تاريخية ، وخطرات نفسية .. الخ .

واشتهر الأمير شكيب بالكتابة الواسعة الموصولة فى الشئون العربية والموضوعات الاسلامية ، بحيث لا يمر على العرب أو المسلمين أمر ذو بال الا تعرض له شكيب من قريب أو من بعيد بالكتابة فيه والتحدث عنه . ومع هذا نرى من أمر شكيب عجبا ، فعلى الرغم من غلبة الطابعين الاسلامى والعربى على كتاباته ، نراه يكتب فى شئون ليست وثيقة الصلة بهذين الطابعين ، ومن بين تلك الشئون موضوع « الاقتصاد السياسى » ! .

ومتى يكتب شكيب فى موضوع « الاقتصاد السياسى » ذلك العلم الجديد علينا الحديث العمر بيننا ؟ . انه يكتب فيه حوالى سنة ١٨٩٩ م ، فقد طالعت له فصلا استغرق أكثر من خمس وعشرين صفحة من كتاب « سلاسل القراءة » ، وهذا الكتاب قد صدرت الرخصة بطبعه سنة ١٣١٧ هـ ، وبين يدى الطبعة الثانية منه التى صدرت عن المطبعة الأدبية فى بيروت سنة ١٩٠٤ م ، ويبدأ الفصل فى صفحة ٤٣ من الكتاب ، وينتهى فى صفحة ٧٠ منه .

ويبدأ شكيب فصله عن « الاقتصاد السياسى » بما يفيدنا ميله الى الناحية اللغوية ، اذ يعرّف الاقتصاد بأنه من « القصد » وهو ضد الافراط ، ثم استعير لمعنى العمل بين الاسراف والتقتير ، ثم يذكر معنى الاقتصاد الاصطلاحى ، وهو « تدبير المنزل » . ولكنهم توسعوا فأطلقوا الكلمة على كل نوع من الانتظام وحسن التدبير، فقالوا : الاقتصاد السياسى ، والاقتصاد المنزلى ، ولما كان مرجع الاقتصاد فى المنزل يعود الى المرأة جعلوا دراسته فى مدارس البنات ، كما جعلوا بعض المبادىء الاقتصادية فى التعليم الابتدائى، ومزجوا ذلك ببعض الحكم والمبادىء .

ولكن أمير البيان يلفت نظرنا الى أن التجارب فى باب الاقتصاد خير وأجدى من دراسة النظريات ، وشتان بين النظرية والتطبيق ، وكم من بارعين فى الاقتصاد دون توسع فى الدراسات الاقتصادية .

ثم ينتقل الأمير الى « الاقتصاد السياسى » ، وموضوعه المصالح الاجتماعية المادية ، ويذكر أن العلماء لم يتفقوا على تعريفه، وان عدوه علما من قبيل العلوم الأدبية والسياسية ، وقيل : انه فن ، والفن خلاصة قواعد مبنية على الخبرة والامتحان ، وكل علم يبدو فى تطبيقه فن ، فهناك بين العلم والفن ارتباط ؛ والاقتصاد السياسى يحتاج الى التجربة أكثر من احتياجه الى العلم كما قدمنا، ويعرّف شكيب الاقتصاد السياسى بأنه للتجارة بمقام علم الأصول للفقه .

ويذكر شكيب أن القرن الثامن عشر كان بداية لاستخلاص مبادىء جعلها العلماء أساسا لعلم الاقتصاد السياسى ، ثم يشير

الى ما قاله « آدم سميث » ، « وكريما تستيك » ، « وجان باتست ساى » ، « وكونيد لياك » ، وغيرهم من آراء فى تحديد الاقتصاد السياسى ، ووظيفته وصلته بغيره من العلوم . ثم ينتهى الى خلاصة هى « أن الاقتصاد السياسى لم يكن وضعيا ، بل عبارة عن مجموع معلومات أولدتها الخبرة ، ودل عليها التحقيق الفلسفى ، ثم استنبط منها قواعد متعلقة بالكسب والمبادلة (أى الصناعة والتجارة) مع التعريف بحقائقهما لأجل هداية الدول ، والرئاسات اليها ، وتيسير حصولها عند الحاجة عليها » .

وايراد شكيب لهذه الآراء مع التعقيب عليها وتوجيه الاعتراضات اليها ، واستخلاص الخلاصة منها ، يدلنا على اطلاع شكيب الواسع المبكر ، ومن الواضح أنه استفاد كثيرا من هذه المطالعات الواسعة ، بحيث كان أشبه بدائرة المعارف فى معلوماته ، وفى المواد التى يعتمد عليها فى كتبه ومقالاته .

ويرى شكيب أن أثبت معلومات الاقتصاد السياسى ما كان متعلقا بالمسكوكات والتجارة ، اذ لهما قواعدهما ، وما عداهما تناقضت فيه الأقوال ، وثار حوله الخلاف ، ولا عجب فعلم الاقتصاد السياسى غير محصور ولا ثابت ، وتطرأ فيه أمور غير منضبطة بقوانين مستقرة ، وهذا دليل عظيم على قوة خاطر الانسان ، ونفاذه فى التوليد والاختراع .

ثم ينتقل بعد هذا الى ناحية أخرى من نواحى البحث تدل على كثرة مطالعاته وسعة معارفه وادمانه البحث ، وهى تاريخ الاقتصاد السياسى ، ويرى أن التعرض لهذا التاريخ له فائدته وثمرته ، ثم

يذكر أن فلاسفة اليونان كأفلاطون وأرسطو وآكسينوفون كانت لهم تحقيقات وتدقيقات فى الاقتصاد السياسى ، لا تقل عن تحقيقات الذين جاءوا أخيرا ، والفرق بين القدماء والمتأخرين أن المتقدمين لم يفردوه بالتأليف ، ولم يعتبروه علما قائما بذاته ، بخلاف المتأخرين .

وبلاد اليونان وايطالية لم تخل من النظر فى قضية ادخال الشرائع والقوانين فى مسائل التحصيل والمبادلة منذ ألفى سنة ، كما كانت لهم ولأهل العصور القديمة عناية بالعلاقات التجارية والضرائب والزراعة والملاحة وما اليها ، وان كانت هناك فروق بين الماضى والحاضر بطبيعة الحال .

ويأخذ شكيب على القدماء حماقات كانوا يأتونها ، مثل اعتياد الاسترقاق ، واحتقار الرقيق ، واهانة العمال ، والتهوين من شأن العمل ، حتى ان أفلاطون على الرغم من مكانته وعقله يقول : « ان الطبيعة لم تجعل حدادين ولا حذائين ، لأن هذه المهن فى غاية الدناءة » .

وتنبه شكيب الى هذه المآخذ يدلنا على محاولته القصد فى الحكم ، والانصاف فى الرأى ، ولذلك يصف مثل هذه الآراء بأنها « عريقة النسب فى الحماقة » ، بعد أن ذكر سَبْقَ أولئك القدماء الى بحث مسائل الاقتصاد السياسى . ويقارن بين الماضى والحاضر فى هذه الناحية فيقول : « وهذه المبادىء تظهر لنا عريقة النسب فى الحماقة ، خصوصا فى عصر كهذا أصبح العمل فيه من

المفاخر الجلّى[1] ، وركب من رئاسة الجماهير فيه رجل كان منشأه صنعة الدباغة » وهو فلكس فورلكن » .

ويجب أن نلاحظ هنا أن شكيب قد قال هذا الكلام قبل سنة ١٩٠٤ بسنوات ، وفى خلال نصف القرن الذى مضى بعد هذا التاريخ ازدادت مكانة العمل والعاملين ارتفاعا وسموا ، بل أسرف البعض فى توقير هذه المكانة .

وعلى الرغم من النقد الذى يوجهه شكيب الى اليونان وفلاسفتها فى هذا المجال يعود لينصفها حين يجد مناسبة الانصاف، فنراه بعدما تقدم يقول :

« وكانت لليونان آداب سامية جدا فى ذاتها ، تشهد بها كتاباتهم ، فمنها أن الاقتصاد السياسى عندهم من الأمور الادارية الصرفة المختصة بالحكومة ، وأن الثروة لا قيمة لها الا من حيث كونها سببا من أسباب سعادة الجمهور ، وعلماؤهم يذهبون الى وجوب ادخال الشريعة فى كل شيء ، وسلب حرية الأفراد فى هذه الأمور ، فالمدينة عندهم مجتمع كبير ، كل ساكن فيه منوط به خدمة يؤديها ، أو آلة عظيمة كل فرد يمثل منها دولابا .. » .

وبعد أن يذكر الجانب الاقتصادى السياسى الخيالى فى مدينة أفلاطون الفاضلة ، ينتقل الى آراء « اكسينوفون » فيراه أقل تخيلا من أفلاطون ، فهو يعطى الزراعة حرمة خاصة ، ولكنه لا يحقر التجارة أو العمل باليد ، وان كان قد أخطأ فى اعتقاده أن المعادن الثمينة هى عين الثروة .

(١) الجلى : (بضم الجيم وتشديد اللام المفتوحة) الأمر العظيم.

ثم ينتقل الى آراء « أرسطو » الذى ينظر الى الثروة باعتبار كونها عنصرا من عناصر معيشة الجمهور ، ويرى أن احتياجات الطبيعة البشرية هى المؤثر الأقوى من ضرورات الاقتصاد ، ويرى أن قيمة النقود قيمة اعتبارية ، ولو أبطلت القوانين التعامل بتلك النقود لما بقى لها أدنى قيمـــة ، وهو يرى الزراعة أمّ الايراد ، ويحارب الربا ، لأنه يرى أن الفضة بذاتها لا تلد الفضة .

ويرى شكيب أن أفكار الرومان القدماء عن الاقتصاد كانت قاصرة بسبب شغفهم بالحروب والسياسة ، وما عندهم من ذلك الباب انما هو عارية من اليونان ، ويذكر أنه طالما اهتم فقهاؤهم بمنع الربا ومحاربة الترف والاسراف فلم يوفقوا ، وتأخرت دولتهم بسبب الخلل الاجتماعى والاقتصادى ، ففى القرن الثالث للمسيح عليه السلام فقد من عندهم الأمان ، وذهبت الأموال ، وقطعت السبل ، وقل الوارد ، وفدحت الرسوم والضرائب .

وأمير البيان مولع بشخصية المؤرخ المشهور عبد الرحمن بن خلدون ، وهو يعتبر كتاب مقدمة ابن خلدون من الكتب الأساسية التى وجهته فى التفكير والتعبير ، وقد كرر ذلك المعنى أكثر من مرة فى كتبه وفى مقالاته ، ولذلك ينتهز الفرصة هنا ويورد من كلام ابن خلدون العبارة التالية :

« ان الدولة التى تكون على سنن التغلب والعصبية لابد من البداوة فى أولها ، والبداوة تقتضى المسامحة والمكارمة والتجافى عن أموال الناس ، فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة والوزيعة التى تجمع الأموال من مجموعها ، واذا قلت الوظائف والوزائع على

الرعايا نشطوا للعمل فيكثر ، ويتزايد محصـول الاغتباط بقلة المغرم ، واذا كثر الاعتمار كثرت أعداء تلك الوظائف والوزائع ، فكثرت الجباية التى هى جملتها ، فاذا استمرت الدولة وتعاقب ملوكها واتصفوا بالكَيْس ، وذهبت البداوة والسذاجة ، وجاء الملك العضوض والحضارة الداعية الى الكَيْس ، وتخلق أهـل الدولة حينئذ بخلق التحذلق ، وتكثرت حوائجهم بسبب ما انغمسوا فيه من النعيم والترف ، فيكثرون الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا والأكَرَة والفلاحين وسائر أهل المغارم ، ويزيدون فى كل وظيفة ووزيعة مقدارا عظيما ، لتكثر لهـم الجباية ؛ ويضـعون المكوس على المبايعات وفى الأبواب ، ثم تتدرج الزيادات لتدرج عوائد الدولة فى الترف ، حتى تثقل المغارم على الرعايا ، وتصير عادة مفروضة فتنقبض جملة الجباية بنقصان تلك الوزائع منها ، وربما يزيدون فى مقدار تلك الوظائف اذا رأوا ذلك النقص فى الجباية ، ويحسبونه جبرا لما نقص حتى تنتهى كل وظيفة ووزيعة الى غاية ليس وراءها نفع لكثرة الاتفاق فى الاعتمار وكثرة المغارم، فلا تزال الجملة فى نقص ، ومقدار الوظائف والوزائع فى زيادة الى أن ينقص العمران »[1] .

---

(١) الوزعة : فى القاموس : الوزعة جمع وازع ، وهو الزاجر ، ومن يدبر أمور الجيش ويرد من شذ منهم ، والوزعه : الولاة المانعون من محارم الله تعالى • والكيس : العقل وخلاف الحمق والغلبـة بالكياسة • والأكرة : جمع أكار وهو الحراث (بتشـديد الراء) • والمكوس : الضرائب ، ودراهـم كانت تؤخذ من بائعى السـلع فى الأسواق فى الجاهلية •

وهكذا نرى أمير البيان فى هذا البحث يجمع بين آراء القدامى والمحدثين ، وأفكار الشرقيين والغربيين ، ويؤيد ما يعتقد ، ويفند ما يخالف ، وقد دفعنى الى عرض هذا البحث بقواعده وأصوله قلة ما نطالعه عن الاقتصاد السياسى ، ولنرى كيف استطاع شكيب أن يكتب باجادة عن هذا الموضوع الدقيق ، مع أنه مشهور كما سبق ببحوثه العربية والاسلامية ، ولنـدرك كذلك أن النفس العظيمة وتستطيع أن تصول وتجول فيما تحاول من شئون ، وفى هذا ما فيه من القدوة لنا ، حتى لا نعجز عن المحاولة ، أو نقعد عن السعى .

رحم الله أمير البيان ، فقد كان واسع الأفق متعدد الجهات ، وخلف من ورائه تراثا جديرا بالعناية والاهتمام .

من رسائل الإمام إلى شكيب

كان الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده عَلَماً من أعلام العروبة والاسلام ، وكان عبقريا من عباقرة الاصلاح فى تاريخ الجامع الأزهر الشريف ، وكان زعيما من زعماء التوجيه الدينى والبعث القومى ، ومن حقه على أمته أن ينال كلُّ أثر من آثاره رعايتها وعنايتها ، قضاءً لحق الوفاء من جهة ، واستزادة من الانتفاع بتراثه من جهة أخرى .

ولقد كان الأستاذ الامام فى طليعة الأساتذة الموجهين لشكيب، والمؤثرين فيه ، وقد سبق لنا التعرفُ الى ذلك بتوسع ، ولقد ظل شكيب على صلته بالامام ، منذ نشأت هذه الصلة ، حينما كان الشيخ منفيا فى بيروت عقب الثورة العرابية ، الى أن لحق بربه تبارك وتعالى ، وكانت هناك مراسلات بينهما يعتز بها شكيب كل الاعتزاز ، حتى انه حرص فى سنة ١٩٢٩ على أن يجمع ما عثر عليه من رسائل الامام اليه ، ويبعث بها الى صديقه السيد رشيد رضا حينما شرع فى طبع كتابه عن حياة الأستاذ الامام ، وكان فى نية السيد أن يضع هذه الرسائل فى الجزء الرابع من كتابه « تاريخ الأستاذ الامام » ، ولكن الأجل لم يمهله حتى يصدر هذا الجزء الرابع ، فظلّ فى ضمير الغيب .

وقد وفقنى الله تعالى للحصول على أصولِ مجموعة من رسائل الامام بخطه الى شكيب ، وهذه الرسائل على قلتها ووجازتها وثائق تاريخية هامة ، وصور بيانية لها قيمتها ، وهى فوق

هذا تلقى أضواء على حياة شكيب من جهة ، وحياة الامام من جهة أخرى ، وهى صالحة لكى تكون مع مثيلات لها مفاتيح لمعرفة صفحات من تاريخنا المعاصر ، ولذلك أحرص على اثباتها هنا [١] ، راجيا أن تتهيأ فرصة أوسع لكى أعرض ما بين يدىّ من رسائل شكيب التى تفصح عن الكثير من الأمور السياسية والعربية والاسلامية والأدبية واللغوية .

هذه رسالة بعث بها الامام محمد عبده بتاريخ ٥ صفر ١٣٠٥هـ (١٨٨٧ م) وقد كتب شكيب بخطه فى أعلى الرسالة هذه العبارة : « مكتوب منه لما كان ببيروت ، وكنت دعوته أن يأتى الى محلنا فى الجبل ورضا بك الصلح » .

وفى هذه الرسالة يتحدث الامام عن تقدم شكيب الفكرى ، وعن قصائد له ، وعن نسخ كتب يراد ارسالها الى مصر ، وأظن أنها نسخ من ديوان شكيب الأول « باكورة » ، ويشير الى زيارته لبيت شكيب ، والى رضا الصلح ، ويلحق بالرسالة حاشية مفهومها متردد بين الامام وشكيب ، ونص الرسالة هو :

« أخى الأمير حفظه الله

أظن بلغك أمس أن المكاتيب وصلتنى ، وبعد ذلك قرأت كتابك ، وأعجبنى منه أنه جاء بعد جفاف مخك ، فاننى كما لايخفاك أحب الهواء الجاف ، وعلى قياسه كل شىء جاف .

---

(١) سبق أن ذكرت رسالة من هذه الرسائل عند الحديث عن حياة شكيب .

أما القصائد فليست بباردة كما ذكرت ، وربما تلك البرودة التى أحسستَ بها كانت عند خطور شخص بارد بخاطرك فَعراكَ منه ما غيَّر احساسك ، وما ذلك على تخيل البَردة بعزيز .

المكاتيب وكتب الهدية بعثت اليوم الى مصر . أما الكتب الغير مجلدة فلم نُرسلها للحيرة التى عرضت لنا فى ارسالها ، وسببها تشكيك بعض المشككين ، وابداء الاحتمالات وتخييل المخاوف ، وما أشبه ذلك ، وآخر الأمر اعتمدنا على ارسالها عشرة عشرة ، أو عشرين عشرين ، لما قالوا ان البوسطة لا تقبلها دفعة واحدة ، والعهدة على الرواة فى ذلك كله .

كنت أريد أن آتى غدا لزيارة سعادة الوالد أولا وبالذات ، ولما تزعمه ثانيا وبالعَرض ؛ لكن سألنى حضرة رضا أفندى أن أتأخر الى يوم آخر ، لبقاء والده فى حالة المرض ، فأجبت سؤله ، لسهولة الاجابة على ، ولعدم الموجب لرده فيما سأل ، فاتتظر حتى يأذن الله وقدّم سلامى لسعادة الوالد ، وأرسله لحضرة المير[1] نسيب ، ولا تقطع عنا أخبارك ، والسلام .

٢ ص ١٣٠٥ محمد

عبد القادر أفندى يقول انه رسم الطريق للسالك ، فعلى من تهمه المعارضة أن يعارض ، ولا يريد أن يحتمل من المسألة الجديدة مثل ما احتمل فى القديمة ، ولكن لا يأبى معاونة المؤمن للمؤمن كما تعهد ، ولذلك أسباب اذا التقينا حكينا ، والسلام »[2] .

---

(١) المير : مخفف من « الأمير » .

(٢) هذه هى الحاشية ، وبها انتهت الرسالة .

وهذه رسالة ثانية كتبها الامام الى شكيب بتاريخ ٩ صفر سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧ م) وكتب شكيب فى أعلاها بخطه هذه العبارة : « مكتوب منه الىّ اذ كان فى بيروت وأنا فى الجبل » .

وفى هذه الرسالة يتحدث الامام عن ارسال الكتب المشار اليها فى الرسالة السابقة ، وعن مرض شكيب بالرطوبة ، وعن مرض الامام بمثلها ، وعن مرض أحمد الصلح ، وعن صعوبة تلبية رغبة شكيب فى زيارة الشويفات ، وعن المعطلين للامام عن أعماله ؛ ونص الرسالة هو :

« أخى جناب الأمير حفظه الله

السلام عليكم . رقيمكم الثانى أيضا وصل ، والكتب رأينا ارسالها ربطتين فى بوسطة واحدة ، رغما عن تجربتكم فى الارسال الى حلب ، ومطاوعة لرأى الذين حملوها الى البوسطة ، ولو كنت أنا الحامل لها لجريت على حكم ما جربتم .

أما عود الرطوبة اليكم فهو مما يفزعنى عليكم ، فان أثرها قد ظهر فى صحتى هذه الأيام ظهورا أقلقنى ، خصوصا ما كان من الألم فى كلتا رجلى ، وقاكم الله .

أحمد أفندى الصلح لم يزل فى فراشه توقيا من عودة المرض ، بعد زوال ما كان به والحمد لله ، غير أنه لابد من مضى أيام حتى يتمكن من الخروج لمحل الملاقاة ، فلهذا تمضى هذه الأيام علينا ونحن فى بيروت ، ولا نتمكن من الصعود الى محروسة الشويفات الا بعد استغناء أحمد أفندى عن وجود رضا أفندى مدة تغيبنا ؛ وان شاء الله متى آن الأوان كتبنا اليكم .

ولا تأخذ على بما أخرت في اجابتك ، فانني كما لا يخفاك قد أشغل بما لا يَشغل ، ويعطلني عن العمل من لا يعلق به أمل ، أولئك حزب الشيطان ، ألا ان حزب الشيطان هم الخاسرون .

أرجو تبليغ سلامي الى سعادة الوالد ، وحضرة الأمير نسيب ومن تودون ، وجمال بيك[1] يهديكم أوفر السلام ، والسلام .

٩ صفر ١٣٠٥ محمد عبده »

* * *

والرسالة الثالثة كتبها الامام دون تاريخ ، ولكن شكيب علق عليها بقوله : « هذا مكتوب منه الىّ أيام كنت مديرا لناحية الشويفات ، وكان هو فى بيروت » ، وفيها يتحدث الامام عن ضغائن وقعت فى بداية تولى شكيب لوظيفته ، ويمحضه له النصيحة ، وعن موضوع جماعة متهمين فى احدى الحوادث ، وموضوع يتعلق بانتخاب للبلدية ، ونص الرسالة هو :

« جناب الأمير الفاضل

وصلنى الآن رقيمك ، وكدرنى ظهورُ ضغائن الأحزاب عندك فى هذه الأيام لبداية أمرك ، وأرجو الله أن يهيىء لهم وسائل التراضى ، حتى لا يشوشوا بأعمالهم نظام ادارتك ، ولا يشوهوا بقبائحهم وجهَ سيرتك ، وأخشى أن يكون السبب فى اندلاق ما فى نفوسهم وسوسة ناقس أو كلب مرصد ، فكن من مثل هذا على حذر .

---

(١) هكذا فى الرسالة .

واجعل التأملَ وجائلَ البصيرة رائدكَ الى الحزم ، وقائدك الى العزم ، واياك والغفلة عما يكون من نحو هذا ، فوالله لا تحمد ملكة أحد بمثل أمن الناس بعضهم مع بعض .

ولا تهتم بمجيئك الى بيروت ، فلست أحب أن أراك الا وما وراءك أحمد عاقبة مما لو خلفه غيرك .

لا يقعد عتبُ العاتبين عن ايفاء ما توجب عليك الذمة ، وتتقاضاه منك أحكام الوظيفة ، غير أنه بلغنى بعد اللوم والعتب أن الذين أمسكتهم ليسوا بمطلوبين ، ولا مشتركين فى حادثة المزرعة ، وقد فاتك فى كتابك السابق أن تذكر لى أسماءهم ، فاننا نشرنا فى (الثمرات) شيئا عنهما[1] ، ثم ظهر على ما أخبرنى جمال بيك أنك لم تصب الغرض ، ولكن ظننا أن طول اقامتهما فى المركز بعد القبض عليهما كان لغرض ابدالهما ، فلعل الواردين الى بيروت غير الذين قبضت عليهما ، فنبئنى عن أسمائهما بأسرع ما يمكنك .

مسألة البلدية لا تظهر الا غدا عند فتح الصندوق وسحب الأوراق .

أنا اليوم مريض ، وربما لا ألاقى خليل أفندى الا ليلا ، وسأسلمه ما كتبت اليه . تيقظ ، واستعن بأخيك فى الرأى والعمل ، وسلامى عليك وعليه ، وعلى الأمير مجيد ، والأمير أمين ، والسلام.

محمد »

---

(١) هكذا جاءت العبارة بضمير المثنى ، بعد أن سبق له التعبير بضمير الجمع .

والرسالة الرابعة كتبها الامام بتاريخ ٧ شــعبان ١٣٠٦ هـ
(١٨٨٨ م) وقد كتب شكيب بخطه فى أعلاها : « منه الىَّ اذ كان بمصر ، وقد كنت كتبت اليه عن خلاف وقع » .

وفيها يتحدث الامام عن كتاب « اختــلاف العلم والدين » الذى ألفه « درابر » الأمريكى ، وترجمه شكيب عن الفرنسية ، وراجعه الدكتور ڤانديك وعلق عليه ؛ وينصح الامام شكيب بعدم السفر الى الآستانة ، الا بعد الاحتياط للأمر ، ويشير الى الأعداء والمفسدين ، ويحذر شكيب منهم ، ويشير الى اقتراح لشكيب بالسفر الى طهران ، ويدعوه الى المجىء لمصر ، ويذكر أشــياء أخرى ، ونص الرسالة هو :

« ولدى الأمير الفاضل حرسه الله

وصلنى رقيمك ، والحمد لله على سلامتك ، وركود العواصف عنك ، فقد وجدت فى كلامك رصانة تدل على ثبات قلب وسكون نفس ، وما رأيته فى طبع (درابر)[1] لم يكن يخطر ببالى ، وقد أصبت ، فان الوقت غير ملائم لطبعه بعد اشتهار نسبة الترجمة اليك ، ولو كنت فى تلك الأوقات تبعد فى النظر كما أنت اليوم لكنت ترجمتَه والناسُ فى غفلة منه ، فكنت تنشره اليوم تحت رمز يفسَّر بذاتك الكريمة بعد انكشاف الموانع .

لكن لا بأس فسترى فى ذلك وقتا ملائما ، والرأى ما رأيته من التأنى ولزوم ما أنت فيه حتى يستقيم الطريق الى غيره .

---

(١) يقصد الكتاب الذى أشرنا اليه .

لا تتوجه الى الآستانة حتى يغلب على ظنك نجاحك ، واياك والذهاب على غير هدى من الأمر ولا بصيرة فيه . تقول فى كتابك السابق أو الأسبق : حبيب بيك يعرف على بيك ، وهو الوسط بينك وبين الباب المقروع ، فانتظر خبره ، ثم اذا ذهبت فلا يكن ذهابك بترك الوظيفة ، واجهد أن يكون رخصة تقيم فيها نائبا عنك، اما أخاك أو غيره .

واستوثق قبل ذهابك من نسيب ونصيف ، ومَنْ يشركهما فى النفوذ ، وعدهم ومنّهم كما يعد الشيطان حزبه ويمنيهم ، وان كان لا يعدهم الا غرورا ، ومع ذلك فيمكنك أن تفى لهم بما تعدهم فى مدحك وثنائك بين يدى أولئك الطواغيت العتّلا . هل فهمت ؟ قل : نعم ! .

ثق بنفسك ، واحسب أن كل الناس فى العقل دونك ، لكن اعلم أن المجنون قد يكون منه ما يهلك العاقل اذا لم يحترس فى معاملته ، ولا تحتقر كلمة من متكلم وان انحط قدره ، وضعفت فى الأمور بصيرته ، اذا وصلها بالحق واصل وان ضعف .

ولهذا فانى أقول لك : لابد من الاستمساك بكل وسيلة تسهل الصلح بينك وبين أولئك العقارب ، فان حالا لك سابقة ربما كانت تدع الظنون تذهب مذاهبها فيما يقولون . تلك حال شريفة ، هى حالة السذاجة ونقاء السريرة .

لكنك قد علمت أنها مما تثير الظنون عند الأشقياء والخبثاء .

أما ان كان لا يرضيهم الا موتك كما تقول فلا رضوا ، ولا كان لهم ما يرضيهم أبد الآبدين ، وجعل الله أكبرهم فداك قبل أصغرهم ،

أو أصغرهم قبل أكبرهم ، حسب موقعهم من مضارتك ، ولكنى أحب أن لا تكون لهم عليك حجة ، وأن تكون الحجة لك عليهم ، فان حسن المعاملة مع حفظ الشهامة وارتفاع النفس الى ما تؤهلها له سجاياها من المكانة لا يعيبه عاقل ولا أبله .

واياك أن تموت لارضائهم ، فانى لا أراهم يستحقون موت حمل تذبحه لتولم لهم اذا توقف ارضاؤهم على ذلك ، فكيف بك فى شرفك وأدبك ! .

واذا أخذتَ بما يصلح ذات بينكم فليكن بتدريج لطيف ، لا يحس فيه بوهن ، فيكون الابتداء بالجميل منك زيادة فى خزيهم ، وأنكى لقلوبهم ، وأعون للناس على ذمهم ، وأدعى لهم الى اهانتهم ، لأنهم كثير وأنت واحد ، فلا تجهر بعداوتهم بعد اليوم ، واذا نسبتْ اليهم أفاعيلُ سوء يقصدونك بها فقل : معاذ الله ، قد زالت الأحقاد بيننا ، وما ظننتُ أن نزاعا بين قريبين يصل الى سعى فى ضرر ، وقد عرفنا أن الخير فى الائتلاف ، والشر كل الشر فى الاختلاف ، وكلاما من هذا القبيل ، وان كان لا طائل تحته ، وأهونْ شىء عليك الكلام ، وان كنت تزعم أنك تحترس اليوم ، وتجتهد فى تعويد نفسك على الاحتراس ، وتتخذ كتبك الىَّ بدايات عملك فى تعويد لسانك وقلمك على الاحتراس فليكن كذلك وكما تقول .

تذكر لى (طهران) والسفرَ اليها ، وتسألنى : هلا يمكن أن نذهب الى تلك الأقطار ، ونأتى أعمالا ونبلغ آمالا ؟ . وبنيتَ ذلك على ما سمعت . أما أنا فلم أتحقق هذا الذى سمعتَه ، ولا أعرفه

حاصلا الا بعد أن أجده واصلا بساعة أو ساعتين ، بل بيوم أو يومين ، وبعد ما تحققته وأصبته ولمسته ، وان كان معدودا عددته ، أو ملبوسا لبسته ، فانى أقول : هكذا أثر المواصلة مع الملوك على بُعد منهم .

ولو أنى كنت فى ذراهم ، ويرونى وأراهم ، ويلحظنى بعضُ حاشيتهم بعين حاسد ، وينظر الىَّ بعض أعوانهم نظر الناقد ، ثم يزداد ذلك بهم حتى يمثلون [1] سيآتى فى صور أعظمَ مما تكون ، ويغيرون حسناتى الى ما يَختلقون ، لما أصابنى احسانهم ، ولا وصل الىَّ انعامهم .

ألا ترى كيف أن صاحب الفخامة لم يرض الى الآن ، وهو يتدلل كما تدل الغادة الهيفاء ؟

أما علائقنا مع الباقين فهى أكيدة ، والوداد بيننا وبينهم على حدٍّ من الصفاء والنقاوة ، اللهم الا مأمورى الانجليز ، فاننى منهم على ما يقضى به طبعى وطبعهم ، ويحمل عليه وجدانى ووجدانهم ، ولكن لا أبالى : غضبوا أم رضوا ، وان كانوا أقوى من عقاربك ، فان مصر غير لبنان ! .

ولهذا أرجوك أن تحول فكرك عن مسألة ايران . أما لو عنَّ لك السفر الى الآستانة بعد أن يكتب اليك ذلك البيك وتثق بالنجاح ، وبعد أن تأخذ بالاحتياط فى أمر الوظيفة ، فأحب أن تأتى الى اسكندرية ، ثم منها تذهب الى الآستانة ، وملاقاتى بك اما أن

---

(١) هكذا بالأصل ، ولعله سهو .

تكون فى القاهرة اذا سهل عليك ، واما أن تكون فى اسكندرية ، أجيئك فيها اذا أخبرتنى بيوم قيامك من بيروت ، وعند ذلك تحكى لى كلّ شىء ، وأحكى لك بعضَ الأشياء .

سلّم على نسيب بيك الرجل الأديب الذى صدق لك ، وأبلغه شكرى على ثباته فى الميل اليك مع كل هذه الزعازع ، ولا بأس بالسلام على حسن بيك واكد .

وقبل ذلك سلم على جناب الأمـير أخيـك ، وعلى السيدة والدتك ، والأولاد يقبلون يديها ، والسلام عليكم ورحمة الله .

سلم مكاتيبك الىّ لحضرة عبد القادر أفندى القبانى ، فهو الذى يعرف العنوان ويكتب به . أما مسألة ضياع المكاتيب فانى أعجب لها غاية العجب ، غير أنى اليوم وجدتُ رقيما من أمين أفندى البرير فى بيت أحد أصحابنا من شهرين ، وصاحبنا لا يعلم ، وانما كان الرقيم عند كاتبه ، والسبب أن ساعى البوسطة لم يهتد للبيت ، فلما سأل فى بيت الصاحب وقيل له : انا نعرفه ، ترك الكتاب عند زاعم المعرفة وهو الكاتب ، وهذا نَسى الى اليوم ، مع أنى أرسل رسولا الى البوسطة كل يوم ، فلا تخشى من ضياع المكاتيب أصلا ، خصوصا اذ كانت معنونة باسم سعد أفندى زغلول مقرونا الى اسمى ، وخبِّر أمين أفندى اذا أردت ، والسلام .

٧ شعبان ١٣٠٦ محمد عبده »

* * *

وأما الرسالة الخامسة فقد كتبها الأستاذ الامام بتاريخ غرة محرم ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) ونص الرسالة هو :

« ولدى جناب الأمير الفاضل

جاء كتابك ، وسرنى ما وصفتَ من مركزك ، فاستزد من محبة الناس وميل الباشا ، ولا تجعل للأقارب عليك سبيلا ، والكلام فيك مع المختار ومع بعض من نثق به فى تلك المدينة ، ولعل الله يبلغنى فيك ما أؤمل لك .

ما ذكرت من حالك مع بيت حمادة أكد لى ما أعهد فى صدقك وكمال مروءتك ، وهكذا ينبغى ، ولا حاجة الى الزام الحاج محيى الدين أفندى بالرجوع عن قوله ، أو سحبه (على رأى الافرنج) .

هل تعرف أن الوقت الآن لا يسع طولَ الكلام ؟ . اعلم أن مكاتيبى اليك بعد اليوم ستكون قصيرة جدا ، فان العمل يزيد على الوقت أربعة أضعاف . سلم على جناب الأمير أخيك ، وعلى والدتك ، والأولاد يقبلون يديها والسلام .

غرة محرم ١٣٠٧ محمد عبده »

١ — كل مكتوب منى يذكر فيه شىء مثل المذكور فى مكتوبى اليوم والمكتوب السابق لا تطلع عليه أحدا الا نفسك التى بين جنبيك .

٢ — سلم على الأمير عباس ، وعلى ولده الأمير سامى سلاما كثيرا »[1] .

* * *

(١) هاتان حاشيتان فى آخر الرسالة .

والرسالة السادسة بتاريخ ٧ جمادى الآخرة ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م) وقد كتب شكيب فى أعلى الرسالة هذه العبارة : « منه عن مصر ، وذلك عندما استعفيتُ من المديرية » . ونص الرسالة هو :

« حضرة الأمير النجيب الأمير شكيب أرسلان المحترم

بعد السلام عليك ، آسفنى ما رأيت فى جريدتى الثمرات والمحروسة من خبر استقالتك ، وزاد أسفى غيبةُ السبب عنى ، فلله أنت ، كيف قطعت عنى أخبارك من قبل ، حتى يفجأنى هذا الخبر على ألسنة السيارة ؟ .

فأرجوك الاسراع بانبائى عما كان من أمرك ، وما استقر عليه شأنك . وأهد سلامى الى جناب الأمير أخيك ، والى حضرة الوالدة ، والأولاد يقبلون أيديها ، والسلام .

٧ ج نى ١٣٠٧ محمد عبده » .

* * *

وأُلحق بهذه الرسائل رسالة أصلها الخطى بين يدىّ أيضا ، وهى من الأستاذ الامام الى الأمير نسيب أرسلان شقيق شكيب ، وهى بتاريخ ٢٨ شعبان ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠ م) وفيها حديث عن شكيب ، وقد كتب شكيب فى أعلاها هذه العبارة بخطه : « هذا الكتاب من المرحوم الأستاذ الامام اذ كان بمصر الى المرحوم أخى نسيب جوابا » .

ونص الرسالة هو :

« عزيزى جناب الأمير المحترم الأديب الفاضل

بعد السلام عليكم ، وصلنى رقيمكم ليلة أمس ، وما كنت

لأقصر فى اجابتكم لو وصلنى من حضرتكم كتب سابقة ، ولكن كن على يقين من أنه لم يصلنى قبل هذا الكتاب كتاب فى وقت من الأوقات ، لا عندما كان أخوكم فى القاهرة ، ولا قبل ذلك ، ولا بعده .

الحمد لله على سبوغ نعمة العافية عليكم ، وعلى السيدة والدتكم وعلى جميع الاخوة ، أسأل الله أن يديم عليكم تلك النعمة، كما أسأله أن يرد عنكم كيد الكائدين ، ويدرأ بكم فى نحور الماكرين .

الأمير شكيب يكتب الىّ ، وقد برقت له بارقة أمل أرجو أن يتبعها غيثُ خير ان شاء الله ، وانني لا آلو جهدا فى النصيحة ما استطعت . أما لو رجع الى مصر فقد يمكن من العناء الشديد أن يصل الى عمل من الأعمال ، لكن بعد الزمن الطويل ، لأن الروابط التى أُحدثت فى مصر لم تدع لأرباب الأمر والنهى أنفسهم سبيلا للعمل على ارادتهم ، مهما بلغوا من النفوذ والسطوة، خصوصا بعد ما صار فى أمر المولودين خارج القطر المصرى ما صار ، من وضع قانون خاص بهم ، من مقتضاه أن لا يسوغ لأحدهم أن يطلب الخدمة المصرية الا بعد اقامته بمصر خمس عشرة سنة .

غير أن لى الأمل بأن ينال بغيته فى الآستانة ان شاء الله .

أنا فى الزقازيق قاض لا نائب ، فاذا كتبتَ فاكتب بعنوان : قاضى المحكمة الأهلية بالزقازيق .

قدم سلامى الى حضرة السيدة الوالدة ، والأولاد يقبلون أيديها ، وسلامى على من نحب وتحب ، والله يحفظكم .

٢٨ شعبان ١٣٠٨ هـ محمد عبده »

* * *

ان هذه الرسائل وثائق تاريخية لها قيمتها ، وفيها للأديب نظرة ، وللسياسى فكرة ، وللمكافح عبرة ، وفيها صور وملامح من الفترة التى كتبت فيها ، وان تسجيلى لها هنا أعده محاولة أخرى لاستكمال هذه الصور والملامح ، ولعلى أعثر على مزيد من هذه الرسائل للامام أو لشكيب ، أو لمن ارتبط بهما فى الفكرة والدعوة والوجهة ، مثل السيد محمد رشيد رضا ، وأعتقد أن مجموعة الرسائل الشكيبية التى بين يدىّ لها أهميتها فى هذا المجال ، فاذا أضفتُ الى ذلك أنى مشغول برسالة عن رشيد رضا ، كان لى الحق فى الرجاء والدعاء الى الله عز وجل أن يعين على استجلاء ما خفى من تاريخ هؤلاء الرجال ، والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل .

علی قمبر شکیب

فى ضحى الخميس ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٥٥ خرجت مع بعض الرفقة من بيروت الى « الشويفات » التى تبعد عن عاصمة لبنان بنحو عشرة أميال ، وتبعد عن البحر الأبيض نحو ميل ، وهى فى الجنوب الغربى بالنسبة الى بيروت .

وهناك سمعنا أن « الشويفات » جمع « شويفة » ، وسُمّيت كذلك لأنها قائمة على ثلاث « تَلاّت » جمع تلة ، والشويفة معناها التلة ، كما سمعنا أن المقيمين بالشويفات نحو عشرة آلاف ؛ والمهاجرين منها نحو ستة آلاف ، لأن الهجرة من عادة أهل لبنان عامة ، وأهل الجبل خاصة .

وسألنا عن بيت أسرة شكيب أرسلان فدلونا عليه ، ورأينا بيتا عتيقا ، ولكنه يدل على ماض موسرٍ عريق ، وهو يتكون من ثمان غرف متوسطة ، ورقعة أرضه منخفضة ، وهناك قابلنا الأمير حسن أرسلان — أو المير حسن — وهو شقيق شكيب ، فى نحو الخامسة والسبعين من عمره ، وفى صوته بحة ، وفى سمعه ضعف ، والشبه قوى بينه وبين شكيب ، وكان يلبس الجلباب والصديرى ، وعلى رأسه طربوش .

وسلمنا عليه فرد السلام فى ثقل الشيخوخة ، ودعانا الى القهوة فشكرنا ، وأردنا أن نتوسع معه فى الحديث عن شكيب ، فلم نجد لديه رغبة فى ذلك ، وكلما فتحنا موضوعا للكلام حول شكيب اقتضب الرد وحاول اغلاق الموضوع .

سألناه عن أوراق شكيب وكتبه ومخطوطاته ؛ فأجاب : كلها أخذها غالب بن شكيب ، وهى عنده فى بيروت ، وسألناه : ماذا ترك شكيب من ميراث ؟ . فأجاب : باعها غالب ، وبقى منها فى صوفر « بناية » صغيرة .

وذهبنا الى زيارة قبر شكيب ، وهو على بعد خطوات من البيت ، ويقع على حافة طريق مرصوف تسلكه السيارات ، والمارة تغدو وتروح ، راجلة أو راكبة ، دون أن تدرى أنها تمر على قبر أمير البيان ، وأديب الاسلام ، وكاتب العروبة : الأمير شكيب أرسلان ، الذى ملأ الدنيا ، وشغل الناس قرابة ستين عاما حافلة بجلائل الأعمال وعظائم الأحداث .

ويقع القبر فوق ربوة قليلة الارتفاع على حافة الطريق ، وهو يتكون من جملة أحجار بيض تعلو عن سطح أرض القبر نحو شبر ، وحولها أعمدة حديدية رفيعة ، طول كل منها نحـو متر ونصف ، يصل بعضها ببعض أسلاك شائكة ، ومن حول القبر مجموعة من الحشائش اليابسة والأعشاب الجافة ، بينها شجرة سرو واحدة ، فى الجهة الغربية ، تعلو نحو خمسة أمتار ، وهى الوحيدة التى تظل بخضرتها على القبر الموحش الصامت .

ووقفنا أمام القبر نترحم على شكيب ، وندعو له ، ونتذكر المصير المحتوم لكل حى ؛ وأدرنا أبصارنا يمينا وشمالا لنرى الربوات الخضر المحشودة بأشجار الصنوبر والزيتون وغيرها من الأشجار والأزهار ، بينما بقعة القبر جافة جرداء !

وتطلعت جهة الغرب فرأيت الأحراش فى السهل المنخفض

الممتد ، فمارت بى الذكرى .. هنا اذن وفى هذه البقعة خرج شكيب الى الحياة ، وفيها نشأ ودرج ، وفيها قضى ردحا من حياته، ومنها خرج الى بيروت ، ثم الى دمشق ، ثم الى مرسين ، ثم الى برلين ، ولوزان ، ثم الى جنيف ، ثم الى بقاع الأرض المختلفة : فى آسية وأفريقية وأوربة وأمريكة ، اذ هاجر هجرته الطويلة الواسعة فى سبيل العروبة والاسلام .

والى هذه البقعة عاد شكيب سنة ١٩٤٦ ، بعد أن طالت هجرته حتى قاربت الثلاثين عاما ، وفى هذه البقعة قضى أيامه الأخيرة يجدد ذكرياته القديمة ، ويرى وجه أمه التى طالما تلهف على رؤيتها ، والتى كان يخشى أن تموت قبله ، فأراد القدر غير ما خاف ، فسبقها الى عالم الغيب ، وماتت هى بعده ؛ وظل أهل الشويفات يذكرونها بالخير ، فقد كانت من شهيرات فضليات النساء فى قومها، ويستقبل وفود المهنئين له بعودته ، ويحس بالفرحة الكبرى لتحرر وطنه وعودته الى مسقط رأسه ليختم فيه حياته - وفى هذه البقعة كانت خاتمة شكيب ، حيث توفى فى بيروت فى التاسع من ديسمبر سنة ١٩٤٦ ، والى هنا حملوه وأودعوه التراب ! .

يالجلال الذكرى ، ويا لروعة المصير ! . هكذا يأتى كل عظيم الى الحياة ، ويقضى ما يقضى ، ثم يمضى ، ويخلف وراءه ذكرى ! .

أكل هذا فى التراب ؟ . آه من هذا التراب ! . اننا نرى الآن أحجارا وترابا ، ولكنا نرى من خلف ذلك حياة ضخمة وتاريخا كبيرا .

وتطلعنا فوجدنا بجانب القبر حجرة على هيئة القبة ، فسألنا

عنها فقيل ان بداخلها قبر أخويه نسيب وعادل ، وقبر أمه « السيدة الوالدة » ، « أم البنين » كما كان يعـــبر عنها شكيب ، والتى يضيء أبناء الشويفات على قبرها الشموع من حين لحين ، لأن الشويفات—كما يتحدث أهلوها—لم تشهد سيدةً أعظم منها ! .

وأحضروا لنا مفتاح الحجرة فدخلناها ، ووجدنا حول الأجداث بداخلها أكاليل من الزهور ، فهذا اكليل باسم « مدرسة الحكمة وجامعة متخرجيها » ، وهذا اكليل باسم « بلدية بعبدا وتوابعها » ، وهذا اكليل باسم « مدرسة النهضة بالشويفات » .

هنا أكاليل ، وهناك غير بعيد قبر شكيب بلا أكاليل .. ولكن، لا أسَى ، فالأكاليل هنا قد أتى عليها الجفاف ، فغاضت خضرتها، وتساوى الجفاف هنا وهناك ، وان لم يتساو البناء ، فهنا قبـــة أو حجرة ، وهناك جدث مكشوف للعراء والهواء ! ..

ودنت منا عجوز فسألها بعض الرفقة عن اسمها ، فأجابت : « ورد شبل المحير » . فعاد يسألها : لِمَ لَم يبن لشكيب قبر كأخويه وأمه ؟ . فأجابت : اسألوا الأمير غالب ، فقد ترك الأمير شكيب مالاً يكفى لبناء قبور لا لقبر واحد ، فأين ذهبت ؟ .

وتذكرت أن أمير البيان قد جدد فى حياته قبر السيد على بن ميمون ، وأشار الى ذلك فى تعليقاته على تاريخ ابن خلدون ، وها هو ذا اليوم لا يجد من يبنى له قبرا ، أو من يسويه على الأقل بأمه وأخويه فى المستقر الأخير .

ولكن ، لا بأس ، فلسنا بالقبوريين ، ولسنا عبادَ أجداث ،

وما كان شكيب كذلك ، وانه لحى خالد فى قلب كل منصف وعقل كل مفكر ، بما خلف من آثار تدور حول العروبة والاسلام ..

ودنت الشمس للمغيب ، فأخذنا نقتلع خطانا فى بطء ، لنهبط من الربوة الى الطريق ، وكأننا قد نزعنا أيدينا للتو واللحظة من تسوية التراب على رفات أمير البيان شكيب أرسلان ! ..

قبر الأميرين

كانت وقفتي على قبر شكيب سنة ١٩٥٥ ، وأوحت الىّ الوقفة بالكلمات السابقة ، وبعد ذلك بحين وقف شاعر على قبر شكيب وقبر أخيه عادل ؛ فقد قرأت فى جريدة « العلم العربى » الصادرة فى بونس ايرس ، بتاريخ ١٩ رجب ١٣٧٩ هـ — ١٨ كانون الثانى ١٩٦٠ م أن الشاعر الأستاذ فؤاد الخشن « من أسرة الجبل الملهم » زار قبرىْ شكيب وعادل ، مع الأستاذين عبد اللطيف الخشن صاحب « العلم العربى » والأستاذ أنيس الخشن . وقد أوحت الزيارةُ للشاعر بهذه القصيدة التى جعلها تحت عنوان : « قبر الأميرين » :

أههنا ؟ ...
فى تربة « الميدان »
فى الصمتْ
فى الوجومْ
فى عتمة النسيانِ
يرقدان ؟ !
أههنا مَن: جَمعا
امارةَ الجهاد والبيان
قد هجعا ؟

أههنا المشردانْ
عن الحمى المضيَّع المهان ؟
أههنا من أ ُبعــدا
عن وطن أذله المستعمرُ الدخيلْ
بنِــيره الثقيــل
فمضــيا
يسطران بمــداد
من الحشا ... من لهب الضلوعْ
رسالةَ التحرير والجهاد !

* * *

هنــاك فى « جنيف »
فى شاطىء البحــيرة الكئيبْ
الشاعر الغــريبْ
من يسكب الضياء ... من يذيبْ
فى شعره الدماءَ واللهيبْ
مشردٌ
تعرفه « ليمان » اذ تراه
مضيَّعا . يغيب فى رؤاه
ودمعه تحجبــه نظارتاه
والثورة الحمراء فى حشاه !
وحلْمُه الوحيــد
أن تثب العروبةُ

وثبتها القــوية الحبيبة

أن تكسر الأغــلال

أن تفيــق

من ذلهــا

من نومها العميق ! .

وههنــا فى « الشوف »

فى « حوران »

فى « جبــل الدروز »

من جاع فى الحروب[1]

ليطعــم الفقــير !!

هنــا ... هنا الثــائرُ الأمير

يســير فى العــراء

تحرســه الســماء

مشرّدا ... مهــدّدا ...

يجــوع :

يقتســم الرغيف

مع تسعة من اخوة الجهاد

وشربه من آسن

جرثومة الحمّى به تجوع

لكبد ســخية الدمــاء !

---

(١) يقصد الأمير عادل أرسلان .

فراشــه الرمــال
لحــافه الجليــد
وهَمُّــه الوحيــد
أن يُنصر العــرب
أن يُبلغ الأرب
ويُمحق الدخيــل !
آههنــا قبرهمــا ؟ !
أهكذا قبرهمــا ؟ !
حجارة ، وضــيعة ، وطين
فى تربة يغمرها الاهمال والنسيان
والنّصْبان سَرْوتان
تبكيــان
لغيبة للوفاء فى زمان
الفكرة فيه ضائع مُهان
والشوك فيه بدلَ الزهور
على قبــورْ
تفيــض نــورْ
وتبعث الحيــاةْ !!
الشوك هــذا لعنــةُ الدهور
على بــلاد
تمجّــد البغــاث
وتُنكر النســور !!

ذکری شکیب

أقيمت عقب وفاة شكيب حفلات تأبينية كثيرة له : لعل أكبرها كانت الحفلة التى أقيمت فى القاهرة بدار الأوبرا فى ٨ فبراير ١٩٤٧، وقد أحسن الأستاذ محمد على الطاهر حين جمع ما قيل فى هذه الحفلات وفى الصحف من كلمات ونشرها فى كتاب « ذكرى الأمير شكيب أرسلان » ، ومن الواضح أن هذا ليس كل شىء يفعله الأوفياء فى العالمين العربى والاسلامى من أجل رجل أفنى حياته ووقف قلمه على خدمة العروبة والاسلام .

وفى عدد ٢٣ ديسمبر ١٩٤٦ من مجلة الرسالة نشرت كلمة[١] بتوقيع « ع . ط » — ويظهر أنه الأستاذ على الطنطاوى — وكان عنوانها « أسبوع الأمير » ، وتحدث فيها كاتبها عن عظمة شكيب : وأنه أضخم شخصية عربية ، وأخبرنا أن دمشق اعتزمت ما يلى :

١ — اقامة أسبوع لشكيب يتعاقب فيه الخطباء متحدثين عنه .

٢ — نشر كتب شكيب المخطوطة ، واعادة نشر المطبوع منها.

٣ — جمع رسائله الخاصة تمهيدا لنشرها .

كما أخبر بأنه تألفت لهذه الأغراض لجنة من السادة : عارف النكدى ، وسامى العظم ، وعز الدين التنوخى ، وأنور العطار ،

---

(١) العدد ٧٠٣ ص ١٤٣٠ .

ومظهر العظمة ، وعلى الطنطاوى ، ورئيس الشرف عادل أرسلان شقيق شكيب .

ومرت الأيام دون أن تتحقق هذه الأغراض ! .

وفى عدد ١٣ يناير ١٩٤٧ من مجلة الرسالة كتب رفائيل بطى مقالا بعنوان « الأمير شكيب أرسلان وحركة الاصلاح » قال فيه :

« ان مخلفات الأمير شكيب وتصانيفه الخالدة كثيرة ، لا تستوعبها هذه الكلمة ، فحسبى أننى أشرت الى بعضها ، وعندى أن من واجب أصحاب المروءة ، وأعوان الفضل والمقدرين للرجال أن تتألف منهم جماعة لتخليد ذكرى أمير البيان ، وأول عمل تتوجه اليه لاشادة[1] بناء هذا التخليد البحث عن كتاباته ودراساته ورسائله التى لما تطبع ، فتطبعها فى كتب يتيسر اقتناؤها احياء لذكراه ، واتماما لرسالته ، وتعزيزا للفكرة العليا التى اهتدى بها الراحل الهمام فى جهاده » .

وظل الاقتراح ينتظر التنفيذ .

وفى عدد ١٧ فبراير ١٩٤٧ من مجلة الرسالة نشرت كلمة بتوقيع « الجاحظ » تحدث فيها كاتبها عن حفلة تأبين شكيب التى أقيمت فى دار الأوبرا ثم قال :

---

(١) هكذا بالأصل ، وهو يقصد اقامة البناء ، والاشادة ــ كما فى القاموس ــ رفع الصوت بالسيىء ، وتعريف الضالة ، وفيه : شاد الحائط يشيده : طلاه بالشيد ، وهو ما طلى به حائط من جص ونحوه . ولكنى وجدت فى أساس البلاغة : « شاد القصر وأشاده وشيده : رفعه » ج ١ ص ٥١٣ .

« وانى بعد هذا لأسأل : أيكفى هذا الحفل فى الوفاء بدين الفقيد العظيم ؟ . كلا ، فقد كان الأمير شكيب فى حياته وفى جهاده وفى مواهبه أضخم من هذا وأكبر ، فمن الواجب على أبناء العروبة جميعا أن ينهضوا بعمل يخلّد ذكراه ، وصنيع يحفظ آثاره وينشر تعاليمه ، وانى لأعجب أن تهتم الجامعة العربية فتخاطب حكومة العراق لصيانة تراث الكرملى [1] ، ولا تؤدى هذا الصنيع لصيانة تراث الأمير شكيب » .

ويظهر أن الجامعة لم تقرأ ولم تسمع ، ولذلك لم تجب .

وظل الاقتراح — مرة ثانية — ينتظر التنفيذ ! .

ولم يكن هذا الاقتراح — فى الواقع — نتيجة لعاطفة ثارت بمناسبة وفاة شكيب ، بل ان مثل هذا الاقتراح قديم ، سبق قبل وفاة شكيب بعشرين عاما ، ففى عدد ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٦ من جريدة « الشورى » اقترح الأديب عبد الله بن على الصانع من الكويت أن يقوم أحد الأدباء بجمع مقالات ورسائل الأمير شكيب أرسلان ، لتكون قدوة صالحة للشبيبة العربية الناهضة .

وأيدت « الشورى » الاقتراح ، والتمست من الأمير تحقيقه .

ولكن الأمير لم يحققه ، ولم يقم أحد من الأدباء بتحقيقه ، اللهم الا ما فعلته مجلة « العَلَم العربى » حين جمعت قدرا قليلا جدا من مقالات شكيب ونشرته فى كتاب بعنوان « عروة الاتحاد

---

(١) يقصد الأب أنستاس مارى الكرملى .

بين أهل الجهاد » ، ووضعت على الكتاب كلمة « الجزء الأول » ، ولم نر بعده جزءا آخر .

وفى عدد ٢٤ مارس ١٩٤٧ من مجلة الرسالة نشرت كلمة بتوقيع « الجاحظ » أيضا ، عنوانها « تمثال للأمير شكيب » قال فيها :

« قررت الجالية اللبنانية فى الولايات الأمريكية اقامة تمثال لفقيدة العروبة الأمير شكيب أرسلان ، اعترافا بفضله على العرب والأدب ، وتقديرا لخدماته الجليلة للأمم (للأمة) العربية فى حياته، ووفاء لذلك الرجل العظيم الذى عاش غريبا مشردا ينادى بالحرية والاستقلال لسائر الأقطار العربية .

وهذا واجب تؤديه الجالية اللبنانية فى مطارح الغربة ، ولكن يبقى على أبناء العروبة فى الموطن الأصيل أن يجعلوا للفقيد تذكارا حيث نشأ ، وحيث جاهد وناضل ، ليذكر الأبناء ، ويشحذ من عزيمة الأحفاد [1] » .

ومع أننى لا أرى اقامة التماثيل أجدى وسيلة لتخليد أبطالنا وأعلامنا ، فانى لا أعلم ما كان من شأن هذا الاقتراح فى مجال التنفيـــذ .

* * *

وفى الثلاثين من نوفمبر سنة ١٩٥٥ اجتمعت فى دار الرئيس سامى الصلح فى بيروت طائفة من الأدباء والعلماء تمثل لجنـــة لتخليد ذكرى المغفور لهما الأميرين شكيب وعادل أرسلان ، باقامة

---

(١) الرسالة ، العدد ٧١٦ ، ص ٣٤٨ .

حفلة جامعة ، وانشاء نصب تذكارى ، وطبع مؤلفات الفقيدين ، واتتخبت اللجنة مكتبا اداريا تنفيذيا لها ، رئيسه سامى الصلح ؛ ونائب الرئيس عارف النكدى ، ومندوبه المفوض محمد على الطاهر ، وأمين الصندوق جورج صيدح ، وأمين السر رشاد دارعوث ، ونائب أمين السر فريد أبو عز الدين ، والمستشار القانونى محسن سليم .

ورحبت اللجنة بقبول كل من رئيس الجمهورية اللبنانية ، ورئيس الجمهورية السورية ، رياسة الشرف .

وتلقت اللجنة تبرعات بلغت خمسة آلاف ليرة من الرئيس سامى الصلح وأصدقائه وجورج صيدح وأسعد النجار ؛ وأعلنت اللجنة استمرار فتح الباب لقبول التبرعات .

كما دعت اللجنة أدباء العربية وكتابها للاسهام الأدبى فى هذا العمل [1] .

وفى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٥ تلقيتُ رسالة تاريخها ١٣ كانون الأول ١٩٥٥ من الرئيس سامى الصلح يتحدث فيها بعد الديباجة عما « لتكريم الرجال الأبرار من أثر فى توجيه الأجيال الطالعة ومصائر الأوطان » ، ثم يشير الى المكتب التنفيذى السالف الذكر ، ثم يقول :

« والمكتب المشار اليه وطيد الأمل بأن سماحتكم تباركون

---

(١) هذه المعلومات مستقاة من محضر جلسة اللجنة الأولى بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩٥٥ ، وقد أرسله الى أمين سر اللجنة مع خطاب بتاريخ ٧ شباط (فبراير) ١٩٥٦ .

مسعاه ، وتتفضلون بالمساعدة الممكنة لتحقيق الغرض المنشود ، معنوية كانت أم مادية » .

وسارعت بالكتابة اليه ذاكرا اشتغالى بوضع رسالة عن شكيب ، واستعدادى للاسهام فى مجهود اللجنة بما أستطيع ، وانتظارى الخطوات التالية للجنة فى سبيل تحقيقها لأهدافها .

ثم تلقيت رسالة ثانية من الرئيس سامى الصلح تاريخها ٢٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٥ يخبرنى فيها بأن رسالتى اليه قد عرضت على المكتب التنفيذى فى جلسته المنعقدة يوم ٣١ ديسمبر ١٩٥٥ ، وقرر شكر صاحبها على اسهامه فى العمل لتخليد ذكرى شكيب ، وأنه سيوالى صاحبَ الرسالة بما يجد من خطوات .

ومرت الأيام ، وعدتُ الى مراسلة اللجنة ، وتلقيت رسالة من أمين اللجنة تاريخها ٧ شباط (فبراير) ١٩٥٦ تفيد أن اللجنة ماضية فى طريقها وان اعترضتها بعض العقبات ، وأنها ستعمل على وقف البيت الذى رأى فيه شكيب وعادل النور فى « الشويفات » ، وانشاء جوائز أو مقاعد فى الجامعات تخليدا لذكراهما .

ثم تلقيتُ رسالة تاريخها ٢٧ شباط (فبراير) ١٩٥٦ من المدير العام لوزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة بلبنان يقول ان « اللجنة ماضية فى عملها » ، وأرفق بالرسالة محضر جلسة اللجنة المنعقدة فى ٣٠ نوفمبر ١٩٥٥ .

وعادت الأيام تمر وتمضى ...

ولا أعلم حتى كتابة هذه السطور أن اللجنة قد حققت الأغراض التى أنشئت من أجلها .

* * *

ومعنى هذا كله أن شكيب لم ينل ما ينبغى له من حقوق التخليد لذكراه ، ولا شك أن هذا تقصير يعيب الأمة العربية ، واذا كانت الآراء قد تعددت فى وجوه التخليد لذكرى شكيب فانى أقترح لتخليدها ما يلى :

١ — المبادرة بطبع مخطوطات شكيب وآثاره التى لم تنشر من قبل مثل بقية « الحلل السندسية » ، وكتاب « بيوتات الأعيان فى لبنان » ، وترجمة حياته بقلمه ، والجزء الثانى من رسائل الصابى .. الخ .

٢ — جمع مقالات شكيب الكثيرة من شتى الصحف والمجلات ، وتبويبها ونشرها فى مجموعات ، ويمكن أن تقسمها بصفة مبدئية الى المجموعات التالية :
المقالات السياسية — المقالات القومية — المقالات الاسلامية — المقالات الأدبية — المقالات اللغوية — المقالات الاجتماعية .

٣ — اعادة طبع كتب شكيب التى سبق نشرها ، لأن الكثير منها نادر ، وبعضها لا يوجد فى السوق الأدبية اطلاقا .

٤ — جمع رسائله الكثيرة التى وجهها الى أقرانه وأصدقائه، وتحدث فيها عن اللغة والأدب والشعر والعرب والاسلام وغير ذلك من الشئون العامة ، واتخاذ ما يلزم

لنشر هذه الرسائل ، أو لنشر المختار منها على الأقل مع التعليق عليها .

٥ — جمع شعر شكيب كله ، بما فى ذلك شعر «الباكورة»، وشعر « الديوان » ، وما قاله بعد ذلك من قصائد أو مقطوعات ، واستكمال مراجعة الصحف والمجلات التى نشر فيها شكيب ، لنجمع منها ما يتمم مجموعة شعره ، ثم طبع ذلك كله .

٦ — بناء مدرسة باسم شكيب فى لبنان ، وحبذا لو كانت فى « الشويفات » بلد شكيب ، أو اطلاق اسمه على مدرسة قائمة فى لبنان على الأقل .

٧ — تحويل البيت الذى ولد فيه شكيب الى منزل شعبى، وتكوين مكتبة عربية اسلامية فيه تضم أول ما تضم كتب شكيب وآثاره ، وهذا يستتبع انصاف أسرة شكيب ماديا ومعنويا .

٨ — تدريس حياة شكيب وآثاره فى الجامعات والمدارس ، فالملاحظ أنه مهضوم الحق فى هذه الناحية .

٩ — اقامة مهرجان أدبى لشكيب كل عام ، بحيث يكون موضوعيا لا شخصيا ، أى يعنى بالحديث عن الموضوعات العربية والاسلامية والعامة التى عنى بها شكيب ، ولا يقتصر على كلمات الرثاء أو الثناء .

١٠— أعتقد أن أعظم تخليد لذكرى شكيب هو احتضان ما شغل نفسه به من أمور أراد بها خدمة قومه وعقيدته،

كالغيرة على العروبة ، والاسلام ، ولغة القرآن ، وتاريخ العرب ، وقضايا العرب والمسلمين .

* * *

رحم الله أمير البيان ، الأمير شكيب أرسلان ، وأسبغ عليه سحائب الرحمة والرضوان ، بقدر ما خدم تعاليم دينه ، وأعز لغة قرآنه ، وسعى فى خير العرب والمسلمين ؛ انه أكرم مسئول وأفضل مأمول .

كتب شكيب وآثاره

لشكيب أرسلان عشرات من الكتب والآثار ، وبعض هذه الكتب مطبوع ومنشور وبعضها مخطوط ، وبعضها كتب كان شكيب ينتوى تأليفها ، أو اقترحها عليه مقترحون ، وقد تحدثت عن هـــذه الكتب كلها بتوسع فى رسالتى عن « أمير البيان شكيب أرسلان » ، وأقتصر هنا على سرد أسماء هذه الكتب :

المطبوعات والمنشورات

١ ـ باكورة « ديوان شعر » .

٢ ـ الدرة اليتيمة « تحقيق وتعليق » .

٣ ـ رواية آخر بنى سراج « ترجمة » .

٤ ـ المختار من رسائل الصابى « تحقيق وتعليق » .

٥ ـ الى العرب ، بيان للأمة العربية عن حزب اللامركزية .

٦ ـ أعمال الوفد السورى الفلسطينى .

٧ ـ حاضر العالم الاسلامى « تعليقات » .

٨ ـ أناتول فرانس فى مباذله « ترجمة » .

٩ ـ لائحتى الى المسيو جوڤنيل .

١٠ ـ مجلة الأمة العربية « بالفرنسية » .

١١ ـ لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟ .

١٢ ـ الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج الى أقدس مطاف .

١٣ ـ محـــاسن المســـاعى فى مناقب الامام أبى عمرو الأوزاعى « تحقيق وتعليق » .

١٤ ـ تاريخ غزوات العرب فى فرنسة وسويسرة وايطالية وجزائر البحر المتوسط ٠

١٥ ـ روض الشقيق فى الجزل الرقيق « تحقيق وتعليق » ٠

١٦ ـ ديوان الأمير شكيب أرسلان ٠

١٧ ـ شوقى أو صداقة أربعين سنة ٠

١٨ ـ تاريخ ابن خلدون « تحقيق وتعليق » ٠

١٩ ـ الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية ٠

٢٠ ـ السيد رشيد رضا أو اخاء أربعين سنة ٠

٢١ ـ الوحدة العربية ٠

٢٢ ـ النهضة العربية فى العصر الحاضر ٠

٢٣ ـ عروة الاتحاد بين أهل الجهاد ٠

٢٤ ـ رسالة البلاشفة ، أو رحلة روسية ٠

٢٥ ـ رسالة رحلة ألمانية ٠

٢٦ ـ رسالة عن ضرب الفرنسيين لدمشق ٠

٢٧ ـ مقالات شكيب ٠

المخطوطات

٢٨ ـ بيوتات العرب فى لبنان ٠

٢٩ ـ البيان عما شهدت بالعيان ٠

٣٠ ـ تاريخ بلاد الجزائر ٠

٣١ ـ مالم يرد فى متون اللغة ٠

٣٢ ـ حياة شكيب بقلمه ٠

٣٣ ـ بحث عن طرابلس وبرقة ٠

٣٤ ـ الحلة السنية فى الرحلة البوسنية ٠

٣٥ ـ اختلاف العلم والدين « ترجمة » ٠

٣٦ ـ مدنية العرب ٠

٣٧ ـ الجيش المعبا من تاريخ أوربا .
٣٨ ـ قضيتنا مع سمو الخديوى .
٣٩ ـ تاريخ لبنان .
٤٠ ـ اصلاح العامية .
٤١ ـ التعريف بمناقب سيدى أحمد الشريف : (السنوسى) .

كتب مقترحة أو كانت فى النية

٤٢ ـ الفوضى الاسلامية وما جنته على المسلمين ، والوحدة الاسلامية وما جنته للمسلمين .
٤٣ ـ قطف العسلوج، فى وصف الماء المثلوج، بجوار البيت المحجوج.
٤٤ ـ الحجر الكريم فيمن ولد من العلماء بتريم .
٤٥ ـ الديانة فى ألمانية .
٤٦ ـ سيرة صلاح الدين الأيوبى .
٤٧ ـ العقد الثمين فيمن من العلماء تجاوز الثمانين .
٤٨ ـ الاسلام فى المستعمرات الأوربية .
٤٩ ـ الحرب العامة الأولى .
٥٠ ـ دليل العالم الاسلامى .

المصادر والمراجع

١ ـ الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث : تأليف أنيس الخورى المقدسى ، من منشورات كلية العلوم والآداب بجامعة بيروت الأمريكية ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٥٢ م • جزآن •

٢ ـ الأديب : مجلة أدبية تصدر فى بيروت فى مطلع كل شـــهر ميلادى ، صاحبها ألبير أديب •

٣ ـ الارتسامات اللطاف ، فى خاطر الحاج الى أقدس مطـاف : تأليف شكيب أرسلان • تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار بمصر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣١ م •

٤ ـ الاسلام والتجديد فى مصر : تأليف تشارلز آدمز ، ترجمة عباس محمود ، مطبعة الاعتمـــاد بمصر ، سنة ١٣٥٣ هـ ـ ١٩٣٥ م •

٥ ـ الأعلام : تأليف خير الدين الزركلى ، مطبعــة كوستاتوماس وشركاه بالقاهرة ، سنة ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م • عشرة أجزاء•

٦ ـ الأمير شكيب أرسلان ، حياته وآثاره : تأليف سامى الدهان، مطبعة دار المعارف بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٦٠ م ـ ١٣٨٠ هـ •

٧ ـ أناتول فرانس فى مباذله : تأليف جان بروسون ، ترجمـــه وقدم له وعلق عليه شكيب أرســـلان ، المطبعـــة العصرية بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، لم تذكر سنة الطبع ، ولكنهـــا سنة ١٩٢٦ م ـ ١٣٤٥ هـ •

٨ ـ الأهرام ، جريدة يومية تصدر بالقاهرة ٠
٩ ـ تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده : تأليف السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار بمصر ، الجزء الأول سنة ١٣٥٠هـ ـ ١٩٣١ م ٠ والجزء الثانى ، الطبعة الثانية سنة ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٥م ٠ والجزء الثالث ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٧ م ٠
١٠ ـ تاريخ ابن خلدون : تأليف عبد الرحمن بن خلدون ، تعليق شكيب أرسلان ، الجزآن الأول والثانى ، مطبعة النهضة بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م ٠
١١ ـ تاريخ غزوات العرب فى فرنسة وسويسرة وايطالية وجزائر البحر المتوسط : تأليف شكيب أرسلان ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥٢ هـ ـ ١٩٣٣ م ٠
١٢ ـ حاضر العالم الاسلامى : تأليف لوثروب ستودارد الأمريكى، ترجمة عجاج نويهض ، تعليق شكيب أرسلان ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٣ م ٠ أربعة أجزاء ٠
١٣ ـ دائرة معارف القرن العشرين : وضع محمد فريد وجدى ، مطبعة دائرة المعارف بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٤ م ٠
١٤ ـ ديوان الأمير شكيب أرسلان : تأليف شكيب أرسلان ، طبع وتصحيح السيد محمد رشيد رضا ، مطبعة المنار بمصر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٥ م ٠
١٥ ـ ذكرى الأمير شكيب أرسلان : جمع وطبع محمد على الطاهر، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧ م ٠

١٦ ـ رسائل شكيب أرسلان الى السيد محمد رشيد رضا : مجموعة رسائل مخطوطة بين يدى ٠
١٧ ـ رسائل الامام الشيخ محمد عبده الى شكيب أرسلان : مجموعة رسائل مخطوطة بين يدى ٠
١٨ ـ الرسالة : مجلة أسبوعية كانت تصدر فى القاهرة ، صاحبها أحمد حسن الزيات ، توقفت فى نهاية سنتها العشرين ، بعد عدد ٢٩ ديسمبر ١٩٥٢ م ـ ١٣٧٢ هـ ٠
١٩ ـ رواية آخر بنى سراج : تأليف الكونت دى شاتو بريان الفرنسى ، ترجمة شكيب أرسلان ، مطبعة المنار بالقاهرة ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٤٣ هـ ـ ١٩٢٥ م ٠ ومع الرواية خلاصة تاريخ الأندلس لشكيب ، وكتاب أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر ، لمؤرخ مجهول ، وأثارة تاريخية رسمية فى أربعة كتب سلطانية أندلسية ٠
٢٠ ـ روض الشقيق فى الجزل الرقيق : شعر نسيب أرسلان ، جمعه وقدم له وعلق عليه وأردفه بنسب الأسرة الأرسلانية شكيب أرسلان ٠ مطبعة ابن زيدون بدمشق ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٥ م ٠
٢١ ـ الزهراء : مجلة شهرية ، كانت تصدر بالقاهرة ، لصاحبها محب الدين الخطيب ٠
٢٢ ـ سلاسل القراءة : مجموعة موضوعات ، المطبعة الأدبية ببيروت، الطبعة الثانية ، سنة ١٩٠٤ م ـ ١٣٢٢ هـ ٠
٢٣ ـ السيد رشيد رضا أو اخاء أربعين سنة : تأليف شكيب أرسلان ٠ مطبعة ابن زيدون بدمشق ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م ٠
٢٤ ـ الشباب : مجلة اسبوعية كانت تصدر بالقاهرة ، اصدرها محمد على الطاهر ، من فبراير سنة ١٩٣٧ الى أوائل ابريل سنة ١٩٣٩ بدلا من جريدته « الشورى » الموقوفة ٠

٢٥ ـ الشـــورى : جريدة أسبوعيـة كانت تصـدر بالقـاهرة ، لصاحبها محمد على الطاهر ، صدر العدد الأول منهـــا فى ٢٣ ربيع الأول ١٣٤٣ هـ ـ ٢٢ أكتـوبر سنة ١٩٢٤ م ٠ ووقفت عن الصدور بعد عدد ٥ أغسطس١٩٣١ مـ١٣٥٠ هـ٠

٢٦ ـ شوقى أو صداقة أربعين سنة : تأليف شكيب أرســلان ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م ٠

٢٧ ـ العرفان : مجلة لبنانية شهرية ، تصدر فى بلدة صـيدا ، صاحبها أحمد عارف الزين ٠

٢٨ ـ العروبة أولا : تأليف ساطع الحصرى ، مطبعة دار العــلم للملايين ببيروت ، الطبعة الأولى سنة ١٩٥٥م ـ ١٣٧٥هـ ٠

٢٩ ـ عروة الاتحاد بين أهل الجهاد : مجموعة مقالات لشــكيب أرسلان ، جمعت وطبعت على نفقة جريدة (العــلم العربى) التى تصدر فى بونس ايرس لصاحبها عبد اللطيف الخشن، الطبعة الأولى فى رجب ١٣٦٠ هـ ـ آب ١٩٤١ م ٠ لم يطبع غير الجزء الأول ٠

٣٠ ـ العلم العربى : جريدة تصدر فى بونس ايرس ، صاحبهـا الأستاذ عبد اللطيف الخشن ٠

٣١ ـ الفتح : مجلة أسبوعية كانت تصدر بالقاهرة ، لصاحبهـا محب الدين الخطيب ٠

٣٢ ـ الكتاب: مجلة شهرية كانت تصدر بالقاهرة، رئيس تحريرها عادل الغضبان ٠

٣٣ ـ الكتاب الذهبى ليوبيل المقتطف الخمسينى : لمجموعة كتاب، مطبعة المقتطف والمقطم بمصر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٢٦ م ـ ١٣٤٥ هـ ٠

٣٤ ـ لماذا تأخر المسلمون ؟ ولماذا تقدم غيرهم ؟ ، تأليف شـكيب

أرسلان ، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩ م ٠

٣٥ ـ مجلة المجمع العلمي العربى : مجلة شهرية ، يصدرها المجمع العلمى العربى بدمشق ٠

٣٦ ـ المشرق : مجلة كاثوليكية ، تصدر مرتين فى الشهر بادارة آباء كلية القديس يوسف ، صاحب امتيازها لويس شيخو اليسوعى ، بدأت فى الصدور منذ سنة ١٨٩٨ م ـ ١٣١٦ هـ٠

٣٧ ـ مصادر الدراسة الأدبية : تأليف يوسف أسعد داغر ، مطابع لبنان، الطبعة الأولى ، الجزء الثانى، سنة ١٩٥٦م ـ ١٣٧٦هـ.

٣٨ ـ المقتبس : مجلة شهرية كانت تصدر فى دمشق ، صاحبها محمد كردعلى ، وبدأ صدورها سنة ١٣٢٤هـ ـ ١٩٠٦م ٠

٣٩ ـ المقتطف : مجلة شهرية ، كانت تصدر بالقاهرة ، لصاحبها يعقوب صروف ، بدأت الصدور سنة ١٨٧٦ م ـ ١٢٩٣ هـ ٠ توقفت عن الصدور فى نهاية سنة ١٩٥٢ م ـ ١٣٧٢ هـ ٠

٤٠ ـ منبر الشرق : جريدة أسبوعية كانت تصدر فى القاهرة ، لصاحبها على الغاياتى ٠

٤١ ـ النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى : تأليف محمد أحمد الغمراوى ، وبأوله مقدمة طويلة لشكيب أرسلان فى ٥٦ صفحة ، المطبعة السلفية بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٤٧ هـ ٠ ـ ١٩٢٩ م ٠

٤٢ ـ نهضة الشعوب الاسلامية : تأليف محمد حبيب أحمد ، دار النيل للطباعة بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، سنة ١٩٥٢ م ـ ١٣٧٢ هـ ٠

٤٣ ـ النهضة العربية فى العصر الحاضر : محاضرة ألقاها شكيب أرسلان فى دار المجمع العلمى العربى بدمشق فى أكتوبر سنة ١٩٣٧ م ، وطبعتها مطبعة دار النشر بمصر ، وقد عنيت

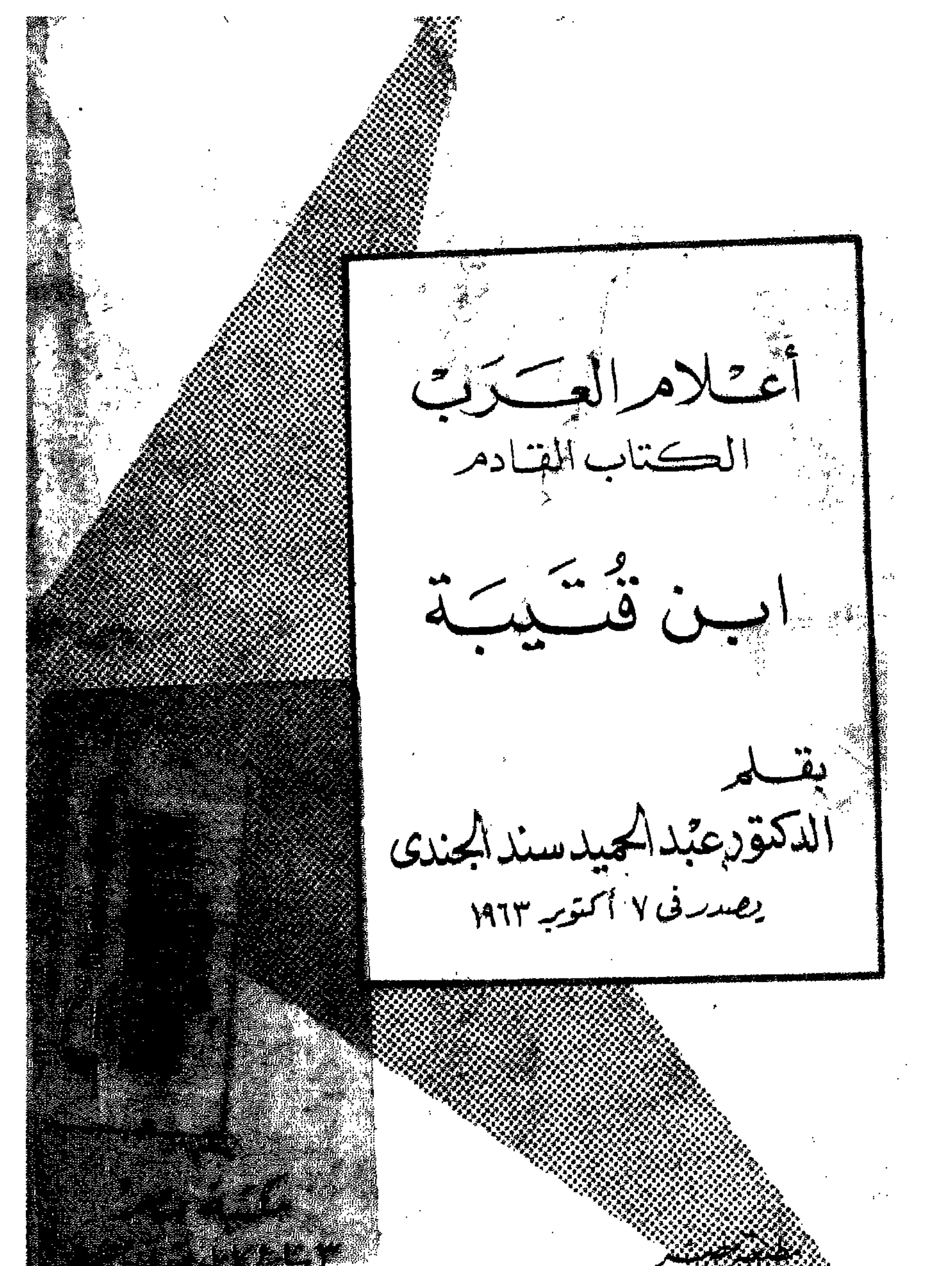
بطبعها ونشرها أدارة جريدة الجزيرة بدمشق ، وليس على الكتاب سنة الطبع، ولكن يظهر أنها سنة ١٩٣٧م – ١٣٥٦هـ.

٤٤ ـ الهلال : مجلة شهرية تصدر بالقاهرة ، لمؤسسـها جورجى زيدان ، بدأت الصدور فى سبتمبر ١٨٩٢ م ـ ١٣١٠ هـ .

٤٥ ـ الوحدة العربية : محاضرة ألقاها شكيب أرسلان فى النادى العربى بدمشق فى ٢٠ سبتمبر ١٩٣٧ ، وطبعت فى مطبعة الاعتدال بدمشق ، نشر محمد ياسين عرفة ، صاحب مكتبة عرفة بدمشق ، الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧ م ـ ١٣٥٦ هـ .

فهرست





أعلام العرب
الكتاب القادم
ابن قتيبة
بقلم
الدكتور عبد الحميد سند الجندى
يصدر فى ٧ أكتوبر ١٩٦٣
طبعة ممتازة